رواية

رضا البهات

ساعة رملية

تعمل بالكهرباء

دار كيدا

رضـــا البهـــات

ولد في مدينة المنصورة عاصمة محافظة الدقهلية شمال دلتا مصر عام ١٩٥٥م، تخرج في كلية الطب جامعة المنصورة ليبدأ بعدها رحلته مع الكتابة .. نُشرت له العديد من القصص القصيرة والمقالات في الصحف والدوريات المصرية والعربية .. تُعد رواية "ساعة رملية .. تعمل بالكهرباء" هي الإصدار الأدبي الرابع ضمن الأعمال الإبداعية الطويلة للكاتب، والتي كان أولها رواية "بشاير اليوسفي" الصادرة عام ١٩٩٢م عن سلسلة كتاب "أدب ونقد".. والتي تلتها المجموعة القصصية "طقوس بشرية" الصادرة عن الهيئة المصرية العامة للكتاب عام ١٩٩٥م، وأعقبتها رواية "شمعة البحر" التي صدرت عن المجلس الأعلى للثقافة عام ٢٠٠٤م.

للتواصل مع الكاتب

redaelbahat@darbadael.com

ساعة رملية

تعمل بالكهرباء

ساعة رملية تعمل بالكهرباء

روايـة

رضـا البهـات

الطبعة الأولى ٢٠١٤

© دار بدائل للطبع والنشر والتوزيع

٩٨ ش محيي الدين أبو العز ـ المهندسين ـ الجيزة ـ مصر

الرقم البريدي 12411

00202-33361467
002-01157565677
www.darbadael.com
info@darbadael.com

لوحة الغلاف إهداء الفنان علي البهات

رقم الإيداع: 9188/2014

الترقيم الدولي 978-977-85110-0-0

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة تصويرية أو إليكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أية وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر.

رضا البهات

ساعة رملية
تعمل بالكهرباء

دار بدائل للطبع والنشر والتوزيع

القاهرة ٢٠١٤

(١)

ياه.. نمت كثيرًا، أشعر بوخم وآلام كالمضروب علقة، أهفو إلى الشوارع ورؤية الناس.. لأكن صريحًا، أنا أحب النوم. حتى إن "فاطمة"، أول فتاة تصالحني على أرحام النساء لديها نسخة من مفتاح الشقة ـ كانت تقول.. لسه نايم!.. إنت لو فتحت لوكاندة تكسب كتير.

هذه أول كذبة.. فالأصدق أنها أول فتاه تصالحني على نفسي.

صرت أحط رأسي فأنام. لا أحلم، بالأدق لا أتذكر حلمًا، الأحلام ترتب عقلي وتبرئ ألم المعدة. أشبه سلالتي، فليس فيهم من يذهب إلى طبيب لألم معدة، هم يرون المرض من طبيعة الحياة، ضريبة الصحة، أو كفارة عن ذنب ما. أما أنا أعرف شفائي.. شفائي أن أقلل من الشراب وأكتب رواية عما رأيته خلال عمري الذي انتصف.

ذات يوم بعيد سأل المدرس.. ما الكائن الذي كنت تحب أن يخلقك الله عليه، لو لم تكن إنسانًا؟ سمكة.. عصفور.. قطة.. أسد، هكذا أجاب الجميع. وجاء دوري، قلت.. لا أرغب في أن أكون غير الإنسان. قلتها مخبئًا في عقلي كهيئة حصان رمادي قوي في لون الفضة.

هزأ بي المدرس وصرت أسمعه.. روح يا إنسان.. تعالى يا إنسان، ويضحك له الأولاد. لم يكن ثمة حصان كهذا، فما عهدته من أحصنة

هزيلة، ينهال صاحبها عليها وعلى نفسه شتمًا وهو يلطمه ويتمدد عضوه لدى رؤية فرسة بعيدة. بينما يمثل لي جواد فتي، يشب على قائمتيه، ويصهل، حتى يلامس ذيله الأرض.

قمت لأعمل شايًا، حين علت دقات ساعة الحائط العتيقة كصندوق مُعلق. كانت "فاطمة" حين تزعجها الدقات، تطلع على الكرسي ولو عارية لتفصل سلكًا ما. كلما أزعج الدق نومي أفكر بأن أفعل مثلها وأتكاسل. غير أن دقات هذا العصفور ألهمتني عنوانًا للرواية.. (ساعة رملية تعمل بالكهرباء). منذ فترة وهي تدق عشوائيًا، ففي الرابعة أسمع ٩ دقات، وفي السابعة دقتين، وفي أي وقت يدق العصفور بدقة واحدة محشرجة كالشخرة. لسنوات وأنا أنوي تصليحها، وأنسى. وبالوقت اعتدت مشهده يزق برأسه ويرف عشوائيًّا بجناحين من البلاستيك يلتصقهما التراب.

صندوق يذكرني بالمرأة.. هنا تروس ولوالب ورقائق يؤالفها عمل إصبعين على زنبرك، وهناك إصبعان ينزلان بصوتها إلى رجاءات خافتة ليتدفق ماء يهدده الجفاف. إصبعان أو ثلاثة هي ما يلزم الكتابة أيضًا أو حتى الإمساك بكوب النبيذ، بينما يكفي إصبع واحد لنطلق النار.. لنقتل، أما العمل فيخصم منا إصبعًا.. يا له من عالم رحيم؛ صمم ماكينة لعد النقود تغني عن عمل اليدين، واقتضى أصابعنا العشرة كلها لكي تنتج الموسيقى ويراقص رجل امرأة.. لا عبث هناك.

بي حاجة إلى كوب ماء بارد أعبه، ثم أعيد ملأه لأشرب بعضه، وبعد قليل أشرب الباقي. كانت جدتي تعد لهفتها إلى الماء في مرضها علامة الشفاء بغير دواء. أحس الآن كلمة عذب، ليس كوب نبيذ أو بيرة، بل كوب ماء يختم على جوفي برحمة الماء، يتدلدق على صدري وأنا أشربه بالطبق مثلها.

تحت الساعة برواز قديم، صدأ الخيط من ثنيته. أفكر بالقيام وجذب البرواز جذبةً واحدة، بدلًا من انتظار سقوطه، متخيلًا أنه يحجب خزنة بها نقود وحجج ملكية كما في الأفلام.

بالبرواز صورتان متجاورتان بهتتا والتصقتا الزجاج ببقع كالزيت. الأولى رمادية أظهر فيها طفلًا مع أسرته، البنات والأم في بلوزات نصف كم وفساتين ترجال إلى الركبة، فقد كن محافظات، على الصدور عقود كحبات العنب، غير "إنعام" التي لبست شبكتها كاملة، إلى جواري أب ضئيل ضخم الشارب ذراعه اليمين مشمرة كأنما جيء به من عمل، على صدغيه رمل كثير، الدائرة التي في شعره عيب تصوير، والبقعة الغامقة في رقبته وحمة. أمي أسمن منه وشعرها مجعد، تضع يدها على بنت بيضاء جميلة أصغر مني، هي ابنة جارة مازلت أراها إلى اليوم، تقف بالروب لتخفي ذراعها المبتورة، عداها فالجميع سمر. أرى الصورة فتتهيأ لي ملائكة سمر ترفرف بأجنحة كالطرحة. طبعا لا توجد الملائكة إلّا بيضًا غير أن الشراب يفعل هذا.

خارج الصورة حشرت صورة صغيرة لأمي بالطرحة، وبغير قرطين من النحاس كهلالين منقوشين، فقد باعت كل ما لديها من معادن لتطيل بقاء هذا الرجل إلى جوارها.

الصورة الأخرى أكبر قليلًا، قمت بتكبيرها عن أخرى فجاءت مطفأة الألوان. هي لقطة لفصيلة من المجندين محروقي الوجوه تحت بيريهات مائلة، جميعهم مبتسمون وليس فيهم وجه مميز عن غيره، أكمامهم مشمرة ويضمون السلاح بوضع مائل.. نسيت بعضًا منهم. أعرف أن صور الأشخاص تكون دائما إلى جانب، فهي إما أجمل أو أسوأ، ولا تعبر أبدًا عما تلتقطه الكاميرا، غير أبي وأمي كانا كما هما من دون زيادة أو نقصان. "مراد" مصور الوكالة يقول إن الكاميرات الحديثة تصور الواقع بدقة، أو تغيره إن شئت، حتى ليمكنك أن تجعل الرجل فيلًا بزلومة والمرأة سمكة، أو تضمهما معًا جسمًا برأسين.

على ذات الحائط كنت علقت لافتة كتبت بخط أنيق، وتحتها اسم قائل العبارة، كتلميذ يؤسس لمسيرته. بينها عبارة "جوركي" (العمل دائما أغلى من المال الذي يدفع فيه، فالعمل يبقى والمال يتبدد). وفوق اسم "ف.نيتشه" (هناك خطأ شائع هو أن تكون لديك شجاعة التمسك بمعتقداتك، إنما الشجاعة أن تهاجم معتقداتك).

ـ ايه.. من دلوقت معندكش مبدأ؟.. يا خسارة الرجالة.

هكذا علق خالي أمام أبي الذي كان يعتقد أننا ندرس هذه الأقوال فقال له خالي.. سيبه ربنا يوفقه. عبارة واحدة أكلها جير الحائط، كان

من يطالعها يستغفر الله بصوت يتعمده عاليًا. الإيمان الحقيقي والإلحاد الحقيقي يلتقيان عند نقطة محزنة، هي أزمة إنسان يفكر بسعادته ع الأرض. حتى "فاطمة" حرصت على تبرئة نفسها منها بالقول.. مش عاوز تشيلها خلاص براحتك، بس بلاش تبقى علو راسنا كده، خلينا جوه، يا أخي خلي اللي ف القلب في القلب.. ليه يعني الاستفزاز؟

سألتني "أم زمزم" يوما ما أن أشرح لها اللافتات. فقالت.. كلهم أجانب، شكلك بتسافر بره كتير. اليوم رأيتها قادمة وأنا أنتظر تاكسي، تناغي رضيعًا بصوت عال.. إن شالله تعيشي يا بطة، وتروح البحر وتتغطى، وتنسى هدومك ع الشط، وتجيني بطيزك عريانة.. مفيش ولا تاكسي. هو السادات عاوز منك إيه ولّا انت عاوز منه إيه، ما كل حي في حاله. التفتت عني إلى الغلام وناولته ورقة مالية قالت.. بنص جنيه عيش توديه لأمك وتجيب الباقي. قال وهو يمضي... هجيب بالجنيه كله حاجة حلوة ومش هجيب عيش.

ـ قلتلك بنص جنيه عيش يا خول.

ـ هصرفه كله ومش جايب حاجة يا مره.

ـ طيب يابن الوسخة.. أمسكك بايدي بس.

ضحكت والتفتت إليّ سائلة.. رايح الشغل، إنت بتشتغل إيه!..

ـ أخبرتها فقالت ضاحكة ـ يعني بتشترو وتبيعو كلام. ينفع تكتب عندكو إن "أم زمزم" أحسن واحدة ترب لبن وتسيح زبدة، وتعمل

قشطة ومورتة. خرجوها من المدرسة عيلة بمريلة لواحد قد أبوها بغترة وعقال يصحيها م النوم ويقولها.. ببغي أركب ـ تضحك وهي تفخم الصوت وتضم الكاف ـ وأخرتها يقول لأبوها.. واخدها بنت بنوت ومرجعها بنت بنوت، يعني ينفع تجوزوها تاني.. يا سوادي ي ي ي.. بعْد الضحك أردفت.. لسه ما ردتش أم العيال، لامؤاخذة خدها كلمة، إن مراتك طلبت منك قرش أديها اتنين، لأحسن أبو تلاتة مستني ع الباب، هي الواحدة تزعل من راجلها ليه!

لم أشعر بجدوى أن أشرح لها أن انفصالنا كان لسبب آخر، هو انسحابها، وعيشها في خوف بلا ذاكرة. سأكتب عن "أم زمزم" ضمن الرواية، عن امرأة لا تخجل من شيء، وأن لي منها ابنًا بيني وبينه ستة عشر عامًا. تعاملني دائمًا كأنني زوجها المسئول عنه، أحب دائمًا أن أرى هذا الشاب وكذا "زمزم" التي قد تكون ابنتي أيضًا، أحب أن أحدق في وجهيهما ولا أعرف إن كانت تلك هي عاطفة الأبوة!

ـ أما أضحكك ع المسخوطة أم الواد ده، جالها داء الشك، بقت تستحمى كذا مرة لما جتتها باشت. في المستشفى الدكتورة قالت عندها داء الوسواس، وتروح للدكتور فلان. جوزها قطع الروشتة وقال هو الوسواس كمان عملوله دكاترة ودوا، بكرة الشيطان راخر يبقى له مستشفى وتحاليل.. وخدها وروّح.

ضحكت وظهر لها ناب فضي لم يكن موجودا. تلك التي كنت أسمع أنها لا ترضى لزوجها بغير أن يدس بين ثدييها ورقة بجنيه، وإنها الأجمل في الحي. غير أنني لم أكن أدرك في هذا السن ما الجمال.

ـ لسه ماحبتش واحدة م اللي معاكم تعشش معاها!.. هو البني آدم عاوز إيه غير قوتو وبل أرموطو؟ التفتت إلى الغلام الواقف يحدق فيّ، قالت له.. ما اسمعكش تشتم تاني يا بن الوسخة.

كرهت المثل الذي ختمت به وإن ظللت أفكر به.

السجن.. كلمة أخجل منها، تساوي بيني وبين عم "طلبة" و"حماصة" و"السيد شئلش"، بل بيني وبين من جاءوا يهنئونني، رغم أن ما بيني وبينهم هو تحية سريعة ألقيها على جيران، فأنا ممن يطلق مشاعره بحذر، رجاء وحدة أحرص عليها. عشت ما فات أفكر في أمور وأحس أمورًا أخرى. اليوم.. ما أحسه أحب إليَّ مما أفكر به، أشعر الآن وكأن شخصًا غيري من حرض جحافل الغاضبين في ذلك اليوم البعيد من يناير، وقادهم من الحي إلى الشارع الكبير، إلى أن صار عليهم أن يتبعوا زعيمًا، حينئذٍ نزلت عن أحد الأكتاف داخلا في نسيج الجموع الزاحفة، العائشين بالصدفة، يأكلون أي طعام في أي وقت، لا يفكرون بمستقبل، بل كيف يفوت الآن.. ثم يفوت الآن الذي بعده، ولست البطل الذي ينطق فيصفقون له، مرة لهذا الكلام ومرة لنقيضه، ما جرى كان تمردًا يخصني.

استغرقتني طيلة اليوم فكرة الزعيم والأتباع والمكر والمراوغات والقدرة على الخداع. تلك الخاطرة التي باعدت بيني وبين بعض زملائي المحتجزين تحت التحقيق، أنيقون يتعرف الحرس وجوههم فيتجهون إليهم، ويسعدون بمصافحتهم ويخاطبونهم بكلمة.. يا فندم، وسيادتك. بينما تجمع الغريزة بين من يميزهم سوء المظهر وندرة زيارة الأهل. على هذا النحو كانت تتشكل مجموعات الفسحة، بالنسبة لي لا أرغب في مال أو شهرة أو منصب. أريد أن أحيا في سلام، أعمل ما أحب وقتما أحب، وألا ينظر لي أحد.

كلفني المسئول بعقد الحوارات بين ممثلي التنظيمات المتعارضة لتوحيد الجهود. صرنا نلتقي في الفسحة عند "الشجرة".. تعظيم الطاقة.. كلمة ساحرة لها وقع يشبه كلمة الحب، عبارة غدت مثلما غدت شجرة الحوش كلمة السر العلنية لشحن جديد. أيقونة تنمو عندها حياة، حياة تسعى نحو الحقيقة.. وليس نحو الواقع.

صار الطلبة الفنانون والفوضويون.. بإختصار ذوو الشعور الكثيفة والملابس المهملة أصدقائي. حيث لا كلام كثيرًا أو تحليلات سياسية، أو معارك حول امتلاك مصطلح أو عبارة، إنما ابتكار لوسائل تهريب أخبار وقصائد، وكيفية جلب شتلات جديدة على كلفتنا لزراعتها بدائر العنبر.. سميت شجرة الحوش باسْمِ أحبه.. تشبيه مبتذل وقديم لكنه ملائم، إليها أستند بظهري ولا أسمع طرقات عصبية على باب، هنا لن تهينها النساء بحشوها بالشطة، ولن يفكر من

يراها بالسبيل إلى جسدها وحده.. ولن تسأل.. هي كل الرجالة كده؟ سميتها "فاطمة".. وطبعا لن يرتعش كتفاها متحاشية وجهي وهي تنزل حمالة الصدر، بعد أن اعتبرت ما جرى لجسدها إهانة عابرة. هي شجرة تتكاثف خضرتها مع المواسم في صمت، وفي شقوقها نخبّئ ورقًا وأقلامًا ورسائل إلى الخارج.

اهتديت إلى خيط للرواية وابتدأت تسجيل الملاحظات، إلى أن كانت حملة تفتيش مباغتة، صودر فيها ما لدينا من ورق وأقلام. تقدم ضابط هادئ، خفيض الصوت، له وجه أنثوي وشارب أبوي كثيف، أدخل ذراعه إلى إبطي وسار بي. سألته.. لماذا عصب عينيّ مع أني لم أكن.. لا، حقيقة كنت أنظر في عينيه، هل يجاء بكبار الحبسة أيضًا إلى الانفرادي معصوبي الأعين! دفعني برفق وفك العَصابة ثم أغلق الباب، بعد قليل خطر لي أن أصيح صيحة عالية مثلما كنا نفعل أطفالًا في شقة ينوي أهلونا سكناها ونسمع الصدى.

دقات الماء الرحيم تحولت هنا إلى أداة تعذيب من صنبور تالف، ربطت فيه سيور من البطانية، قبو معتم الأصوات فيه وشيش بعيد لا تمييز لها. لا دليل إلى ليل أو نهار من كثافة نفير السيارات ولا صوت أقدام، أو فتح الباب للفسحة. لا صوت أذان يشيع الحيوية في عنبر الحبس الجماعي، يظل بينها أذان الفجر الأشجى، متداخلًا مع أصوات الحرس.. واحد تمام.. اتنين تمام.. ثم هجمة الصبح وشقشقة العصافير. النزول إلى النيابة والإستعداد بكيّ الملابس والشاي في

أكواب من الزجاج.. جلسات التحقيق والانتظار ونظرات المارة يخمنون دون شك أن.. دول بتوع السياسة.. يظنون لنا نفوذًا أو سيكون لنا بعد سنين، مناداتنا من قبل الجنود.. تعال يا أستاذ.. خد يا أستاذ. الهجامة وبتوع المخدرات والقتلة لهم هيئات أخرى. إدراك الزمن متعة تجلبها حركة الحياة.

تقلص الوجود إلى قبو محكم اسمه الانفرادي، يبس فيه الهواء وخلا من الأبعاد الضرورية لأي وجود. الزمن ليس تاريخًا.. إنما عبارات وثّقت على الجدران بلون أحمر باهت، وأبواب ثقيلة من الخشب المنقوع في الزيت، كابدت الأيدي في تخليصها من الأوراق والنسغ، لتسلمها إلى المناشير فتخرطها عوارض ضخمة. الزمن مثل شجرة الحوش، يؤول إلى أبواب ثقيلة لها مفاصل وترابيس حدادي، تعيش جميعًا بأكثر مما عاش صانعوها وأحفادهم معًا. لا شيء ينمو أو يشيخ سوى دبيب قدمين بعيدتين، لا تحفظه ذاكرة تنسى الأصوات، ذاكرة تحفظ انفعالات الوجوه كسينما صامتة، عتمة وسكون يعطلان الحواس لتتخلى عن حيويتها بالتدريج، كأنما الذاكرة وهْم من صنع الأزمة، أو أن الماضي الذي نخزنه في الألبومات، وبراويز الحائط ضلالة نتقوت عليها. داخل الخلايا هي حقائق لا تفقد أبدًا، وتحتفظ بالزمن، تمامًا مثل أرحام النساء التي تبدو لنا دائما فارغة.

لو أن "جاسر" هنا.. لقام بتوثيق ذلك الجزء المعبود من جسم المرأة، على الجدار بأية وسيلة، ولو كانت زرار قميص، أو ملو كف من

الدماء. وحده كان سيمنحني الحق في حيازة شجرة الحوش العتيقة التي تشبه جسدًا مراوغًا، يتشكل حينًا أنثى بكامل سنينها، أو فكرة بكل زلزالها.. حينًا كشجرة مائلة الجذع، وحينًا أطفالًا يتحلقون حول طبق طعام، أو حتى لا يرتجفون في نومة تحت الكباري في ليلة ممطرة.. أطفال عميقو النوم.

يا للجسد المراوغ.. الذي يتخذ هيئة كأس نبيذ من دون صودا، أو سطور مقال لا يُعنى أحد بقراءته، جسد يحترف التحور، هو حتى لا يعرف نفسه سوى في لحظة تحوّله.. كأن لا قبل أو بعد، ولا يسأل أبدًا.. كم الساعة الآن.. ولا في أي يوم نحن.

فإذا فرغ اتخذ سمت إله يوبخ عباده أن لم يوفوه قدره بعد ما سموه بأسماء السادة. إنه ليعتمد لنفسه آنذاك شكل شيطان غير رجيم، يمضي بهم بعيدًا، وهو يضمر لهم الصفح عند نهاية الطريق.. لكنه لا يكون أبدًا.. لا شيء.. لابد أنه استثناء أن يتجلى قبوًا يشبه عتمة الرحم، استثناء آخر يبدو فيه الجسد قبرًا يثوى بين الحقول. يقف عنده مشيعون حال ينصرفون، ويطأون أسفلت الطريق، يفاجئ العين بتحوره. امرأة ترجف اكتنازاتها تحت الثوب، تلتصق وجهها خصلات الشعر بأثر الدموع و الحر، تمضي ساهية عن عشبة بين قدميها تتشبث بالطين.. هل سأجن هكذا؟!

يا إلهي.. يا من لم تجعل الموت من أسمائك الحسنى.. بارك العشب كله، وأعد الخضار إلى عوارض الباب، والنور إلى كوته العالية.. ألست إلهًا.

ـ عاوز حد أكلمه.. عندي أقوال غير اللى قلتها في النيابة.

رحت أعاكس بإصبعي طريق نملة تزحف في خط متعرج على الجدار.. لعله ذكر نمل.

لا يمكن لمرء أن ينهي حياته بالتوقف عن التنفس عمدًا. الطبيعة تحمي نفسها. ومثلما خُلق التجلط لوقف النزيف، تؤكد الذاكرة للمرء أنه كان موجودًا من قبل.

أخرجني رجلان إلى الطرقة ذات الأسفلت المغسول، لأول مرة أرى المكان.. حيث صف زنازين خالية، فتحوا إحداها، بها كرسيان ومنضدة صغيرة عليها دفتر.

انتهت أقواله في الرابعة وعشرين دقيقة عصرًا، وقّع وأُعيد إلى محبسه بعد المعاينة بمعرفة النيابة.. ما أخشاه الآن أن يخلطوا لي بالطعام جرعات يومية من السكوبولامين، العقار الذي يراكم الاكتئاب ويغير من سلوك الشخص، يغير شخصيته. عقار يعرفه كل من خبأ قلمًا وأوراقًا. أتراني لو تغيرت هل سأعرف آنذاك أنني شخص آخر غير الذي كنته؟.. في سجون المخابرات يستعملون الريسربين وبعد أيام يجيء الانتحار وحده. ما هي المقاومة إذن أو الصلابة؟ أيام حبسة

العنبر سألت رفاق الزنزانة.. لسه أد إيه كده على الفسحة؟ قال مسئول الحياة العامة بلهجة مُعلمة:

ـ كده هما نجحوا في حبسك.. أول ما تفكر في فتح الباب فإنك تؤكد لنفسك إنك مسجون.

قبل أن أفقد الشعور بإحداثيات الوقت، قمت بتعفير الأسفلت وعملت علامات بالإصبع أقّدر بها ما مر من وقت.

لم أكد أشعر بالارتياح حتى أقتربت أقدام كثيرة، ما أن فُتح الباب وأضيئت كشافات اليد حتى هوت القوايش والعصي والأيدي المدربة من دون كلمة أو شتائم، ثم انكمش نصف جسد كان أداة حياة، ليس باستطاعته وقت الحاجة، أن يصبح أداة موت. أن يتسرب كالماء من تحت الباب، أو يتبدد كدخان في الفضاء.. إية الكلام ده يا ابن الشراميط، مش انت بتاع زنزانة ٦، بتاع الورق والأقلام.. وكمان بتعرف تضرب يا فتوة.. ماشي.

شعرت بتعويض معنوي.. ليت أحدهم يعيد الجملة الأخيرة.

لو كنت مؤمنًا كغيري لقضيت الوقت في الصلاة والدعاء، لكنني لا أحفظ دعاءً واحدًا. الأدعية مصكوكة لكل الناس. ما أحفظه.. إذا جاءت القيامة وفي يد أحدكم فسيلة فليغرسها. هذا حديث لا يصلح كدعاء.. فاللهم لا تجعلني ممن يعتاد القبح ولا تكلني إلى من يكره

الحياة، ولا إلى سياسي تكلام يلعب بالبيضة والحجر، وألهمني يا رب قول ما أعرف لا ما تردده الألسنة حتى لا أضل السبيل إلى نفسي.

اللهم ألهمني حساسية الشعور بالزمن، والقدرة على تشغيل مخي، ولا تجعلني ممن يركن إلى يقين رخيص من جملة وجملتين، وباعد بيني وبين من يفرقون بين المحب ومحبوبته، وبين الكاتب وقلمه، واللقمة وفم الإنسان، وأبدلني خيرًا من وقفتي البائسة أمسك فيها بحديد السور متطلعًا إلى المحفل الكوني للحرية والجمال، باكيًا ضعفي وقلة حيلتي وهواني على نفسي.

اللهم لا تحرمني نعمة التضور قلقًا إلى نفسي أنّى أودعتها، شق شجرة عتيقة كانت، أم طرف رداء امرأة عابرة، وأرجئ الموت لمن لم يتم بعد معاينته للحياة. اللهم إني أستعيذ بك من توحش المال وما خلقتَ من أرقام وشفرات بيع وشراء وإيجار ومضاربة، وفارق بيني وأبنية البنوك والصرافة وماكينات الفيزا كارد، وكثرة الألقاب والرتب ورصاصات الـ ٨ مللي، و٩ مللي التي تعرف وجهتها في الظلام، وحبب إليّ كل أنواع الورق والأقلام إلّا ما اختص منها بدفاتر الشيكات والعقود والفواتير وقرارات الاعتقال.

اللهم أدخلني في التجربة، ولا تجعلني ممن يتواطأ على نفسه، فيستبيح الجاهل بجهله، والضعيف بحاجته والبريء بصفاء نفسه، والقلم بقدرته على الغدر.

اللهم اجعل لي قلمًا مبصرًا يكمل رواية بدأها يا أرحم الراحمين، وكن بجانبي لأعرف كم الساعة الآن وكل آن، فلا يصبح انديباح الزمن واحدًا من أسئلة الوجود العالقة، واجعلني قادرًا على اختبار الحديد والعتمة وإيلام البدن. ثلاثية مجربة على مر التاريخ. الذاكرة، الورقة والقلم ثلاثية مضادة في هذا العالم الذي خلقت مادته من ستة عناصر أولية إذا ما أضفنا تعيين الزمن.. ستة عناصر أولية للحياة، نصفها من صنع الإنسان ونصفها من صنعك فمن ذا الذي يخلط عناصر الوجود الستة ويظل بشرًا عاديًّا!

هل كانوا من الذكاء بحيث فهموا نيتي في معرفة الزمن بادعائي وجود أقوال جديدة! الطغاة غاشمون دائمًا وينقصهم الذكاء وإلّا ما صاروا طغاة.. لا.. الطغاة أيضًا أذكياء. ما من عبارات وتواريخ على الحائط.. هنا لا شيء سوى جمل حمراء باهتة ناقصة الأحرف لا يمكنني أن أقدر عمرها. الدماء على الحوائط الحجرية تعيش أكثر من أصحابها.

صنع تماثيل من قطع الصابون وقطع الشطرنج من لباب الخبز أمر يناسب حبسة جماعية. أحد أبطال الشطرنج كان يلاعب نفسه وينقسم على ذاته بحيث يهزم نصفه نصفه. لأتذكر الأغاني التي أحبها ولأرفق إلى كل أغنية وجهًا أعرفه، وجهي أتذكر ملامحه سأرفقه إلى أغنية نجاة.. مسير الشمس من تاني، تنور فوق سنين عمري.. الجديد م

الجرح أهون م القديم. وإلى وجه "فاطمة".. إلى جسدها أرفق.. أرفق كل ما أعرف من أغنيات.

لا أحد يرقص هنا. الأجمل هو رقص البنات، لهذا يمكن للواحد منهم أن يكهرب ويعلق ويضرب! لا أنا ولا هم تعلمنا الرقص.. جلف يضرب جلفًا. لا أحد يراني الآن.

حاولت الالتواء عشوائيًّا بجسدي.. والدبدبة بالقدمين.. هذا رقص امرأة.. أرقص كالنساء. أريد الآن أن تتوقف كل محركاتي عن العمل، أن أغرق في نوم لا أتذكر خلاله "فاطمة" وهي ترقص عارية.. عليَّ أن أعرف كم الساعة الآن، بعد ما عرفت من التحقيق في أي يوم نحن.

لا شيء ينبض في الخارج.. خارج جلدي فقير قليل الحياة، يعطل الحواس ويصيب الذاكرة بالنضوب. حين ذهبت "فاطمة" لترقص لرجل آخر جربت هذا الإحساس.. البعد عن الحياة إحساس لم أعرف له اسمًا، اسميته على الطريقة الشائعة الاكتئاب. ليست هناك فرصة الآن مثل حبسة العنبر لنتفاوض مع الإدارة على شراء شتلات من مشتل السجن، وما من زعيم هنا ليعترض على نبات مدّاد سريع النمو بسبب اسمه.. الرجْلة الإسرائيلي، أو من أسمع منه كلامًا معدنيًّا.. أو عبارات معادة كريفي يعشق الانضباط والتكرار.. كمن حرم على نفسه التجربة غير كونه الزعيم الذي يعرف كل شيء. هذا خيط لرواية أبدأها بوصف جحافل المنبوذين تهدر ملء الشوارع. لم أتوقع أن الحي

مسكون بكل هؤلاء البشر الذين ضرب غضبهم في كل اتجاه كسيل فقد طريقه.

بات كل من يسير خارج هذا الطوفان يشعر أنه مقضي عليه. على الجانبين خلت العمائر والمحلات ممن فيها، اقتلعت الأيدي حجارة الأرصفة لينهمر الطوب على واجهات النيون والشبابيك المغلقة لأبنية حكومية أُضرمت النار في مداخلها، ثم أخذوا يشتمون أسماء الحكام ويسبون زوجة الرئيس كأنثى، إلى أن طالعوا تمثالًا فوقه أحد الفرنجة بزيه العسكري يحرسه فلاحان مسلحان بالشوم على جانبيه. هوت قضبان الحديد، وتناثرت قطع التمثال حول قاعدته القصيرة التي بقى عالقًا إليها ذيل حصان في ساق مائلة.. تجويفها واضح.

خلف الحوائط والأبواب الحصينة كانت هناك أصابع تدق الأزرار لتُبادل الأرقام بين أقصى الدنيا وأقصاها، وثمة أرقام وعلامات تتوالى على الشاشات، وتتلقى الأجولة المخططة محتوى صناديق المجوهرات وفتارين القصور، ليجري نقلها في عربات إطفاء أو إسعاف، إلى حيث تقف مروحيات.

بينما تهرول أقدام وتتسارع قلوب من أفنوا نصف العمر في مضاعفة الأصفار على شاشات ماكينات البنوك. راحت الهتافات تتعالى تُلصق الأنوثة وعلاماتها إلى العار وتكيل السباب عشوائيًّا للمشهورات. يجري كل شيء وحده في نبضات تسري من عصب إلى عصب عبر الشوارع. مر يومان قبل أن تظهر المدرعات مشرعة

البنادق، والدبابات التي تدير أبراجها في الفراغ، بينما تُسمع زخات الرصاص كل حين.

الكتابة عن السجن موضوع قديم. بخلاف هذين اليومين اللذين اجتجزا الزمن، وامتلآ بطلبة تميزهم العين كطلبة وصبية لا تعريف لهم يمضون من تخوم المدينة إلى وسط البلد، ومن جهة العشش تعبر نساء بدينات قضبان السكة الحديد وأكوام الزلط، على وجوههن وخم النوم بملابس ممزقة، وأقدام غليظة حافية. من بعيد تطلع صبايا في ملابس مكشوفة بوجوه لا تزال عليها أصباغ الليل، تعاني عيونهن الاحتفاظ بانتباهها في ضوء النهار بحثًا عن ذلك الشيء الجديد الذي تسمعنه لأول مرة. خليط من النساء البدينات وأخريات صغيرات بأطراف شبه مُخدرة، يفوح منهن عطر رخيص. التحق الجمع فوج من صبية الورش القريبة وباعة الأرصفة بعدما جمعوا بضاعتهم بصورة خاطفة في ملاءات، وممن يفرغون العربات بقرب سوق الجملة أو ممن لا عمل لهم، جميعهم بانتظار أن يحدث شيء كي يفعلوا شيئًا.

بقرب الشارع الكبير أطلقت إحداهن زغرودة جاءت بأقدام أخرى صنعت ذيلًا للحشد، ثم دبت فيهم الحركة لدى قدوم جمع من الشباب يرشقون أرغفة سوداء في عصي، يلوحون بها في إتجاه الشرفات المزدحمة، لدى رؤيتهم أسرع الصبية بنزع بلاط الأرصفة، وإعداد الكرات المشتعلة، وخلخلة البوابات وأبواب الحديد المشغول، يقودهم صبي قصير يرفع لهم يده كلما بدا له أمرٌ ما.

فكرت بهتاف ينتظم كل هذا الغضب، هتاف مسجوع. بدوت مثل مطرب يأتيه التصفيق فاترًا. على غير توقع انفجرت النساء البدينات بالصراخ والشلشلة، وتبعتها الفتيات المزوقات كما لو أنها جنازة، علا هتافهن.. يا جيهان يا أم (.....) اللحمة بجنيه ونص، يا جيهان يا أم (.....) فين البفتة والدمور.

لم يكن من سبيل إلى ما ظللت أُعده من شعارات عميقة كتبتها، بخط أنيق على الحوائط بدلًا من تلك التي خطتها أيدي عجولة بعلب الاسبراي وبخط مبتدئ، تلخص جميعها الحرية والصهيونية والرأسمال، فمضيت وسط الجموع الهادرة، وبجيب سترتي بيان أنتظر أن تؤاتى الفرصة لتلاوته.

الجدران مرايا حجرية لا تعكس الصور، ولا تخترقها رصاصات الغدر. كل رصاصة غادرة.. الجدران تُخترم فقط بفعل الذاكرة. بدت لي جدتي وهي تقول لخالي الكبير وهو يوبّخ أخاه.. يعني تفضل رايح جاي ع الدكاترة عشان شوية فشل كلوي لا راحو ولا جم، بدل ما تراعي اخوك اللي فشل من كافة شيء.. ربنا كبير.. بينما "زمزم" تجلس في حجر أمها التي تزقها بطريقة غير جادة.. يا بت قومي، إنتي بقيتي بغلة ولا كأنك لسه مخطوبة. وصوت رجل يأتي من مكان بعيد شاتمًا فتقول.. إيه يا راجل انت، عاوزة انام على كتفها شوية، انت مالك. تقول يا راجل انت، ولا تقول يابا.. وتقول المرأة ضاحكة قومي يا بت يا صغنونة.. دلع الفقارى يفقع المرارة. بدتا لي أنثيين خبرت كل منهما

قوتها عبر طفولة عرفت الجنس بأسمائه، حتى ليُعد فخذاها سجلًا أمينًا لرجال كثيرين.

توافد الجيران لتهنئتي بالإفراج. لا أعرف هل يجلونني لهذا، أم بسبب قصاصة جريدة ما يفتأ أبي يُريها لمن يلتقيه وقد وضع خطًا تحت اسمي ضمن من صافحهم الوزير في مناسبة ما. لمته على ذلك بينما أنا من أريت الجريدة آنذاك لفاطمة مدعيًا التعالي على الأمر كله. قلت لها إننا دخلنا السجن تنظيمين كبيرين وخرجنا خمسة فظلت تضحك.. وبعد قليل راح فقّارها يتقوس، وينشدْ قبل أن ينطفئ فيها فوران مكتوم كخوار الذبح بالسكين قالت.. علّقتني بيك. ارتبكتُ بإزاء من تجهر بحبها لي حين أغدو مثل كراكيب السطوح. وظيفتها اليوم أن تذكرنا بأيام حلوة. حكيت لها عن شجرة الحوش العتيقة فلم تعر الأمر اهتمامًا، وسألتها.. لماذا لم تزوريني في السجن.

لم أكن تناولت طعامًا ولا أشعر بجوع. عدة ملاعق من السكر في كوب ماء و.. عِم مساءً أيها الدماغ المحبوس على ذمة رواية. طلع جيران ونزل جيران وبقت زميلتي بالجريدة التي أتدرب بها جالسة لا تتكلم. دخلتْ غرفة المكتبة وعادت من دون حذائها وحليها وجاكتها في ألفة مع المكان، شيء ما يريبني فيها. أفكر في وجهها المدور واكتظاظ شفتيها وحدقتيها الواسعتين كزرارين زرقاوين، فأشعر أنها ممن لا تحتمل أحشاؤها لغير المسافة بين رجلين لا تشعر بأي منهما.

ما أريد كتابته كثير والمسافة تتضاءل بين عقلي وأصابعي، وتلك علامة على رغبتي في الانفراد لأكتب، لكنها ذهبت وعملت لنفسها شايًا، لم تُصدر عنها كلمة وكأننا بصدد أمر تكرر. من تزورني لأول مرة، وتتخفف من ملابسها في غرفتي.

بقت صامتة كأنها تنتظر أمرًا ما، إلى أن سمعتُ طرقات جماعية على الباب، قبل أن يندفع أبواي وخالي وبعض إخوتي. لم يفتح أبي بمفتاح الشقة الذي يحتفظ به، لم تسلم عليّ "نور" التي اتجهت إلى التلفزيون مباشرة لتكف صوته عند سماع الأذان من ميكرفون قريب.

راح خالي يطلق تعليقات ساخرة كلما وقعت عيناه على شيء، بفم يشبه علامة تعجب مائلة. أعرف طريقته تلك، أنا أيضًا أتجنب التورط في مشاعري بالعبارات الهجومية دائمًا. أمي وحدها لا تُدهش لشيء، هي من نجا من هذه الوراثة. وضعت "إنعام" يدها على كتفي سائلة.. سايب ولادك ليه يا خويا.. المخدة متشلش اتنين كويسين.

غيرت "نور" قناة التليفزيون إلى أخرى تعرض اللقطات المرحة، تَكرر جلوسها على ركبتيّ خالي كمداعبة تعلو فيها ضحكاتهما مع كل لقطة. ضجت الشقة بالزيطة كأنما نحن في حفل، وكلما توالت لقطات البرنامج تسألني "إنعام" عن شيء ما لا أعرفه. كنت قررت بعد سن الأربعين ألّا أكذب أو أدعي.. وده فين؟.. مش عارف.. عاوزين يعملوا إيه؟.. مش عارف.

ـ كل حاجة مش عارف؟

قلت لها هناك حديث نبوي يقول.. من قال لا أدري فقد أفتى. قال خالي، قبل أن يضج بالضحك وهو يحيط بطن "نور" بيديه.. إنت على كده تنفع مفتي الديار المصرية.

شعرت بالاجتراء. وانصرف خالي إلى زميلتى ينظر إلى عري ذراعيها وحفائها، يحدثها فتتجاهله حينًا أو ترد، بينما يجذب حافتي الجاكت أو يمر بيده على شعره. كان بيّض بشرته وتأنّق ولا يزال يبدو لي على ذات وقفته في البيت القديم. وخالي الكبير يحرك ظرفًا أصفر على أنفه قائلًا:

ـ ست برايز ونص تاني.. عشان يرجعوك المعهد.. شفت يا بن الكلاب.

وهو يبغم بتمرد رخو من النوع الذي ينتهي بالخضوع.

أشار خالي الكبير فأحاطه بعضهم وذهبوا به. وبعد قليل عادوا به حليق الرأس، ووقف ناكس الرأس قبالة أخيه الذي قال.. يللا خش إتوضى وصلي ركعتين لله، وبعدين خلي مرات ابوك تحطلك الأكل.

رأيته في مرآة الحمام يسوي شعره ثم أشار لي فتبعته. سألني قالبًا يده

ـ يقصد زميلتي ـ إيه النظام، مخصوص ولّا إشتراكية؟

علا صوت تحريك كراسي ومعها صوت "إنعام".. الفيران عندك كتير، قاعد كده إزاي!

ـ كنت ناوي اشتري سم فيران.

ـ على إيه، هي الأذية بفلوس. ورد الأذية بفلوس.

كانت تدخل بكتفها بين قطع الأثاث وتجر فأرًا سمينًا من ذيله، تلفه كمروحة وتهبده. ثم فتحت الشيش بحذر. قلت.. سيبي أوضة المكتبة. قالت.. ماتخافش، كل شيء في مكانه. مدت يدها بحذر والتفتت وفي راحتها عدة فئران وردية صغيرة، من ذيولها أخذت ترطمهم في السقف اثنين اثنين ولدى سقوطهم تزيحهم بباطن قدمها.

كم سمعت صوصوة خفيفة ظننتها لعصافير أعشاشها خلف الشباك المغلق دائمًا. فجأة جعلت تحك ظهرها في الحائط وتضحك قائلة.. نزلو ف ضهري. أسرعت بخلع جلبابها وقد تبقّع ببلل أحمر، دسته في بنطلون رجالي ترتديه ومضت تُرتب فوضى الشقة كخادمة. بينما تضع أمي في وسط الصالة والغرف أطباقًا من الصابون المرغّى لصيد البراغيث، وتسأل "نور" كل حين أن تناولها شيئًا، فتأتي به "نور" وتعود إلى جلسة التلفزيون.

سبقتني أمي إلى دورة المياه فأضاءت النور، وناولتني فوطة. عدت لأجدها تناولني برتقالة مقشرة تركتها محاطة بالقشر مع موزتين نصف مقشرتين. لا أحب أن يلاحقني أحد هكذا. زاد الأمر أن جاءتني بكوب شاي كنت تركته، لاحظت ذلك فأشارت بين الإبهام والسبابة قائلة.. طيب شوية قهوة!

ذكرتني بـ "أم إبراهيم" وبوفيه الجريدة. تُشعرني دائما أنني سمكة ضالة تتلوى فوق الرمال بعيدًا عن البحر. فكرت في النزول، غير أن صوتها نادانى من إحدى الغرف.

ـ بتشوف ولادك.. مش هترد أم العيال بأه.. دى طيبة بس هي قليلة الحيلة شوية.

لم أعرف بماذا أجيب، هل ستفهمني إن قلت لها إنها سلبية ولا تعبر عن نفسها، وأنها مش على طبيعتها.. صوتها مزيف. ستسألني.. يعني إيه، ما انت شايف خالك نسي نفسه لحد ما كبر ولا انت عاوزها محزقة وملزقة وشايف لك شوفة.. ما شفتهاش غير بعد ما خلفت!

طبعًا لا يمكن أن أقول إنها تُطيع كموظف وتنفذ بلا خيال ولا إرادة.. وإنها ترميني بالوحدة. لم أقل ولم تقل شيئًا. ناولتني بعض المال مربوطًا بأستك قائلة..

ـ خالك الله يبارك له ساب دول. أضافت بنبرة مترددة.. في راجل بركة هيقرا لك قرآن ف أوضتك دى، خالك يجيبه من ع القهوة ولا هتحرجه. دول شوية رز وفرختين وإزازة زيت، أحطهملك فين! "أم زمزم" بتيجي تشقر عليك. أنا موصياها تاخد بالها منك ـ شككت في أنها تقصد معنى آخر ـ ده خالك من يوم ما رجعنا من عندك من حي ما عيط ولطم زي الحريم. بقينا نهدِّي فيه ليضيع مننا هو كمان، وكلم ناس كبار أوي عشانك. مش مخلي عن جهده جهد.

استغربت أن تغير الفلوس مشاعرها بسرعة.. لم أصدقها فخالي لم يكن يأبه لي وأنا أشير لأبي من خلف الحديد، كان مستغرقًا في الحديث إلى الجنود أمام بوابة السجن بشعره المكوي ووجهه المبيض وبدلته الكاملة، يداري السيجارة وراءه كلما لاح أحد الضباط، يؤدي له تحية لا يكترث لها، وأبي يقف بعيدًا إلى جوار كيس ممتلئ انتظارًا لموعد الزيارة. ألوّح بيدي الخارجة من مربعات حديد الطرقة ولا يصل صوتي من الدور الثالث، أشار الجنود له أن يبتعد، لمحت خطوطًا فضية تقسم شعره بصورة توحي بأنه ينمو هكذا مقسمًا إلى فصوص سوداء كثيفة. فكرت بسبابته المبتورة. هل يبصّمونه على تصريح الدخول بأربعة أصابع، وتخليت عن فكرة كيف يعابث ذلك الرجل أمي. عاد ليأخذ الكيس، أشارت له الأيدي بسرعة، فتراجع تاركًا الكيس. توقفت عربة معتمة الزجاج، نزل منها شاب بدين في لباس مدني، وجندي من برج الحراسة القريب يسأل زميله بصوت خفيض:

ـ هو ده "نعمان" بيه!

ـ تقريبًا شكله هو.. أكيد هو نعمان بيه.

ـ امال عملت له سلام سلاح ليه، ده لسه ظابط بدبورتين والتالتة هيعلقها في تمانية اللي جاي!

ـ بقولك إيه.. ف خدمة بوابة استنضف وعظّم.. هات سيجارة وولعها.

ـ شوية بس لحد ما يخرج، العربية بتستناه دايرة.

كنت أرى أبي كاملًا، ويرى نصفي داخل مربعات الحديد فرفع صوته.. أنا ابوك، أنا ابوك. قلت له.. شايفك، وأنهم ألغوا الزيارة. لم أشك أنه سمعني، وأن شفتيه تمتمتا.. شدّة وتزول. كنت أعددت لأن أذكر له قولة المأمور.. مش عارف مين فينا اللي ساجن التاني بالظبط. تخيلته سيرد.. بيضحك عليك عشان يجرجرك في الكلام.. يبقى عامل صاحبك وهو مزقوق عليك، وسيقول إن الجيش في الشارع. يا له من بائس لحقته الهزيمة في أن يصبح ابنه الأستاذ. بدا من الدور الثالث قصيرًا ورفيعًا في قميصه الواسع وبنطلونه المنفوخ، مضى حتى آخر السور مارًا بعدة نساء افترشن الرصيف. نهضت اثنتان، تعرفتُ إحديهما بردفيها الظاهرين وملَسها اللامع. لم يمكنني أن أرى من بعيد غمازتين عميقتين على جانبي فمها. خطرت لي على جلستها في المرحاض تاركة بابه مفتوحًا حتى يصلني صوتها، وأنا أسألها كيف تجامع زوجها المقعد. ثم وهي تنزل هدومها وتقربني جالسة بوجهها السمين يحيطه الهدوء كراهبة مطمئنة. تقول.. ما انت متعلم وعارف.. الست تنسى اللي خلقها، ومتنساش اللي خرقها.

أكره منها الفجاجة، لو أن مثلها أُدخل عنبر الجنائيين ذوي الأحكام الطويلة لشبعوا وأشبعوها من غير حاجة إلى حفلهم الذي يقيمونه فور إغلاق العنبر حول أحدهم بعد أن يلبسوه قميصًا نسائيًّا.

مضت "أم زمزم" مع أمي خلف أبي إلى أن غابوا عند حنية الطريق. لم تصبني اكتنازاتها بالخيال، إنما بدت لي وهي تنحني على امرأة تقرفص في ركن الصالة، وقد غشيت عيناها خلف سحابة غائمة بعد ما تركها أبي إلى أخرى، فبدت لي كنوع من الإثارة التي يجلبها الحزن وهي تخاطبها بثقة.. والله هتاخد منه اللى هي عوزاه وتسيبه.. وبكره يرجع، ولا تزعلي، اللي عنده العيش يبلّه عنده الهنا كله. لولا أم طياز. هكذا حفزتْ فتى يمكنه في ذلك العمر أن يبيع الوجود كله باكتنازات بيضاء مخبأة داخل جلباب.. خالطتها ببعض الحزن والعبارات المكشوفة.

ظل خالي يتحدث إلى الجنود ويناولهم السجائر. رأيت الجنود يقسمون الكيس الذي نسيه أبي في موضعه. كانت فرصة لأن أغسل هدومي.

جئت من الكانتين بفنجان زيت طعام لجروح أصابعي. ليس روح الأثير أو الكافور مثلما كانت تفعل أمي.. التي تقدم لي فلوسًا مربوطة بأستك. اعتذرت منها متعللًا لا أذكر بماذا. المرأة التي صارت بريدًا أمينًا لرسالة مصرية صميمة من كلمات قليلة.. أسرع يا ولدي بالنجاة، فأنت متعلم.

أهلي البيولوجيون، أراهم فأتذكر أنني أحبهم وبعدها أنسى الأمر. لو بقيت معهم الآن، لن يكفوا عن احترامي بإلقاء الأسئلة كما

لو أنني عارف بخفايا الأمور أو شريكٌ للحكام فيما يفعلون.. شريك ينتظر دوره ليحكم.

نزلتُ كهارب. لا أعرف ما الذي أفعله بالوقت، كانت الشوارع مليئة بالحفر والمياه.. يتحسس سائقو السيارات طريقهم غير تريسكل يطرطش الماء حوله ويقهقه سائقه غير عابئ بالسباب. الشوارع حماية لوحيد تتعقبه الجدران. تذكرت في الشارع زميلتي التي تركتُها. أشعر أنني موظف في مصلحة لا متمرد على عبودية، عاجز في حياة يصنعها آخرون. كان عم "طلبة" انتهى من كنس السلم ويواصل عمله أمام البيت. ناولني معصمه للسلام، وقال إنه يدعو لي بالهداية وأسمعني عظة في تحمل المؤمن للشدائد.. "وانت ماشاء الله مؤمن وكل فرض بفرضه". ضحكت قائلًا.. "أنا لا أصلي أصلًا"، قال.. "ربنا هيكرمك وتصلي وتصوم كمان". كدت أقول ضاحكًا.. هيحصل لما تبطل تضرب بناتك بالخرطوم وتلسعهم بالشمعة. هو رجل ضخم الجسم واللحية، مجامل في الموت، يقوم بأعمال اللحادة على سبيل التطوع. أشك أنه يعرف أنني من ينزع بوسترات الأدعية التي يلصقها إلى حوائط وأبواب الشقق، أنا فعلًا أنزعها خلسة. لا لشيء فهي كلام طيب، إنما لأنها تخاطب المذكر دائما ولا شأن لها بالمرأة. أظن أن أكثرها من تأليفه. اجتمع لديّ ملف بما يزيد على أربعين دعاءً، فكرت أن أجعل منها مادة لقصة.. دعاء دخول السوق، دعاء الشراء، وما بعد الشراء والبيع. دعاء حلول الكرب وآخر لفك الكرب. دعاء خسوف

الشمس، وآخر لكسوف القمر. دعاء النوم ودعاء الصحو. دعاء إتيان الزوجة ودعاء رفع الحيض ودعاء الحمل. ودعاء ولادة البنت وآخر للولد. لا أعرف إن كان لهذه الأدعية بالذات أثر في أن تنجب زوجته البدينة البنات الجميلات فقط. دعاء المذاكرة وغيره للامتحان ثم للنجاح ثم للرسوب، دعاء للسفر وآخر للعودة. دعاء دخول المرحاض وآخر للخروج. دعاء دخول البيوت ثم مغادرتها. دعاء الجلوس إلى الطعام ودعاء الانتهاء منه. دعاء الصوم ودعاء الإفطار ودعاء السحور.

حتى حلاقة الشعر وركوب الأسانسير ـ ليس في عمارتنا التي هي من الإسكان الشعبي أسانسير ـ ثم دعاء ركوب المترو، وكان المترو جديدًا آنذاك. ودعاء شح المطر وآخر لنزوله، وواحد لشح الرزق وواحد لوفرته.. وبعد هذا اقضِ ما تبقى من وقت الانتظار في ذكر الله. كنت أتساءل أي إله هذا الذي سأجد الوقت لتذكره بعد ذلك.

انتبه الرجل كمن ضربته رصاصة ـ وكنت أهم بإشعال سيجارة ـ استنى.. متوطيش راسك للنار.. كده تبقى مجوسي بينحني للنار والعياذ بالله. ومد يده ليرفع يدي بالولاعة، ثم ناولني من جيبه نواة بلح قائلًا:

ـ دي حطها ف محفظتك لا تخلا م الفلوس ولا بيتك يخلا م البركة.

مضيت أفكر بأنه لا يستحق مني كل هذا النفور. فهو اهتدى إلى معنى لوجوده يحميه من عبث الحياة. ثم أنه من أنجب "وردة"،

بجمالها ومحبتها المبكرة للحياة. مر جاري الذي نشرت له إحدى الصحف صورة وهو يندفع بدراجة يرف عليها علم أمريكا. إذا كان ثمة راية لي فلتكن امرأة. حيّاني الجار من بعيد.

بدا لي سوق الجمال والمواشي مشهدًا روائيًّا لم يعد موجودًا. فقد نهضت عمارة عريضة في مكانه حيث أحاط عدة رجال بعربة يد. وقف أحدهم فوقها، على رأسه برنيطة بحر يعلن بدء المزاد.. بينما رفاقه يراجعون ترتيب الأشياء.. فرش جزمة خمسة ساغ، ستة.. هه. شبشب زنوبة بـ "وردة". سكينة، عشرة ساغ.. حداشر. راديو ترانزيستور بحجارته اتنين جنيه.. وربع. خاتم حريمي بفص ألماظ حر.. كشاف قلم، حبوب ليلة الجمعة، مطوة قرن غزال عاج خالص. يرفع أحد الواقفين صوته ويصيح له الرجل.. مبروك عليك.

تركت نفسي لذلك التورط الشعوري الغائر على كرسي بمقهى، إلى جوار بعض من قدامى الموظفين. جلسوا يتطلعون إلى العابرات بعيون فيها استعداد كامل لأن يتبع الواحد منهم واحدة تذهب ببقية قواه.. جلْسة خوفتني من المصير. توالت جماعات أولاد وبنات داكني البشرة يغنون الكلمات البذيئة على وزن أغنية معروفة، قادمون من مدرسة الشهيد ذي الاسم الثلاثي. الذي يعيد السامع ترجمته.. آه، مدرسة البرابرة. بينهم كهيئة معلم يرصهم عشوائيًّا بعصاه، ليدربهم على غناء ما، فثمة كبير سيزور المدرسة صباح غد.

وامرأة تصحب طفلًا، وبعد سير صامت تخاطبه في رجاء.. بقيت راجل البيت. أبوك خلاص خدته الشرموطة، بكرة ربك يمسخها كلبة. فيواصل الفتى سيره ويشد خطاه لأجلها. إلى أن تقف له في حوش المدرسة، وقد إستعد ضمن طابور الأولاد بكتفه وذراعه عاريين لتومرجي عجوز يختنهم بالمصل. يتبعه مدرس. وتتقدم المرأة لتضع قرشًا في جيب البالطو قائلة.. اتوصى، زودله التحصين شوية.. ده يتيم والله. ثم تصحب الطفل إلى حيث تمد الطرحة ليد سمينة، تغرف لها لبن بودرة من شيكارة مكررة الرجاء، فيزيد لها الرجل قليلًا.

لا أكره منها الكذب. تلك العجوز التي ترى أننا نترك المدرسة إلى بناء واحد نتعلم فيه جميعًا نفس العلوم اسمه الجامعة. ثم يسأل رئيس المكان كلًا منا.. تحب تبقى إيه؟ يجيب هذا.. مهندس، وذاك ضابط وذا دكتور.

حين لاحظت نفوري من العمل قالت.. لو شغلتك مش عاجباك خليك مدرس أزهري زي خالك الكبير، أو ظابط أهه رحمة للناس برضه من بهدلة الأقسام والتعليق وضرب الكرابيج. قلت مازحًا.. عاوز أكون دكتور في مستشفى. قالت.. برضه كويس، ربنا يوفقك. لو قلت لها أريد أن أصف مصر في رواية، لسألتني.. يعني إيه؟ أو تصمت مكتفية بالدعاء.. ربنا يوفقك انت واللي زيك.

هي زحمة الشوارع في المساء. وصخب أصوات يصعب تمييزها بين خبط المطارق وزمجرة آلات الورش، وزعيق مفاجئ يهرع له صبي يشبه صبية. لو أن "جاسر" معي الآن لما فاتته ملاحظة امرأتين تمط كل منهما شفتيها للأخرى وتتلامسان بالخدين.. بينما تنظر كلتاهما بعيدًا. إلتوت البدينة بجذعها فراح تيار الهواء يضرب عباءتها. عند أحد التقاطعات شعرت بقرصة في ذراعي، وكان وجهها ذو النمش، أنعشتني الملامح المحملة بالبراءة والجنس.. لا أصدق إنكِ إبنة هذا الذي أوكل نفسه حماية الفضيلة في الحي.

ـ تعالى نمشي شوية واعزمك على حاجة.

ـ عارفة إن عندك ناس، هيباتو ولا يروحو؟

قلت لها.. "أبوكي يلهمني صورة عجائبية لإله، لا يفعل شيئًا من عليائه غير مراقبة تلك المثلثات الدافئة فينا، لذا يرتاب في كل رجل وامرأة حتى لا يفقد أهم سبب لوجوده". فقالت ضاحكة: "مثلثات ومربعات.. الرحمة حلوة برضه. إنت عامل زي مدرس الرياضة. كنت تنفع مدرس عندنا، بس كنا هننجح برضه". ضحكت واهتز صدرها.

رمقتني إحداهن وهي تبتسم عابرة نهر الطريق فوقفت مضطربًا. حين بلغت الرصيف وقفت هناك تنظر باتجاهي، وكلما أوشك شعرها أن يطير حبسته بيدها إلى أن انتبهت إلى وجود "وردة" إلى جانبي. حدثني "جاسر" عن إشارات جريئة بينه وبين فتاة تقف في تايير رائع،

قال أحسست أنها من برج الجوزاء. قلت لنفسي لا بأس، ثم ظهر لي أن هذه الفتنة مانيكان في فترينة عريضة بغير زجاج.

مضيتُ و"وردة" مع حشود المساء. كان البعض يتوقف أمام المحلات، وتبحث عيونه عن العورات الناقصة لكائنات الجبس والأبلكاش، حيث نماذج عارية يجري إلباسها على الموضة. وفي إحدى الفتارين تدفع أيدي العمال بأنثى جديدة بلا رأس، تقشَّر طلاؤها ليوقفوها بين تماثيل الكلس، حال يغمرهم ضوء الفاترينة بألوانه، ويتم إلباسهم الرقائق الشفافة تعمل أخيلة العابرين، وينتعش المساء بمهرجان الألوان والعطور والملامسات والمهاجمة بالأعين. مالت "وردة" إلى فاترينة ظلت تحدق في وضع صُبت عليه فتاة الجبس ذات الإصبع المكسورة.

أوقفني أحدهم. رأسه مائلة ملفوفة بشال أبيض، يستند على كتف بنت صغيرة، تعمل يدها من جيبها إلى فمها وتمضغ طوال الوقت، كان استعدَّ بروشتات وتحاليل تثبت ما يقوله. مضيتُ تلاحقني أدعيته بأن يخلي لي الله خطيبتي، كأنما يعرف أن المرأة هي من يستحق دائمًا. حتى بعض الصغار الذين كانوا يلهون بالتخفي عن بعضهم بإمساك الهواء خلف المارة. توقفت كي لا أصطدم بهم، فخجلوا وراحوا يتبادلون ضرب علبة فارغة بمقدم الحذاء.

تخيلتها وهي تجرب التواءات الجسد وتنظر إلى استداراته خلف باب مغلق أو تحت الدش. الجسد وحده، بغير أن تثقل أطرافها بالخواتم والحلي.. بغير هالة من عطر ثقيل.

الجسد، من تتعيش عليه سماء أبيها "طلبة"، فيكثر له من الجلْد بالخرطوم واللسع بماء الشمعة، كي يلْجم أنوثة تقيم حفلًا دائمًا للرجولة.

ألهمتني "وردة" شيئًا للرواية.. فالبراءة ليست قلة الخبرة.. هي التلقائية بغير شوائب من المعرفة أو العلم.. يا لي من طبيعي يهفو إلى بدايات حياة، كلما كثر فيها الموت رأى كل طرف في الآخر نوعًا جديدًا يجدر به تذوقه كفاكهة سريعة العطب. ليمتد موسمها قليلًا.

سأصف أيضًا جسدًا صنعته الحرب، له جلد من البلاستيك، وفقرات أعيد صبها من البورسلين، لامرأة تخفي شروخ وجهها بالمعاجين، وتعلّق حلقات من الذهب في كل أعضائها، وتدق الوشم حيث لا أعضاء. تخفي نفسها داخل عباءة خليجية ونقاب، تدربت على أن تحشد تأثيرها عبر فتحتي العينين. امرأة تناسب المرحلة. لا ترضى بغير الجنس الخليجي شرط أن تظل بالعباءة. سأجعلها تغدق عليّ ثم تذهب بعد أن تكون رمتني بحب الموت. لدى محاسبتها أمام الله. يبدل الملائكة شهادتهم بخصوصها، بعد أن ترشوهم.. ما الذي يمكن أن يرتشي به ملائكة؟

سياق سوف يمكنني من وصف تلك الآفات الأرضية التي تقنع بالكفاف العاطفي الذي اسمه اللذة. وتتقن خبرة الاحتيال على الأرض والسماء معًا.

تقدم شخص إلى أحدهم بمحاذاتي وصافحه كصديق. قال.. أقولك نكتة وتعطيني جنيه؟ قال.. نص جنيه وسيجارة. وقفت مع "وردة" متسمعًا، وهو يقول مبتسمًا.. عاوزها جنس ولا سياسة!

شعرت بالجوع لأول مرة منذ يومين. على باب مطعم وقفت تائهًا لأتبين في أي اتجاه كنا نسير. مما لفت جنديين بدا أنهما معينان لحراسة بناء مجاور من ثلاثة طوابق مغلق النوافذ. ما من علامة سوى لافتة قديمة صدأت فضتها تشير إلى وجود محام. جاءهما عامل المطعم بلفافتين من بقايا الزبائن فقرفصا لفضها على الرصيف.

لا قيمة لمكان بغير ذكرى امرأة. والويل إذا أصبح لامرأة وطعام. تجاهلتني "وردة" حين دسست في جيبها جنيها وناولتها لفة الساندوتش، حفظته في حقيبتها.. قالت.. أصل أنا صايمة أنهارده.

قبل سنوات وفي نفس المكان أشعرتني "منى" المحترفة أن تجاوبها ومرحها معي مضبوطان على الفلوس.. تعاملني كرجل مسئول عنها وليس مجرد حبّيب. حين عاد خطيبها من السعودية، راحت تعاملني بشفقة مغلفة بالاحترام. رفضت أن تأخذ مالًا.. قالت.. مستورة والحمد لله.. عاوز إنت فلوس.. أشعرتني بهوانِ أن يرثي أحدٌ لك فيما

يخص المال. وصارت تأتي فيها بعد ومعها طعام لي ولها. كنت أسلم بالأمر غير فاهم.. حتى العبودية لم أعد أعرف ما هي.

دلف الرجل السمين إلى البناية المعتمة بخفة، تبعه آخر يمسك بيد طفلة محجبة.. بدين يلبس الغترة والعقال.. صورة مكررة. اعتدتُهم وسط البلد، يلاحقهم الوسطاء والسماسرة يتوقفون لدى أي بائع ويساومون قبل إخراج المال، ثم تعود عيونهم إلى العمل خلف كل سمين يهتز.

اليوم لا يلتفتون إلى ناحية، ويحذرون أن يحتك أحد بهم في الزحام. فشعرت بالإهانة.

لمحت ذلك المُقعد الذي يقر خاملًا في الظلام إلى جوار المدخل، يُسرع زحفًا إلى لوح ذي أربع عجلات باتجاه الخارج من المطعم. حين رآنا تراجع.

غزر المطر فجأة فخلت الشوارع، وبدت محطات الترام كجزر رفيعة فوق الأسفلت. تصبح الشوارع أجمل في مساء بارد يخلو من الزحام والأنوار. بمرور الترام يعلو ضجيج العجلات وهي تصحن عظام الشارع المصنوعة من الفولاذ، دغدغة تنتقل إلى الأرصفة والعمائر ذات اللون الطوبي. لن أُضيع الوقت في الأسئلة المعتادة والأجوبة المراوغة. جسدها هو كل ما أطلب. أحطت كتفها بذراعي. كان الجو دافئًا بما لا يناسب مطرًا كهذا. حدثتها عن قصة أفكر بكتابتها فلم تكترث، ألصقت نفسها إلى إبطي وأخذت تنظر إلى ولد

يندفع خلف قطة يحاول حصارها، أو بنت تنقر بسبابتها فوق فاترينة، تُعيدهما نداءات أب على مقربة يتلفت حوله. يشعران بلا جديته فيتلكآن لدى بائع لعب سحرية ثم لدى بائع سلاحف صغيرة ترك بضاعته ونام. بينما تقصف حبات المطر أسقف عربات تسلط كشافاتها في زخ المطر.

ظللت أبحث ضمن العمائر العتيقة عن واحدة ذات مدخل مظلم. رأيت أن نبتعد عن شخص أشعث يقف آمنًا من المطر إلى جوار كشك سجائر، يداه في جيوبه، لا تهتز السيجارة بين شفتيه، يتكئ بقدمه على الكشك. طلبت منها أن نعبر الطريق تجنبًا للأشجار التي يتساقط منها الماء. دفعتني معها وهي تهرول وتضحك لاندفاع قطَّين انتهيا من سفاد عابر تحت سيارة واقفة. سبقتني إلى الرصيف الآخر، بينما أنظر إليها وأتخيل ما سيكون عليه عريها.

من محل يسع شخصين بالكاد اشتريت لها زجاجة عطر وفقًا لسعرها. لم تمد يدها.. قالت.. متشكرة مش تسألني الأول باستخدم نوع إيه؟ شعرت بالحرج. لم تحجب ملابسها المهلهلة أنثى أتخيلها. كان أقل من هذا كافيًا لترميم وحيدٍ نُزعت عاطفته عن قلبه كما تقشر الفاكهة. يرغب في الكتابة عن الحياة.

طلعنا حتى باب السطوح الملخلخ. تسمعت دبيبًا خفيفًا في مدخل العمارة تلاشى بسماع إغلاق باب. تناثرت في المكان آثار امرأة ورجل سبقانا، وعبارات مكررة.. للذكرى الخالدة. أخذت تصفر في خلو بال

مع أغنية تجيىء من بعيد لـ "ليلى مراد". كانت المناديل الورقية بدعة أسمع عنها وأحسبها غالية. أوشكت أطرافنا الأربعة على التداخل حين انتبهت فجأة مديرة أذنها باتجاه السلم. نهضت ثم نزلت برفق ثلاث درجات سمعتُ بعدها صوت باب شقة يغلق. بدا مشهدها في الضوء القليل مثيرًا وهي تميل على الدرابزين ببلوزة مفتوحة، لا تنبئ ملابسها ولا سنها عن هذه الرجرجة، بينما تتخابط حبات عقدها. وضعتُ بعض العطر من الزجاجة التي رفضتها.. فوجئتُ بأنه مكتوب عليها.. عطر للرجال.

جسمها جميل. لن أخطو في الرواية خطوة حقيقية إلا بقدر شعوري بهذا الجمال.. وبقدر ما لا أهدر من سخونتي الداخلية في المناقشات والكلام.. ظلّت مائلة على الدرابزين تنظر إلى تحت. ثم عادت وهي ترتعد من البرد بصوت لعوب.

بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين. بخط ركيك كانت كتبت هذا في أول صفحات أجندتها.

اسم المدرسة: مدرسة الحب المتكامل.

عنوان السكن: ألب حبيبي.

المدينة/ المركز: مدينة السعادة الدائمة.

تليفون: ٤ قلوب وابتسامتان ونظرا.

المؤهل الدراسى: ثلاثة أولاد وبنت. وبتكمل ف الجامعة.

بتقرا إيه؟.. خطفت مني الأجندة وهي تضحك. فكرت بارتداء البنطلون، ثم اكتفيت بالجلوس.. أتدهور اقتصاديًّا بانتظام.. وما من طريقة أدافع بها عن وجودي.. المتسول الذي يسكن بجوار المطعم، أتراه مقعدًا حقًّا! يبدو كالمدهون بفرشاة من الطين من فوق لتحت. على وجهه بثور مغطاة بقصاصات ورق. أعرف أن صاحب الكشك المجاور يؤجر له موقعه لقاء مبلغ ثابت، وأنه يعطي رجال الشرطة نصف المبلغ.. رجل ضئيل مقطوع الساقين ظللت أفكر به فهو لا غير جذع ورأس كيف يقضي حاجته وينام مع امرأته وينجب أطفالًا. فكرة جيدة لقصة.

سمعت ضحكة خافته لدى مرور صرصار.. قالت.. أبويا كان بيحط صراصير في جيب الجلابية مع الفلوس، وأمي برضه تطلع الفلوس بماشة الجوزة.. عارف بقى يعمل إيه.. يبرمها ويدخلها جوه الراديو الخشب.. أصابتني حكايتها بالمرح. شعرت بيدها في النور القليل.

أعادت حكاية الرجل الذي يتعرى للبنات تحت شباك المدرسة.. حكتها هذه المرة على أنه يقف على سلم كوبري المترو منتظرًا جمهرة البنات.. اللائي ينطلقن في الصراخ والضحك. حاكت بيدها أداء الرجل في الهواء.. تريد أن تحركني.

لا أحب الجمال الأوروبي. أحب الجمال الذي يشبه كل شيء حولي في الحياة. لكن كل شيء ضنين بالجمال. وجهها أوروبي، هادئ ومفعم

بالخبرة.. متصالح مع الوجود.. لم تفقد عذريتها النفسية بعد. أيضًا لا أحب الصغيرات اللائي لا تزلن تراكمن الذاكرة.. لا فرق لديهن بين رجل ورجل. ما شأن هذا كله بالرواية..

فزعت برأسها التي على صدري لدى سماع خبطات على الباب مع صوت جرس.. نهضتُ معها محاولًا ارتداء البنطلون، فإذا بها تكتم فمها كمن تمنع ضحكة، قافزة برشاقة إلى جواري.

تركت يدي تفتش عما يخبئه الشعر الكثيف. أردت أن أراها مضطربة، يثيرني اضطراب الفتاة متورطة بأنوثتها، لدى رجل يلاحق جسمها. كانت تستجيب بسلاسة وألفة. راح الهواء البارد يصفر بين ألواح باب السطوح الذي يتسرب منه ضوء. لمحت لونًا بنيًّا في ثنيات لحمها. في حيّنا تستثير الصغيرات غدد الأنوثة على مخالسات الكبار، حتى إن الواحدة تتم خطبتها وهي بعد طفلة. قالت ضاحكة:

ـ نبقى نسيب بطانية هنا عشان لو جينا تاني، عملو فيك إيه ف السجن؟ مش بيعطوك مرتب كويس على كدة؟ قلت.. مرتب.. هذا شيء يخص أفكاري. قالت.. يعني بلوشي. مش "سعد زغلول" و "أحمد عرابي" و"عبد الناصر" والناس الجامدة دي كلها كان لهم مرتبات!.. لم أعرف كيف أشرح لها الأمر، خجلت أن أقول إنني أيضًا فقدت عملي.. قالت.. عارف أحسن حاجة ف الدنيا دي إيه؟ الكورة والرجالة. قصة إيه اللي كنت عاوز تكلمني عليها.

أخذت أبعد عن خيالي "نور" وهي في أوضاع شتى، تفعل نفس الأمر في الأدوار العليا للعمائر القديمة.. تعود دائمًا متأخرة. تصخب مبتهجة طالبة الطعام وتنساه قبل أن تنزل للدرس بسرعة. هل كان أمرها يشغلني لو أنه داخل شقة مع شخص يحبها! سكتت "وردة" وجعلت تغطي جسدها بأي هدوم. ظلت تتكلم مفسدة عليّ الخيالات الشبقية ففكرت أن أحفز نفسي إلى الرغبة من جديد، مددت يدي قالت.. إيه مش سامع أذان المغرب. شعرت أن تلامس جسدينا غير محبب لي.. بعد أن تمتمت قليلًا قالت.. كنت صايمة أنهارده.. عليا ٦ ايام من رمضان اللي فات، وسمعت شيخ بيقول ممكن اصومهم في أي وقت ـ عادت لتتمتم مع الأذان ـ فرصة ماكانش ف البيت أكل أنهارده، كده يبقى عليا ٥ ايام.

قلت لها إن القصة لتربي عاش أكثر حياته في حجرة بجوار جامع الترب يردد عبارات العزاء وآيات الموت، يتلقى الهبات طعامًا وملابس وأحيانًا الفلوس، وفي يوم أوحشت به المقابر وجاء أحد أقرباء ميت وترك شتلة في صفيحة طالبًا منه أن يتعهدها بالسقاية عند قبر معين، لكنه نسيها أمام حجرته حتى نمت وأكل الصدأ علبتها وضربت جذورها في المكان.

ثم خطر له أن يتزوج بعيدًا، أية امرأة. ذهب إلى المدينة وظل يتقلب بين أعمال شتى. مرة بائع فاكهة أو ماسح أحذية ومرة بائع

ملابس أو عطور أو خادم مسجد.. مش عارف بأه أرجّعه لمهنته تاني بعد أن يفشل في المدينة، أم يوفق ويواصل حياته.. سألت "وردة":

ـ إنت عاوزه يعمل إيه!.. كنت فكراك هتكتب قصتنا مع بعض.

لم أجد في قصتنا ما يمكن أن أكتبه. فكرت ونحن عائدين أنني أكتب فقط حين أكون ممتلئًا بالموضوع، حين أعتسف مع نفسي تضطرب قدرتي على التعبير ويتغير خطي. بل إنني أُخطئ في هجاء كلمة أعرفها، وأظل أشطب وأكتب في عسر.

في الأوتوبيس كان الجالس إلى جواري يلامسني بكل فخذه كلما تزحزحت ثم ينظر في وجهي، وحين مد ذراعه على ظهر المقعد خلفي نهضت مفضلًا النزول، وإكمال الطريق إلى "جاسر" سيرًا، حيث يعيش في مرسمه. يشع من طاقته على مُجالسه، فهو لا يهتم بالمال، ولا يتآمر على فتاة ممن تزرن مرسمه. لا يرى المرأة جنسًا مثلما لابن فقراء، حتى ليمكن اعتباره حرًا فيما يخص النساء، وإن تحدث عنهن باشتهاءات خفية. متصالح مع الوجود، أداته هي الاستغناء ولا يؤمن بعقيدة.. يقول.. "أؤمن فقط بمنشور الضوء، والمطر الذي يربط الأرض بالسماء، وبالنساء من برج السرطان".

حدثني أخيرًا عن نيته في التكيف مع الحياة قليلًا، ومضى بالكلام باتجاه فتاة أعرفها من برج الدلو قال.. كلمتها عن أن علاقة بيننا خير لها من الوحدة ومضادات الاكتئاب فاعتبرتني مختلًا واختفت. نصحتني إحداهن أن أُثني على جمالها وزيها الملتزم، وأرفق كلامي

ببعض الأقوال الدينية ففعلت. وقلت لها لا يعرف أحد بها بيننا. طبعًا مع هدية هي آية الكرسي من الذهب. بعدها أتت إليّ هنا وقالت.. أنا مش جاية كدة.. أنا صليت الأول صلاة استخارة. ثم رفضت أن يكون الأمر على الأرض مثلما أحب. على السرير ظلت تتقلص وتقاوم حتى توقفت قائلة.. شوف لك مكان تاني.. جوزي محلفني ع المصحف ع المكان ده، الغدر وحش.. عارفاك ولا بيهمك الكلام ده.. تلاقيك كمان مابتصليش.. تخيلتها عملت جراحة لتخسيس الردفين، عملت واحد وماعملتش التاني لأي سبب.. توحي لي بصورة سيريالية لامرأة تسير بردف عال وآخر خسيف.. سأرسم هذه الصورة. عاوز أقرا تاني عن برج الدلو لما يقرب من برج الثور..

كنت سأطلب منه صورة لامرأة برحمين وثلاثة أثداء.. إلهة للحياة كما أتخيلها غير أنني أتخيل أخرى لـ "فاطمة"، لحظة أن ينظر إليها رجل، فتضم كتفيها في رعشة لا إرادية أعرفها.. هي من برج العقرب. ودائمًا ما أقول لها.. أنتِ إمرأة ونصف رجل.. أراها في منتصف المسافة بين عامة البنات والمثقفات. كلتاهما لا تسعى إلى حرية أو مساواة. فالعوام من البنات تبسط نفسها لك كعبدة تبحث عن سيد.. والمثقفة تتقدم كسيد يريد عبدًا. والاثنتان أداتهما الصوت. هذه صوت كسير وتلك صوت آمر.

أشعر أن للأنوثة سقفًا تقف عنده فكرة المساواة والحرية.. الحرية التي تجيىء للأنثى بقداسة طبيعية من دون اعتساف.. ألا ترى مثلي أن

الحياة فخ محاط بالأديان والرومانسية. "فاطمة" في هذا السياق امرأة مرت بعدة رجال في الطريق إلى رجل مر بعدة نساء.

ـ كلامك دبش.. بدأت الرواية ولّا لسه؟ قلت

عجوز ثرية ترمم جسدها بخبرة الاحتيال على الأرض والسماء، ثيمة تكررت في الأدب حتى خلت من الأصالة. سأكتب عن ١٨، ١٩ يناير وعن زعيمي السجن اللذين يهرع الحرس لدى رؤيتهما وينادونهما بيا فندم.. تعرف، أريد أن أصف بالضبط كيف أن زعماء أي حزب حاجة وفواعلية الحزب أو شغيلة النحل حاجة. أنوي أيضًا الكتابة عن فقر صار خاليًا من النبالة بعد أن خلا من القيمة. وثراء أصبح خاليًا من الكبرياء بعد ما خلا من الذوق. تلوثا معًا حتى إن الجميع يزهون بالقدرة على أن يعيشوا كعبيد.. ترى عندما أبلغ السبعين سأكون مثل هذين الزعيمين!.. أم أشبه أبي، أردد في كل محنة.. شدة وتزول. وأنتظر امرأة ناشفة تضع أمامي طبقًا به كوب شاي وقرصتين!

نهض "جاسر" إلى كومبيوتر اشتراه مؤخرًا. أدخل قرصًا في الجهاز ثم كف إصبعه عند مشهد سفينة هائلة الحجم تموج بالركاب، تشق البحر مخلفة جبلين من الماء الفائر، وثمة شاب طويل كثيف الشعر يمسك بسياج مثل سور شرفة. تظهر كابينة حيث تضغط فتاة شفتين ملونتين إلى الداخل أمام مرآة، ثم تعقد منديلا حول رقبتها إلى جانب، وفي لهفة تقرب ثدييها إلى بعضيهما من طوق الفستان.. ثم

بحركة خاطفة ترش العطر من بخاخ عطر قديم ذي خرطوم، تحت ذيل الفستان. وفوق الدرج المعدني تعود لتأخذ من فوق المرآة حقيبة يدها.

بدا وجه الفتى فوق السور شاردًا. وبهدوء تسلق السياج وقفز ليبتلعه فوران الماء خلف السفينة. تطوف الكاميرا فوق سطح السفينة وتثبت على الفتاة التي تنتظر في نفس مكان الفتى. تحاول تثبيت فستانها المنفوخ، وشعرها المبعثر وقد سقطت شنطتها.

ـ أعيد لك اللقطة تاني!

جاء "جاسر" بدفتر وقلم وراح يرسم لي أن بهذا الجهاز برنامجًا يضبط أية دوائر كهربائية على أي توقيتات.. في الثامنة أبتلعُ شريط من المنوم، ثم أدخلُ الكيس وأغلق السوستة بعد أن أوصل الدائرة إلى جسمي عبر الكمومبيوتر ليوصلها بعد ساعتين، وينتهي كل شيء بهدوء لا يربك أحدًا. قلت له فكرة جيدة لسيناريو.

الفجر ابتداءٌ يوميٌّ مكرر للعالم. بروفة جديدة ليبلل الإنسان عروقه كي يجففها النهار من جديد. سكون مفعم بالاتزان. لا شيء متفقًا أو مختلفًا عليه.. في العودة تبدو الشوارع أطول. وإلى فوق تزدحم السماء بغيم داكن لا يتحرك. ما من امرأة تسير في تلك اللحظات الحُرم. فرصة يومية يوفرها الفجر للقرد بعد أن راعى الجميع جدول الفضيلة في العلن وناموا مطمئنين.

تسألني "فاطمة" حين كانت تشعر بيدي في تلك الساعة.. إنت ما بتشبعش.. أشعر الآن إحساس الوجود في زنزانة قليلة الضوء، بابها موارب. هاتيك الصغيرات من درَّب أعضاءهن مبكرًا، بعدما أسقطن من حياتهن طور ضغط الورود داخل الكتب والبصم بشفتين ملونتين على ورْقة معطرة، سعيًا إلى إنضاج الأجساد النيئة غافلات عن عالم من التشويق الأجوف والخيالات الزلقة.. أسأل "وردة" وأنا أحسّ كرات الشحم تتحدى سواء الجلد لتمنحه اكتظاظًا يعدُ بالامتلاء.. عرفتي منين الحاجات؟ تحكي عن رجل تتجمعن له خلف شباك الفصل وتطلقن صراخًا لا يعبأ به رجل يحرك لهن قضيبه في يده. بمجرد أن تمددت على كنبة الصالة شعرت ألـمًا في المعدة. اعتدلتُ فخف الألم. عاودت التمدد مغمضًا عيني فعاد الألم فظيعًا.. مسمار مغروس. نهضت مثنيًّا على نفسي أفتش عن قرص للمعدة.. ولعبت لعبة من وحي الألم.. اضطجاع.. مزيد من الألم.. جلوس، تخف حدته. نوم فيه إغماض للعينين.. ألم شديد. نهوض.. ألم أقل. حركة.. ألم قليل أحتمله. ثم كففت عن ممارسة الإيحاء على نفسي. لن أكتب الآن، فجسدي يكتب معي. يثيرني المرض ـ "فاطمة" تعرف هذا ـ فأيمّم نفسي بكليتها شطر الجنس إلى أن أهمد وأنام.

القهوة تجلب لي النعاس سريعًا بخلاف ما اعتاده الآخرون. لكنها ستزيد ألم المعدة. كانت الشقة مرتبة نظيفة وكانت "إنعام" نائمة في الركن حيث اعتادت أمي أن تنام. تركت لي أمي المال الذي رفضته

على ترابيزة الصالة. لمحته في ضوء الصالة القليل، تجعلني طيبتها أغض عن وقوفها المفاجئ لتهرش تحت بطنها بقسوة وتقول.. شوك.. شوك. غير عابئة إن كان أحد يراها. ثم تعود إلى ما كانت تؤديه. أحيانًا أراها تصلي. كأنما استُنسخت عن أمي عدا البياض الزلالي في إحدى عيني العجوز. عدّتها في الحياة قرش تراكمه على القرش لجهاز البنت. وصابونة معطرة وقميص جديد تصنع بهما طفلًا بدلًا من الذي مات. تحفظ مريلة الكبير للصغير وحذاءه وكتبه. ومن جديد تعد له ساندوتش أرز أو مكرونة. تخاطب الفرخة قبل ذبحها.. يصبرك على ما بلاكي. تحفظ لزوجها المناب الأكبر، وتدفع عنه بسرعة إغواء امرأة أخرى. "إنعام" كأمي متصالحة مع مباغتات الحياة. لا تعلق شريطًا أسود على صورة زوجها الأول. وتؤسس له حضورًا من مادة الأيام والأبناء. إحساس لم أجربه. وإن سمعت "أم زمزم" تقول لها في ذات الركن الذي تنام فيه الآن وأنا أتصنع النوم كصبي.. هي الدنيا كده، المهم روقان البال. جوز اختي كان اسطى نجار ملوش مثيل. وف يوم عدى عليه راجل صالح قال له.. انت صنايعى شاطر أوي.. دى صنعة ولا خلو بال. قال له طبعًا صنعة ده معلمي الأسطى فلان. قام الراجل نازل السوق وشاري حتتين حرير على ساتان على رمش العين وتنو طالع على بيت جوز اختي. فتحت مراته. الأسطى باعتلك دول يا هانم. رجع الأسطى وبعد يومين لقاها بتبدل ف هدوم جديدة بتبرق.. إيه ده، جبتيهم إمتى.. قالت له ما دي القماشات اللي أنت كنت باعتها. قال لها أنا مابعتش حاجة. تاني يوم اتلخبط حاله وبقى

شغله أي كلام. كام يوم وعدى عليه الراجل إياه.. سأله.. هه.. صنعة ولا خلو بال؟ قال له.. يمين بالله العظيم خلو بال.

أريد أن أكتب ما لم يكتبه أحد. عن الفقر الذي لم يعد نبيلًا غير أن ما بداخلي تتتابع عليه الأحداث. وتتجاوزه بسرعة. أشعر أنني أضل السبيل بمرور الوقت. الآخرون في حالة تواصل ماعداي. القس الذي كتب رواية عن زوربا قال إن الوحدة هي الوضع الطبيعي للرجل الناضج. و"إنعام" تقول لي.. مراتك قليلة الحيلة، إنما مش غدارة.

فتحت التلفزيون وأبقت الصوت خفيضًا، أتفرج وأنا نصف نائم. لمحت أبي نائمًا لا يتحرك كمومياء وأمي نائمة على الكليم إلى جوار سريره ففهمت أنهم جميعًا باتوا عندي. قناة أجنبية تعرض حشودًا ترفع لافتات بلغة لا أعرفها. وصورًا لأناس شوِّهت وجوههم وأطرافهم. يعقد الشباب ذوو الشعور الطويلة البلوفرات حول أكتافهم، والبنات حول خصورهن. تتقدم إحداهن بميكرفون وتهتف بنبرة لا غضب فيها.. هي فتاة بدينة، أجمل ما في المرأة خصرها. في التراث إن من جمال المرأة أنها إذا نامت على جنبها، يمكن لقطة أن تمر بينها والفراش. تذهب الكاميرا إلى حيث ينتظر حشد من رجال البوليس بالدروع والعصي. قلت لنفسي.. هذا شعب يموت أبناؤه ليس وهم نيام في الليل أو في حوادث السيارات. إنما في المظاهرات والسجون.. لا.. هذا تقليل للذات ومبالغة. تواجه الحشدان وتعالت

دقات حاملي الطبول والميكروفونات ونزلت العصي. لو أنني هناك لضربت بكل غِلِّي هؤلاء الجنود. ركزت الكاميرا على شاب واقف في ثبات يحرك ملامحه بسخرية قبالة جندي ضخم فيستشيط غضبًا ويوجه له لكمة تفاداها الشاب البارد. قلت لنفسي.. شغل عيال.. ما جدوى التظاهر بالرقص والغناء والإغاظة بحركات الوجه في مواجهة الدروع والعصي المكهربة.. تحدث رجال رسميون عن وحدانية العالم والأهداف الإنسانية وإن لم أفهم شيئًا مما يقال. فما يشغلني هو.. هذا العالم الذي يُعلي من شأن الموت.. هل ستنقذه السياسة، أم الأدب والفن! أريد أن أكتب عن انتفاضات عمادها لا يزال الخبز ولعنة النساء لأجسادهن.

ضغطتُ الخدادية إلى بطني. كنت وجدت شريطًا به حبة واحدة للمعدة. جعلتها أمامي كتميمة ضد الألم. سأستخرج من المكتبة كتاب "عندما كان الإله أنثى". فالاضطراب الذي يشمل العالم أو بالأدق السعار الرأسمالي يضع الإنسان كله بين قوسين وعلى المرأة إذن أن تستعد.. لا.. تلك أيضًا مبالغة.. فأنا لدي ميل طبيعي إلى تقديس المرأة.

على الكليم خلف أمي كانت ثلاثة أطباق مغطاة وورقة يعلمني أبي فيها بخط طفل أن هذا عشائي وأن السجائر في جيب البنطلون.. وأمك تعبانة متصحهاش. أخذت الأطباق إلى الصالة.. هذه العجوز التي قل حجمها بالنوم مثل جنين. تحتل أقل مساحة من الأرض.

رأسها عارية وشعرها الأبيض خفيف.. خفيف، أرى من خلاله فروة الرأس. هي تمسح الآن دموعها في النوم. أين خبأت كل هذه المياه وهي اليابسة القليلة. أداتها في مواجهة كل أمر الدموع. أم أنني من يبذل هذه الدموع بداخله! أعنيّ يا الله فهناك الكثير مما لا أفهمه. شعر أبي بحركتي فخاطبني وهو نصف نائم.

ـ إنت جيت، عمك "طلبة" جالك مرتين يسألك إن كان حد من زملاتك يعرف علاج الناصور. بيقولك ناصور حريمي بقاله ٢٢ سنة وخدت كل أنواع الدوا..!

ـ طيب هسأل له.

استدار ونام ولم تتحرك أمي من وضع الجنين الذي اتخذته لنوم كالغيبوبة. حين جاء لزيارتي بالجريدة منعه "شعبان" عامل البوابة.. ذكر له اسمي فسأله.. معك تصريح. كلمني أبي من كشك سجائر قريب. فنزلت محتدًا. والتقطت ورقة من الأرض قائلًا له بعصبية.. آدي التصريح. ففتح البوابة وقال في توعد باسطًا يده لكلينا.. تحت أمر سيادتك اتفضلوا.

عامان مضيا وأنا أحاول أن استألفه من غضبته أو أجعله يقبل مني مالًا كزملائي يوم القبض. أُكشط الجلد قليلًا أيها القليل الأسود.. وقُل لي من العبد ومن السيد. أكشطه برفق يظهر لك نبي توقف عن النمو. كانت قدماه مغطاتين بشال أمي الأخضر ذي الغرز الكبيرة. ناما كأنهما في ضيافة مؤقتة ولم يمسا أغطية السرير المطوية.

يا إلهي أعنِّي.. لا.. لست في حاجة إلى عون سماء ترسل الملائكة البيض ليضعوا كل هذه السمرة في أحشاء النساء. وكان بوسعها أن ترسلهم سودًا. هل سيحرمون من دخول الجنة قبل أن تبيّضهم أولًا وتعلمهم لبس الحرير وأقراط الزمرد. لو كنت أعرف لقلت لك يا أبي كيف تهيئ جسدك القليل المقدد لتستقبلك بدلًا من هذه النائمة، حوراء من حور العين المشربات بالحُمرة ويظهر لك الشراب من عنقها.. اعتدت أن أقرأ قليلًا قبل النوم. لن أقرأ الليلة. تكفي عبارة معلقة على الحائط.. يقول فيها "فان جوخ" لأخيه: " إن المرء ليحس بالخواء حيث ينبغي أن تكون صداقة وحنان قوي جاد". من جانبي أحذر الحنان. كل حنان يؤدي بي إلى الجسد.. أحب رائحة "فاطمة" ورائحة اللبن المتخثر على جلباب "أم زمزم". أكره رائحة "سهام" و"إيمان". وأحتار بإزاء عطر "وردة".. لا أحبه ولا أكرهه.. أشعر به فقط في أنفي..

بي رغبة إلى الكتابة.. إلى ذاكرة غير تلك التي لم تعد تفعل سوى نقرةٍ موجعة ونقرة مبهجة. إيقاع لم يعد منه نفع غير إحصاء مَن بللتهن بمائي.. ثم الكتابة عن عالم تقليدي وصاخب. مصنوع من الاحتفالات وزمجرة الآلات العملاقة والسفن المحملة بالبترول وأدوات القتل. من الأطعمة والأطفال ذوي الأعضاء قليلة التكلفة ومشافي وأدوية وصواريخ يمكنها أن تدمر الكوكب إحدى عشرة مرة. عالم من رجال المال ومؤتمرات الطوابق العليا في ناطحات

السحاب الزجاجية. ووسائل الاتصال ولعب الأطفال والبشر بالغي السمنة وموسوعة جينيس. من المنشطات وأقراص تعظيم العضو وإطالة اللذة وثلاجات الموتى. وأثداء نساء تدر السوائل الملونة. وشركات صناعة الجنس. وأبنية أثرية عتيقة تحمل وتلد آبار نفط خفيف وثقيل وأجهزة كومبيوتر تحصي كل شيء عددًا. تسجل تعاليم السماء وأحجام الكواكب البعيدة والدساتير المضبوطة على صلوات ثلثمائة رجل يحكمون هذا العالم. ندور جميعًا في فلكهم كالبثور المعطرة على وجه كوكب عبثي يندفع على غير هدى في الفضاء.

سوف أنام. فبارك اللهم الغيم فوق سماء حي البرابرة. والنمش الخفيف على خدود النساء وصدورهن فأنت أرحم الراحمين.

فلا يكون مخططي للكتابة هو جدوى ملايين الشفاه وعبارات الغزل، والأرداف الهزازة. وقدر الجبال من الطحين. ثم لهفة القضبان في سعيها المحموم. وملء الأنهار من السوائل النشطة. إذا كان الموت لم يكف لساعة واحدة.. هل لكي نشبه آخرين يكافحون بدورهم كي يشبهوا غيرهم في تسلسل عبثي! عملت بجريدة حزبية وصار عليّ أن أذهب يوميًّا. قمت لأجد نفسي على الأرض. لم أشعر بوقوعي. الصالة فوضى، والتلفزيون يبث بإرسال مشوش. ينام الإنسان ويصحو ليجد عمره وقد فقد عدة سنوات. أمي غير موجودة.. وإلا سمعتها تكرر ترديدها.. الله أكبر.. إن هي رأتني هكذا، وتسمى وتبسمل. وبعد قليل. سأجدها واقفة بكوب الشاي أو منكبة على

مسح حذائي من غير أن أطلب. تضايقني أية عينين تراقبانني. فتحت شباكًا أبقيه مغلقًا دائمًا، فور أن بلغني غناء بائع وبعض من دوشة الشارع. دليت له السلة بالفلوس واحتجبت قليلًا حتى يطيل غناءه. توقف الرجل عن الغناء ليعبئ كيس العنب لأحدهم ثم علا صوته بالغناء، ومن جديد كفّ ليقص العناقيد ويزن. وبتوالي الزبائن لم يعد يغني. إنتظرت بلا فائدة. خسرت جنيهًا وربعًا، لو أخذهم "كرياكوس" لجاءني بكوب يبرق ويشف عن سيد الوحدة بلذعته القابضة.

أشعر كأم امتلأ ضرعها كلما مسني غناء حلو أو نص بديع. أو مشهد رجل يحيط بخصر امرأة، ويدبدبان معًا بحرية. حينئذٍ أمتلئ بالحيوية. أفقد الشعور بوجودي لأغدو عشبة على جريف نهر. أو بالأدق حجرًا يدور في الفضاء الخالد. كم مرة يعاود فيها صدري الامتلاء كأم وما من فم صغير! أدع بعدها المكتب إلى راديو صغير بحثًا عن موسيقى. موسيقى حقيقية.. هواء هندستُه الشفاه والأصابع إلى أن صفّته تمامًا من الكذب.

لسنوات وأنا أتنفس الهواء ملوثًا بالمال. أسمع وأقرأ هواءً يشبه الهواء.. أكتب هواءً يتناسل في عتمة الحبر مانشيتات. تفقس حين يطلع النهار بنوكًا وحروبًا ووعودًا بآخرة ملآى بكل ما ينقص الدنيا. فليكن اليوم يومًا للصمت. مهما رن التليفون أو طرق الباب. لا شيء عندي أقدمه لأحد. وما أريده لا يملكه أحد. لا شيء يربطني بأحد.

لا أشعر بالفخر لأنني مصري. ولا أستاء من ذلك. هذا الأمر لا يرد على بالي أصلًا. ما أشعر به فقط هو أنني شخص يسكن شارعًا يلقي التحية أحيانًا على من يعرف وجوههم ثم يمضي إلى عمله بغير حماس.

بدا المشهد من الدور الثالث كأنما أراه لأول مرة. خرابات صارت بيوتًا تخلو أسطحها من الأثاث القديم. ومحلات تم تجديدها. عمارة عريضة وسط بيوت وأعشاش قزمة. وأناس عقدوا الاجتماعات وخاضوا المفاوضات بأوراق مختومة. لأجل أن يبيعوا ويمسكوا برزم المال. وآخرون احتجزتهم رومانسية الفقراء عند حافة الوجود.. ألا تزال "فاطمة" هناك. تزن نفسها كثيرًا وتخشى السمنة!

مهدد في عمله بكثرة التحقيقات. يدبر شئون عقله خارج كل المكاسب. يتوجس منه الأقارب. ينكر أصدقاؤه صداقتهم له.. سوى النساء فهن أكثر جرأة. وأب يدفع عنه شبهة الإلحاد بقصاصة جريدة فيها صورته قائلًا.. رئيس الدولة كان باعت لهم مندوب ياخد رأي المعتقلين في سياسة الدولة. طبعًا إذا كان هو نفسه دخل السجن.. يجيب بعضهم.. ما شاء الله ابنك ذكي ومتكلم. والله أنا متوقع له مستقبل. واللي زي ده مش بس هيصلي ويصوم، هتلاقي دقنه أد كده. طيشة شباب وتفوت.. كلنا مرينا بالمرحلة دي.

مثل لعيني مشهد السوق مضطربًا بأصوات الدجاج والماعز. بين زحام وروث بهائم وأكوام كرنب وخس وحزم برسيم. وخراف وعجول. ثمة حلقة من العمائم والطواقي تدور حول جمل. وأرى

الصدور تنتفخ بحافظات جلدية مرسومة بأزرار من المعدن. وعن بعد يقف أحدهم مستندًا على حائط. ممسكًا السيجارة بين أسنان تالفة. ورجال يهرعون ليبيعوا لبعضهم هذا الشاري أو ذاك. ومطاوي تظهر في الأيدي فجأة. وباعة شاي وقهوة. ونساء تلتفتن وتشتمن وأخريات تصمتن. وعربة شرطة تتوقف بصورة مفاجئة حيث تجلس "أم زمزم". ومخبر يضرب بالخيزرانة ويركل أقفاصًا ومشنات. ويشوط كيس ردة أو سطل لبن.

تلزم أمي الحائط ويدها على رأسي. إلى جوارنا رجل مقرفص يعمل مسكينًا. تظهر عورته من تحت الجلباب. بينما يهرول المعاقون بإصابة ظاهرة كالحروق والبتر ومعهم المشعوذون يأتون بالحركات في وجوه العابرين..

تميل أمي إلى بائع أمامه طشت قائلة.. عكاويش وسقط بشلن. دي لأهل الله مش لينا وحياة الرسول. يقص لها الرجل شبرًا أو شبرين من أمعاء مملوءة بالماء وشريطًا كالفرشاة. وبعد أن تبتعد قليلًا يناديها، ليلقي في الإناء بأذن حمراء كبيرة قائلًا.. ودى عشان الولد، ربنا يخليهولك يا عسل. أنا بقعد هنا على طول. ولو نسيتي قولي "جابر" فين.

أشم رائحة الدسم والصلصة والخبز المحمص في أرجاء الشقة الآن. وأسمع صوتًا ممتلئًا بالعافية يصيح.. فين الشاي يا ولاد الكلب. إنه لينحني على قدمي بعد أيام يلبسني حذاءً قديمًا اشتراه من هذا

السوق.. يقول.. لازم تظهر بمظهر يشرفك قدام زملائك. ثم تفوح رائحة من قدمي بعد عدة أيام وترقّش رقبتى بقع وردية. تقول لي "أم زمزم" وهي ترفع جلبابها.. يا سبحان الله، ده شيء من عند ربنا، أنا عندي زيها. وتكشف لعينيّ تماوجات بنية فوق اكتنازات بيضاء. فتفعل بىْ ما كانت تفعله حزوز الحصير فوق ذراعها السمينة. وأظل أتردد على بيتها حتى بعد أن يصيبني رعب المصير من زوجها المقعد. وتقول لي دائمًا.. ربنا يبارك فيك ثم تسمي لي الشيء مثلما ينطق في خناقات الشوارع، ترشدني إليها شفرة خاصة لا تعمل على امرأة غيرها.

صرت مرمى عيون الجيران بعدما أفاض أبي في نسبي إلى الحكام. في عالم يعرض عليَّ عدة طرق للحياة. تلخص لي كل امرأة فيها طريقًا. رايح الجورنال.. جاي م الجورنال. حيث عليّ أن أفحص شريطًا مخرمًا على جانبيه يتدفق بأخبار آخذها على محمل الجد في حين لا يُعنى بها أحد. خلف هذا الشريط مئة رجل حلوا محل الله في حكم العالم. إلى أن يجري اختزالهم إلى مثل آلهة الأولمب.. رجال الصناعة والمال. مهمتي أن أزين للقارئ التصالح مع هذا الوجود. منتميًا إلى نوع من النساء يمنح نفسه لمرة واحدة كفاتح شهية لهذه الحياة وأن أغلق ذاكرتي على جسد بلا ذاكرة. متى فرغت منه مضى. كأنني لم أترك فيه بعضًا مني. الصداقة.. الإيمان.. الحب.. بلاغة إنشائية تناسب شخصًا يمتلئ بالزمن. أمور يلمح إليها رئيس التحرير، خطيب الجميلة بسؤالي. من

غير مناسبة.. إيه أخبار الرواية؟.. لسه! سأنتهي منها لأتقوى ضد الضالعين في الحياة كمؤامرة.. من يرون أن ماضي الدنيا يبدأ من أمس. البارعون في جمع المال والمناصب والنساء الجميلات. النادر أن تجد منهم من يقدر على اختيار يحتاج إلى المشاعر والذكاء.

يا إلهي.. أقول كلامًا وأنتمي إلى كلام. وأعارك الوجود بكلام.. أما هذا الواقعي فسوف تسير هذه الجميلة أمامه عارية. يشير لها فتفعل. ويظل عليَّ أن ألتقط وأشرح أخبارًا من مثل.. "رصد سفينتين متماثلتين تحملان السلاح. واحدة تتجه إلى العراق و الأخرى إلى إيران".. أو أن "فاتورة حرب تحرير الكويت بلغت ٢٢٨ مليارًا من الدولارات. تسددها دول الخليج مجتمعة. بعد ما وقعت عقودًا لشراء أسلحة بقيمة ١١٢ مليارًا أخرى".

ستنتهي بنا الحال إلى بشر أكول بيدوفيلي وديع.. تعريفي للقردة أنها كائنات مبترلة محشوة بالغرائز والمال. قالت الجميلة خطيبة رئيس التحرير..

ـ الحياة بسيطة، إنت مصعبها ليه، هيحصل إيه ف الدنيا لو ماكتبتش الرواية!

قالت وهي تعرف أنها آسرة تحتلك. وأنك لن تفعل شيئًا خارج مجالها الحيوي. وأنها عُملة دائمة. فتظل تروح وتجيء في صندل أرضي بسيط من نفس لون القرطين والأساور البلاستك. بطنها الضامر يزيد من طول جذعها مبرزًا ثديين لا أتخيلهما خُلقا هكذا بغير عمل شاق

تدربا عليه. لها مشية واحدة وصوت واحد يبقى في الذاكرة. مشغلة الكومبيوتر وخطيبة رئيسي الذي جاوز الخمسين. تظل تعمل بأصابعها العشرة مستغرقة. إلى أن ترجع بوجهها وتخلع النظارة عن وجه ملسوع بحمرة أنبتت زغبًا أصفر فوق الشفة. اسمها واحد من تلك الأسماء التي تعرف حاملته وحدها معناه. كائن يهاجمك بكل محتوياته. توحي لي بسيدة "تشيكوف" في الصورة باهتة الخضار إنما في روب بيتي مشجر. يكفيها صيد واحد لتعيش على لحمه وشحمه العمر كله. لقاء أن تمنحه تاريخًا.

وهو من النوع الذي انتشر مؤخرًا. يدل على أصوله الريفية بإلغائه لأذنيه ونهمه إلى الطعام. واقتنائه للموضة إلى حد ياقة قميص لها زوايا من المعدن. وسعيه الدائم لعقد الصلات برجال السلطة. ولأن يكون في حوزته عدة رجال يتبعونه. يزعق في ردهات الجريدة آمرًا أي عابر. تنتابه هستيريا الاتصالات ومذلة الصوت كلما لاحت بوادر تغيير في المناصب. في نادي النقابة لمحتها تتحدث إليه باهتمام بينما يتأهب للمغادرة بملابس رياضية. يضرب حذاءه خفيفًا بمضرب تنس. ثم ينادي شخصًا لا أراه. هرع إليه بعضهم فسأل عن أحد بعينه. ثم اتجه إلى عربة وألقى بجسده في تعب متكلف وبالمضرب إلى الكرسي الخلفي في إهمال كمن ينحدر من أسرة من النبلاء.

مثلها لا أمتدح جمالها فلا شك أنها خلصت بجسدها من رجال كثيرين. تكفي إشارة إلى الجسد الذي اعتاد الجميع أن يتخذوا منه

شاخص رماية يثبتون عبره إيمانهم للآخرين. عليَّ أيضًا أن أظهر الانبهار بما تتفوه به. ثم أنتظر حتى يأتي صوتها عبر التليفون خافتًا يسأل إن كانت عطلتني عن الكتابة. ثم يهمس ويتحشرج ويسكب النشيج شكوى من أب أو أخ كبير أو صاحب العمل.

تجيء إلى بيتي مرة. وفي الثانية تجيء مرتحلة بتاريخها داخل حقيبتها.. دي صورتي وأنا مع بابا وماما.. وده أخويا الوسطاني ربنا ياخده. ودي وأنا ف الجنينة بفستان العيد، لسه عندي لحد أنهارده.. اللي واقف هناك ده قريب أمي كان عاوز يخطبني. ثم تعيد بسرعة صورة ما كي تخفيها عني.. بلاش دي وأنا فيها زي الخدامة.. لبسوني فيها جلابية وعقال عربي.. علبة الكبريت دي معايا على طول. أصل رموشي بتقع لوحدها.. أحطها هنا كنت كل ما افتح العلبة يطيرو أعمل إيه.. حطيت نقطتين زيت ف العلبة.. شوف..

وقد تستخرج بعض الحمص مخلوطًا بالتراب من قاع الشنطة وتنتقيه واحدة واحدة.. انت عارف أنا بحب الحمص ليه.. عشان شكله زي السنة المخلوعة.. كنت بزعل كل ما اخلع سنة.

أعددت تفاحتين وسكينًا. حين شققت واحدة مال نصفها كامرأة تتهيأ لرجل. وبدت البذور محاطة بهلالين كثيفين. لأظافرها طلاء مبهج، وهي تقضم قضمات صغيرة في فتور.

- بشرب الشاي من دون سكر. مش مهم حكاية الحب دي. ده اختراع عربي ينامو به مع بعض بلاش إنت عاوز تنام معايا مش كده!

خليها one night standing.. تحب تسمع نكتة! سألتها.. مش خايفة من صراحتك دي؟ قالت.. إنت اللي خايف منها.. باي.

رغبتي لا تعلق بامرأة أمقت زوجها. صفات الرجل تلعب دورًا في تقبلي لامرأته. إنها تشرب الشاي من دون سكر. هذا أخص ما أعرفه عنها فكيف سأنام معها.. لم أجد عبارتها الإنجليزية في القاموس.. لكنني أفهم المعنى.. لعلني أعيش صورتها في عقلي بأكثر مما أراها. لم أضحك لنكتتها التي ألقتها لترشدني إلى ما ينبغي أن أفعله معها.. أفسدت عليَّ نكتة مماثلة كنت أعددتها.. فكرت بها بنفس الملابس التي رأيتها بها.. فجاءت مرتدية أخرى. ومن دون حقيبة. لقد جرب أسلافنا العظام كثيرًا. حتى رسى بهم المقام عند ملو راحتين من الشحم كسبيل إلى إستمرار النوع.. ورد كل الفضائل الإنسانية إلى الأمومة. ملو قبضتين نشأت عليهما صناعات كثيرة. ضهرك يا حاج.. حاسب يا عم الحاج.. اتفضل يا حاج. منذ مدة والآخرون يخاطبونني بهذا اللقب.

منذ ابيض قليل من شعري. ظهرت في جبهتي تجعيدتان. أحاول إبطالهما بكثرة الابتسام. وأن أغض عما تطالعني به أشرطة التيكرز من عدد القتلى والجرحى. والمشافي وأقبية السجون. وكوارث الطبيعة والأطفال المشردين، ومن يجري اصطيادهم بالخرطوش من شوارع العواصم. وهوس النساء بالتأمين على أجزاء من أجسادهن بأرقام فلكية.

على مقهى كنت أفض الساندوتش وأقضم وأنظر كل حين إلى وجهي بالمرآة. لم أنتبه إلى اليد التي وضعت أمامي كوب ماء. ربما يفيدني امتداح القوام في عابرة مسرعة بين برجين على الناحية الأخرى. وتجاهل الإعلانات الضخمة فوقهما. حيث تومض صور النساء بالتبادل مع السلع المعلن عنها. أريد أن أغدو وادعًا بلا تجاعيد في الجبهة مثل كبار المسئولين، حين يتحدثون.

أشار "كيرياكوس" لي بالتحية من بعيد. أفكر به دائمًا كشاذ. منذ قال.. لا آكل اللحم. لماذا أذبح كائنًا لآكله.. كائنات البحر طعام مناسب فنحن لا نقيدها ونذبحها. لا أتذكر بماذا أجابني حين سألته عن حظه من التعليم آنذاك.

هنا أقوم بشحن بطاريتي بالتسامح والرضى مع الأصوات الرائعة حليفة الحياة. "سيلين ديون" و"فيروز" وما انتقاه "كيرياكوس" من أغنيات قديمة. أحب النظر في المرايا العتيقة التي لا تزال قادرة على تكبير الضوء القليل بصالة البار ومطالعة البعيدين خلسة. ثمة فتاتان بقيتا من أربعة اعتدت رؤيتهن كل مساء. الأكثر بياضًا وامتلاءً جاءهما الرزق بدري. ومن بقيتا تتشاركان علبة سجائر وزجاجة بيرة. تلتفت إحداهما إلى باب البار كلما انفتح ويتواصل كلامهن بصوت خافت يتخلله رنين ضحكات أنثوية خجولة. مثلهن لا تتوسخ قطعهن الصغيرة. وقد تفوح بالعطر أيضًا. الفتاة القمحية فيهما تذكرني بابنة جار سمعته يسأل أبي عن داء الكلى بينما كنت أستذكر.. هي الكلى

بتبقى فين ف الجسم. أصل البت داخلة على جواز وتعبانة. أدينا عملنا لها نضارة، ما كانتش بتشوف بالليل.. ليلتها لم أنم.. هل يهاجم المرض أجساد البنات أيضًا. البنات تخضر أطرافهن وتنمو كأجنحة.. تمامًا مثلما ترسل الضفادع رسائل الهوى عبر النقيق. وتلعب النحلات لعبة الروائح ونقل الإشارات بين الطلع والبتلات.. حتى أجزاء الترام الحديدية تبلغ الفراغ رسائل ما. نهض عجوز أنيق بكأسه في يده. سلم عليهما بهزة من رأسه. ودخلوا في حوار ضاحك ظل خلاله واقفًا. أعرفه بالوجه ولم يسبق أن تحدثنا. هو تشكيلي بلا شهرة. يجيء كثيرًا كما لو أن الشراب تقليد عائلي لديه.. "زمان يا بيبي كانت الواحدة تركب عربية أو تاخد شقة تتجوز فيها. دلوقت تبات بره عشان بيتزا وعلبة كانز بس ما أنساش اللي اتوسط لى آجي هنا. ما أنكرش الجميل أبدًا، ميرسي يا بيبي والله". تضاحكوا قليلًا وعاد إلى مقعده.

قلت له ملمحًا إلى صوت سيلين ديون الذي يهمس في أرجاء الصالة..

ـ صوتها حياة صافية.. زي رسام شاطر من عصر الرينسانس.

ـ باردون.. فعلًا لغتها ناعمة.. الإنجليزية عندك كويسة.

ـ صوت زي نحات بارع. تفتكر ليه لا يوجد تمثال لامرأة منبعجة أو رجل له كيس دهني في رقبته أو حتى بساق ونصف ـ كنت أريد أن أقول.. رجل له أليطة ـ رفع وجهه ناحيتي.. هايل

بتتكلم فرنساوي كمان. ثم حمل كأسه إلى ترابيزة أخرى قائلًا.. باردون يا بني. شعرت بالتطفل وقولة يا بني أشعرتني بالإهانة.

كانت الأزمة الاقتصادية تضرب الكوكب بقوة، وبيوت المال تتهاوى.. قلت لنفسي.. في الحياة لا توجد آلام بالمجان.. تلك ولادة تناسب اقتراب قرن جديد.. فجأة دخلت عجوز متأنقة تتأرجح إلى الجانبين في سيرها. ما أن رأتها فتاة الكيس حتى أخلت لها مكانها. تقدمت إلى أن جلست إلى ماكينة الكاشير. دقت أزرارها وتطلعت إلى الشاشة، قبل أن تتجه بذات البطء إلى حيث يقف "كيرياكوس". أعرف أن ما أراه ليس حقيقيًّا تمامًا. "أورفيوس" وسرب من الوحوش الضواري تهرع تحت أقدامه لعذوبة ألحانه وقد ذهب منها التوحش والافتراس.. "فيروز" تمسح على الصدر برقة لا أقدر عليها. مازال أيام الزعل هي زمان الحب.. فإذا بطل "هوميروس" القوي يطلب من البحارة إذا بلغوا جزيرة معينة، أن يربطوه إلى صاري السفينة. حتى لا يستجيب إلى غواية أصوات السيرينيات الفاتنات.. كانت فتيات البار ترحن وتجئن بين الدولاب والمنضلة التي نصبت في أقصى البار. هنا الحنجرة الأقوى تحصد أكثر. حيث حواريون اتخذوا أماكنهم حول مشاهير النصبة. أكثرهم مسيح صغير خائب.. بينما الزعيم مدرب على التقدم برجليه مرات إلى المشنقة مزهوًا. ذلك سوف يرتد إليه مزيدًا من الصيت والمال والمريدين، الذين سوف يغادرون وينصبون منضلة جديدة في مكان آخر. تتناسل عنها

منضلات أصغر من الانفعالات والصوت العالي واليقين الذي يشبه يقين المؤمن.

هنا تمت تسمية "كيرياكوس" "زرابيلا" وصار الرجل ذا اسمين. هنا تروح وتجيء الرسائل محملة في نبرات الأصوات ومواضع الجلوس. ويجري تلخيص أحد المشاهير في جملة. وقضايا الوجود الكبرى في جملتين إحداهما بالعربية. ويتم تصميم موضات الكتابة والفنون.

عند الكونتر وقفت العجوز تتبادل و"كيرياكوس" الكلام بعد أن ناولها كأسًا أخرى. ترتدي حول ساقها اليسرى جوربًا من جوارب الدوالي، وتنتفخ الأخرى بتعاريج بنفسجية. وضعت الكأس، ثم تبعها بطيئًا إلى الصندرة الفوقانية وقد نسيت منديلًا مثلث الطي مطرزًا بأفرع خضراء على الكونتر. كانت فتيات البار تنظرن ناحية سلم الصندرة مبتسمات.

بعد دقائق علا صوته في نهنهة كالشكوى.

ـ جي سوي إنوسان.. جي سوي إنوسان.

زعق صوتها بعامية مصرية.

ـ والله.. والله يابن الشرموطة.. زعق كمان.

ثارت خلفي ضجة حيث صعد أحدهم على الترابيزة وسط المنضلة شخر مرتين وأخذ يسب رئيس الدولة ثلاثًا بكلمات بذيئة ثم

نزل وبيده الكأس وسط الضحكات. والفتيات العاملات تنظرن بغير انفعال. بعد قليل بدا حذاء لامع فوق الدرج الحديدي. استدار الحذاء بحذر فيما بدا أنه يُعين العجوز على النزول. وقفا لبرهة إلى أن جاءها بكأس شربتها على مرتين. تركته إلى الحوض حيث غسلت يديها وتناولت المنديل الذي تركته. أمسك بذراعها حتى بلغا باب البار.. وقفا معًا للحظات إلى أن لاحت من انحناءة الطريق مقدمة ترام تزمجر عرباته وتصطك عند تقوس القضبان. أشار بيده كما يشار للتاكسي. فرفعت له يدها ليقبلها وتطاير شرر الضوء من خاتمها.

ها أنذا الآن وحيد مثل بطل خائب.. بقدر ما آويت إلى نساء وما راكمت من فشل.. وذاكرة خالية من المفاجآت الكبيرة. وما أبعدت عن جيبي من مال. يقدر الغناء دائمًا على توحيد الرايات من كل لون. تعالى صوت بغناء حلو متداخلًا مع النقاشات العالية. مادام هو الغناء فلأنصت لـ" فيروز" و "ليلى مراد" و"سعاد محمد". أعرف صاحبة الصوت وهيئتها الأنثوية المهملة.. تغني بكل جسمها وبين الغناء والغناء تنادي العجائز بأسمائهم وتضحك. ما الذي في هذا المحفل الجماعي الصاخب يجعل منه معملًا ينتج بشرًا غير من التحقوه. دخلته صاحبة الغناء وكل عدتها وجه متحفز وردفان ضامران. وثديان تلبي نداءهما أولًا بأول. ورأس تهتز سائبة فوق عنقها أثناء الكلام. تكتب القصة والشعر وتترجم وتعمل بالصحافة والإخراج المسرحي وتغني في آن.. حتى آلت إليها موهبة الجسد والعقل.. تتحدث عن البلل

الأول كشهادة مبكرة للأنوثة. وتلمح إلى ذلك الفعل الشهير الذي يلهب الفتاة ولا يروق للشبان. قلت هذه فتاة جريئة ولا يمكن أن تحبل.. وما من رفقة يستمد بها المرء عمره في هذه الحياة التي أعتصم فيها بالوحدة. رافقتُها حتى صارت تذم أكل المطاعم. وتتحدث عن روعة إعداد الطعام في البيت وتذكر الأطفال. خشيت إن نحن تواصلنا عبر عدة أطفال أن تجتاحني.. فتظل تحملني وتلدني من جديد حتى تختم على روحي وسوائلي بخاتم أنثوي. يجردني من القدرة على إتمام الرواية.

أشارت لي من مجلسها البعيد خلال غنائها. يشعرني وجودها بأن كل شيء حولي حقيقي وزائف في ذات اللحظة.. أراها فأتذكر فتاة الشونة التي أفشت لي سر خالي وقولها.. كان نفسي دراعي تطلع بأي طريقة.

علت ضجة استعدادًا لدخول كاتب شهير. يتقدم خطوة ثم يقف محاطًا بشباب وفتيات يكلمونه في وقت واحد. يوثقون أنفسهم عبر كلماته بوصفه دليلًا على كمون الموهبة داخل عوام الناس. أحسنت الأجهزة إعداده حتى جعلت منه مؤسسة يهبط بهذا ويرتفع بذاك. نال جوائز كثيرة، وحين يُسأل الرأي في برامج التلفزيون في أمور السياسة والكرة والاقتصاد والتطرف الديني والمرأة والثقافة، فهذا يعني أن لسانين يتكلمان معًا، الدولة والمعارضة.

يحتفظ له "كيرياكوس" بكئوس وأكواب تخصه، ولا يدع خدمته إلى أحد. وحال يضع أمامه كوب الماء المغلي يشد حاجزًا من الأرابيسك دونه والصالة. ما أن منحه الشرب صك الانتماء إلى النوع السائد من المثقفين، حتى صار يكتفي بالأعشاب المغلية. يقال عنه، أمّي الروح.. طابع بريد يعرفه الجميع ولا يتذكرون الرسمة التي عليه.

دخل "مراد" النوبي صحبة فتاة سوداء. وهو مصور وكالة أنباء. قدمني إليها على أنني كاتب روائي. وقدمها لي كملكة جمال سابقة لمدينة نيس الفرنسية. قلت له بالعربية التي خمنتُ أنها تجهلها.. هي نيس عدمت النسوان؟ سألتني:

ـ لك إنتاج إيه؟ قلت

ـ نشرت قصصًا وأتم رواية عنوانها.. "حصان سباق يتصرف كبغل".

سألتني.. بتتكلم عن إيه؟.. قلت.. منه لله "عبد الناصر". كان الأفضل أن يدعنا حفاة وجهلة مش متشعلقين كده! قالت:

ـ مش فاهمة، هل يمكن أن أقرأ منها فصلًا. فأنا أترجم أحيانًا ما يعجبني.

هي سوداء، خضراء العينين ذات شعر مرسل. فرنسية لأب أسباني وأم مغربية. تتكلم الفرنسية والعامية المغربية، لذا لم يمكننا التفاهم، إلّا عبر ترجمات "مراد". لم أكن أتممت ما يمكن قراءته.

فصرت أجلس بالساعات في حديقة الجريدة لأكتب. وهي حديقة رحبة أمام فيلا عتيقة، لسلمها درابزين من الرخام المنحوت، تفتح غرفها على بهو دائري خالٍ إلّا من مكتب الاستعلامات، خلفه لوحة عليها بعض التعليمات وشخص يحمل أوراقًا يعبر بين غرفتين. أشجار الحديقة مائلة، تبدو الواحدة كما لو أنها صُنعت من عدة أشجار ملتصقة. تحتها مناضد قوائمها ملخلخة وكراسي أربطتها مفكوكة، وفوق العشب تتناثر لفائف وأطباق من الورق وعلب سجائر. من قبة الفيلا يطلع مانع للصواعق يشبه صاري السفينة.

رغيفان جرى تسخينهما أولًا مع طبق فول بالصلصة تكفي لأن ترق عظامي وتجيء الأفكار. وتتوالى مع تنفس الهواء المعد أولًا بأول في عروق الخضرة. حتى إذا انقضى النهار تكفّل المطعم المقام فوق السطح ببقية الكتابة. عبر طبق سمك محشو بالفلفل والبصل.. إلى أن أشعر بالامتلاء فأنهض. بخلاف ما يكون في البيت، حيث الإجهاد ونصف الشبع يجعلانني أشف منحلًا إلى عناصري الأولى.. القلم والورق ووجوه البشر.

هي امرأة ثرية تعاني الضجر والخواء اللذين تجلبهما الوفرة. داخل عربتها الفاخرة، تضغط زرًا هنا أو هنا فتنسدل الستائر وتفرد الكراسي حتى تصير العربة سريرًا. أشعر أنني لن أترك صحبتها حيًا. خاصة حين تبتلع وتناولني أقراصًا ما وسيجارة محشوة بالمخدر. تنضو بعدها البنطلون والسترة. أتتبع بيدي في النور القليل صدرها. فتتدحرج كرة

مطاطية بينما الصدر الآخر مكرمش. تتهيأ لي بدلال مصطنع، وتسوي شعرها فيشبك أحد خواتمها في باروكة. تشعر بالضيق حين تقع الباروكة. أظل منتظرًا اللاشيء. إلى أن تضغط زرًا ينسحب معه سقف العربة بنصفين إلى الناحيتين. تبدو السماء جميلة من هذا الصندوق المكيف. فأتناول بنطلوني وأقفز هاربًا.

أعدت قراءة ما كتبته، بدا لي ذهنيًّا خالصًا لا هو حقيقي ولا هو فن.. اجترار لفكرة مستهلكة. ثمة ورقتان أخريان حول طفل ترسله أمه بثلاث بيضات إلى البقال ليبدلها بتلقيمتين من البن والشاي. فسوف يأتي ضيوف لخطبة أخته الكبرى. وفي الطريق أتلكأ لدى بائع يفتح على الأرض شنطة من الخشب يرصص فيها علب الكحل وبودرة الحمام واللبان والأعشاب والتوابل. ومنه إلى الوقوف لدى سندان قصير مدقوق لمن يخيط للأحذية لوزة ونعل جلد طيارة وبالمرة يصبغ الأحذية.

لا بد أنها حالة من وجد الكتابة اشتملتني لأمتدح من رتّق نعلي "طه حسين". ومن خاط جبة "الإمام". واستنسخ لـ "النديم" أوراقه بقلم البوص، حالما يخلع العمة ويقص شعره بجوار حائط الشونة.. وبالمرة أرطب للشيخ "سيد" جوفه لدى بائع عرقسوس. أو عربة جيلاتى مرسوم عليها شمسية وفتاة بلباس البحر، فينثني إلى مقهى يجرب عوده في لحن جديد.

حلت لعنة الأماكن لتذهب بالطفل، وبياعة البطيخ بالخرطه وأقماع العسل، والبوظة البلدي وبمخبر يروح ويجيء.. يتكلف الحديث مع الباعة ويحدثهم متوعدًا.

مزقت هذا الذي لا وجود له. ولا يتجاوز كونه احتفالًا بالبؤس الإنساني كأنه قيمة في ذاته.. كما يترحم على الماضي عجوز مصاب بالحنين. من يمكنه أن يغير فكره بسبب كتابة كهذه. أو يبحث عن صورة منشورة لي ليتأملها بعد أن تحل فيه كلماتي! حييت "شعبان" فقال: مساء الخير يا افندم. كان يبادرني بالمداعبة وكنت أخشى مجاراته في الضحك كي لا يسقط الحاجز بيننا. فأحيانًا كان يمد يده مخرجًا علبة سجائر "مراد" قائلًا.. لا مؤاخذة. أكره الابتذال وتكرار أكلاشيهات المرح التي لا تضحكني.

غادرت الجريدة في ذلك اليوم، أكاد أرى دمائي وهي تنشق إلى عدة مكاييل. كل يوم حدث جديد. مخمضة يضطرب بها العالم، وداخلي لا يستجيب. المعاني تتغير بسرعة ولا تعريف لشيء. رواية واحدة تشبهني هي السبيل إلى خلط هذه المكاييل في العروق من جديد. يصيبني الشراب بحالة من الحياد، التي يشبه فيها كل شيء غيره، ويعمل بديلًا له "اللي زيك ما ينفعش في الصحافة.. هتاكل موهبتك".

"مراد" إذن يراني موهوبًا. أحتاج دائمًا لمن يؤمن بي. "مراد" الضخم، الذي ما أن يرى أحدًا ينظر في ضخامته حتى يبادره.. أبويا

وأمى عملوني عمولة. اللي زيكم شغل سوق. يقال إنه حين تتكلم معك امرأة في شأن شخصي فإنها ترمي إليك بخيط. غير طيب القلب هذا الذي يحترف تقديم العون وتأنس زميلاتنا إلى الحديث معه.

ـ لسه بتخلف يا "مراد".

ـ لسه والله، بس العيال الكبار جم أيام الري بالغمر، والصغيرين أيام الري بالتنقيط. لذلك تلقاهم عدمانين. عاوز والله أوديهم مستشفى يشمموهم شوية أكسجين، ولا يعطوهم شوية جلوكوز.

في الأتوبيس أعطى فتاة جالسة شنطته، فتناولتها مبتسمة. قلت له.. "إيزابيل" دي لو مشيت عندنا في الحتة ما التفت إليها أحد.. حور العين بتوع الجنة هم السبب. قال.. يا أخي ربنا محلّي لكل واحد عيشته.. دي مشيئته. ماتعزمش عليا آجي معاك. أختي زعلانة مع جوزها شوية. الغبي أعطيته قرص يخليه يعمل واجب مع أم العيال مرتين تلاته. قال لي.. مهدئ يعني، لأ يا عم مبحبش المهدئات. طيب أديها زعلانة أما أشوف هيعمل إيه بأه.

علت الضحكات حولنا وهربت البنت بضحكاتها إلى الشباك ـ أضاف ـ عيل فافي بيقول لصاحبه أنا مامي بتلبس البتاع بمية جنيه. قال له.. على كده بتقلعه بكام!

ضج الركاب بالضحك وكست الجدية وجه الفتاة. ما أن نزلنا حتى وقف وتمطى بالشارع صائحًا.. أوديكي فين يا عافية..

"مراد" المرح الذي يمتدحني ويراني خسارة في هذا الجورنال. فأحول مديحه لي إلى دعابة. لست ممن يطيقون الثناء. هو أول من عرفته في بدء التحاقي بالعمل. رأيته مشمر البنطلون والكمين أمام المصلية المحاطة بدرابزين قصير. يقول لـ "عثمان" فرد الأمن والله ما أنا مصلي وراك، أنا الإمام، أنا سبتك إمام امبارح. تقدم وهمَّ به ليرفعه، فثقل عليه "عثمان" المبلل وراح يتفلت من ذراعيه.. أنا بأه اللي هشيلك.. وصارا يتناوبان حمل كل للآخر بكرشيهما وأذرعهما العارية ويضحكان فيراوغان ويتزفلطان إلى أن سقطا معًا على البلاط غارقين في الضحك.

بعد ذاك لم أعد أعرف هل هذا "مراد"، أم هو من رأيت فتاة الكمومبيوتر تخرج من غرفته بهدوء متجهة إلى مكتبها، لتخرج مكواة صغيرة كقبضة اليد وتسخنها. ثم ترفع ذيل الجوب إلى سطح المكتب لتجفف بللًا. وتستدير لتتمكن من مساحة أخرى. ويتصاعد البخار في كل مرة. وإن ظل "مراد" بالنسبة لي وجهًا لا تحتاج إلى وقت كثير كي تألفه وتحبه.

عدت إلى صالة التحرير ممتلئًا بالتفاؤل قبالة تلفزيون يبث بصوت خفيض تومض شاشته بانفجارات. مشاهد تكررت ليس بها ما يضيف لي شيئًا.

توالت صور أطفال التوت أذرعهم إلى جوار أثداء عارية ظهر أحدها مبقورًا. وأذرع سمينة التصقت بها أساور. وثمة أفخاذ ضخمة بها لطع زرقاء تتمدد خارج حطام البيوت. وعيون تنظر بثبات فوقها شعر مترب، وتحتها شفاة ممتلئة تجلطت على جانبيها الدماء.

ثم أعضاء في ماء مخفف بالدم، على مقربة من كشك للصحف تناثرت حوله حوامل الجرائد. ثم صف محلات دُمر صاج واجهاتها. لترسو الكاميرا على مساحة من حديقة حيث أراجيح وزلاجات ملونة إلى جوار حفرة عميقة في قاعها ماء أسود يرتشقها جسم صاروخ. وحوله تناثرت جثث منتفخة البطون.

انفعل صوت المذيع وهو يصف مشهد رتل من دبابات تركض فوق رمل. يعلو الصوت مع انفجار نوافير من اللهب متبوعًا بدوامات سوداء. لدى خنادق تبدو منها خوذات وفوهات بنادق ثم يخرج جندي ويسير إلى أن يركع منحنيًا على بيادة جندي يمضغ لبانة. أصابني دوار لثوان.. أحسست بأن المشهد قد أعد بطريقة رديئة. كانت الغرفة مزدحمة كأنما هي مقهى في حيّ شعبيّ. توافد المحررون والموظفون وأقيم حفل دامع. وقف فيه الجميع يحدقون في صمت.

بقيت في ذهول عند مشهد الجندي الراكع. وشهية موظفي البيت الأبيض التي ازدادت بعد إعلان قرار الحرب. فالمورّد الذي كان يجلب لهم كل يوم عشر فطائر. اضطر مع زيادة الطلب إلى توريد ٢١٠ فطيرة. كانت المذيعة تشرح على خريطة كبيرة مهرجان القتل الذي

يجري في الكرة الأرضية. تتردد بين كلماتها عبارة.. شرق أوسط جديد. خجلت من التفكير بأن الانفجار الواحد يحدث بثلاثة ألوان. في قلبه وهج برتقالي كمنطاد تحيطه أدخنة سوداء وتغلف الاثنين سحابات كثيفة البياض في تشكيل يبدو مقصودًا. معه تتلاشى مساحة من الحياة.

(٢)

قل لي إلى أي النساء تميل أقل لك من أنت. تدور الحياة حول هذه العبارة.. فقط أضيف كلمة (الآن) في وسطها ونهايتها. كنت أوشك على النزول حين سمعت زعيقًا في الشارع، وبعده طرقات عجولة على الباب.

دخلت "إيمان" وهي تردد.. ولاد الكلب. من الدور الثالث رأيت شبابًا يجرون نصف عراة بالسكاكين والسيوف. يشرشب الدم من رأس أحدهم. أغلقت الشباك مع سماع هرولة أقدام على السلم. همست في وجهي.. ملقوش حد ع السطوح. أخرجت من بلوزتها علبة خبأتها وراء كتب المكتبة. وعادت لتتمدد على كنبة الصالة حتى هدأت الضجة. ظلت تتصاعد أقذع الشتائم في فضاء الشارع لاسمها ولاسم شخص لا أعرفه.

كأنها تعرف توالي الأمور، اتجهت إلى الفيديو ووضعت به الشريط الذي كانت خبأته قائلة.. ماصدقو لقو واحدة.. يللا هتعمل بسرعة عشان تنزل شغلك. دخلت لأبحث عن أنبوب مضاد حيوي أحتفظ به لتلك المباغتات، خجلًا من أن أبدو لها شبيهًا بهؤلاء الصيّع. وجدتها واقفة تنظر من وراء الشيش وقد أنزلت ملابسها إلى الركبتين. خلف أذنيها ظهر لي الفرق واضحًا بين لونها الحقيقى وطلاء وجهها

وكأنه مرسوم. وقفت ذبابة على شعرها ثم طارت وعادت إلى كتفها. تشاغلت بالنظر إلى بياض الحائط أمامي.. حطت عليه الذبابة وأخذت ترعش جناحيها. هربت بعيني إلى جاكت معلق على شماعة بطريقة غير متوازنة، إذ يميل بأحد كتفيه. أغمضت عينيا دافعًا بخيالي إلى الذروة. وبتركيزي إلى كفي والذراعين.

مش مهم أنهارده. قالتها وهي تحك قدميها بالأرض وتجرجر بنطلونها باتجاه الكنبة في دلع مصطنع وتتمدد بعريها. بدت وسيمة في إغفاءتها. هكذا كانت زوجتي الثانية. أرتني إحدى قريباتي صورة لها قائلة.. حلوة.. وإيه.. عيّلة أي حاجة ترضيها. كانت من النوع الذي يُعشق عبر صورة. إلى أن تتحرك ملامحها بالتعبير. تعرف أيضًا أن جسمها جميل. تلك التي درست بالجامعة وتعمل بياعة في كشك للملابس المستعملة.. ولم تدرس فن الموت، هذا لا يحتاج إلى دراسة.

جاوزت الأربعين، اكتملت الرواية في عقلي بأكثر من اتجاه ولا أرسو على دلالة واحدة يقينية، هذا غير شحة الوقت. اثنتا عشرة ساعة من العمل أشتري بها أنفاسي التي تتردد في صدري. أموّل بقائي في المدينة وأعمل على استمرار النوع. أنا حتى لا أخدم النوع بأية طريقة. لا أنجز شيئًا، مما يجعلني أنظر إلى علاقات الحب الطويلة والصداقات التي تستمر، وحتى الأفكار الثابتة بإعزاز مهما انطوت على ركائز مرضَية. إذ تخلصتْ جميعها من وطأة المدينة.

أغبط من ينجز رواية جميلة. وكلما التقيت أحدًا من هؤلاء أسأله.. والله برافو عليك.. كيف تكتب؟ أبدو لنفسي كنبي خائب لا يجد القدرة على أن يبلغ العامة ببشارته دفعة واحدة.. ولا حتى أن يطّلع على ما أتى به رسل من قبله. فاليوم متسارع لاهث. أعمل لأرمم شروخ الماضي. وأقضي غرائزي بسرعة. وأجمع تليفونات أستعين بأصحابها في حل مشاكل اليوم. كل لحظة تمحو ما قبلها. لا تراكم إنما كتلة مفتتة من الزمن اسمها سنوات العمر. عملت بنصيحة "مراد" وانتقلت للعمل بوكالة أنباء حيث لا يجري إهدار الطاقة مثلما في جريدة.. لرئيس تحريرها صوت عالٍ. تضفي لهجته الصعيدية على ما يقول نبرة ثقة. كنت قدمت له اقتراحًا بإنشاء جريدة للموتى تباع منفردة بدلًا من صفحة يتهافت الكثيرون على الإعلان بها. جريدة كاملة يمتدح فيها الأحياء موتاهم كما يشاءون. ويستعرض الأثرياء ثرواتهم وتشابك المناصب والمال بين عائلاتهم بما يرضي أمراضهم. قال رئيس التحرير.. جورنال للموتى لن يشتريه أحد. همه عاوزينها صفحة ف جورنال.. لا تنس أن الخليج وحده يشتري منا أربعين ألف نسخة يوميًا. ثم إحنا جاملناك كذا مرة. أنت اللي رفضت تكتب قائمة بقرايبك ف النعي ـ كنت أعرف إلام يلمح هذا الذكي في وجود فتاة الكومبيوتر ـ هذه الصفحة هي التي تدفع لك مرتبك.

بُني البرج الزجاجي للوكالة في موضع الفيللا القديمة. يُبهر الداخل بحوائطه العالية المبطنة برخام أسود بينما بذخ الإضاءة يزن إلى

حد ما قتامة النوافذ الزجاجية التي تسمح بحزم قليلة من ضوء حقيقي. في أول أيامي هنا فكرت بألّا ينبغي الشذوذ عما يفعله الناس. لكنهم لم يكونوا يفعلون أشياء محددة. ولا يعرف حديث العهد بالبناء إلى أي طابق أو غرفة أو لافتة مضاءة ينتمي هذا الوجه أو ذاك.

أمام البُرج مساحة شاسعة ممتدة. إن زارني أبي سوف يتحسر على إهدارها على هذا النحو. وتسهب "أم زمزم" في وصف نظافة بلاطها للجارات. في البدء كنت أتخيل الفيللا القديمة وهي تنهار، لا بتفجير واحد، إنما بعد أن تآكلت شيئًا فشيئًا وتشرخت بما يشبه الانهيارات البطيئة للبشر. لا تُدرك إلّا عند اكتمالها.

يتحاشى الداخل أن ينظر حوله أو يسأل أحدًا معتمدًا على لافتات يلتقطها بطرف عينه. ماضيًا حيث يمتد البلاط اللامع دون نهاية. يظهر ذوو الزي الموحد ليصحبوا أحدهم من دون طلب منه إلى حيث يريد، متى لمحوا ارتباكًا ما. كل زاوية أو التفافة هنا محجوبة عن العيون. عارية لبقع داكنة من ضوء الكاميرات. ومن يمرقون عبر طوابقه الثمانية عشر إلى السلالم الكهربائية أو يسعون بين المصاعد، كأنما صُممت أجسادهم على نمط البناء بالتماعاته ودقة نظامه. تختلط اللغات في ممراته الملتوية وردهات الاستقبال الباذخة. لا زائر يعرف وجه غيره. سكون تام عدا ابتسامة عابرة أو إيماءة اعتذار وكلمة يا فندم. وصوت إغلاق باب.

كل يوم أحتفظ بدهشتي داخلي. هؤلاء الأنيقون يعودون إلى بيوتهم، فيتخابثون ويضحكون وينجبون ويعركون الحياة خارج هذه القلعة الزجاجية. أو بالأدق ينضون عنهم حصار ألواح الزجاج السميكة والدفقات الغزيرة من ضوء مغشوش. والابتسامات المحسوبة ليعودوا إلى سبابهم العادي وخناقات زوجاتهم وشباشبهم المقطوعة وكلامهم الطبيعي لدى وجبة عشاء ساخنة أو بكاء طفل!

كنت أعتدت الطلوع اليومي والنزول لولا أن الزحمة تربكني. أمرّ على مكتب "جاسر" الشاغر فيصيبني الشجن ومشتقاته. للموتى حضورهم الحقيقي عبر أشيائهم العادية. أتذكر الفتى الواقف بشرفة السفينة.. أتخيله سيعود حيث ترش له فتاة القمْرة العطر. هل كان ما يؤديانه تمثيلًا! أحيانًا أقرأ له الفاتحة. لا أعرف لذلك فائدة علاوة على أنه لا يعني شيئًا لي. فهو يعرف أننا موجودون هنا فقط. إنها ما من طريقة أخرى نتذكر بها من نحبهم.. من لم نحسن استقبال إشارتهم المبكرة بقرب الرحيل.

لماذا أريد كتابة رواية أصلًا، العالم لن ينقص شيئًا إن لم أسرد له بعضًا من ملامح الفقر ذي الكبرياء.. حيث الشمس والحارة شرطان لكي يكون هناك شباك في جدار. وحيث القلل وأعواد النعناع ووجوه البنات ضرورات تقتضيها هذه الشبابيك. ضلالات طالما هيجت حنيني إلى أباء ذوي شوارب ضخمة صفرتها الجوزة. وأمهات تفتشن عن الأحزان الشاغرة وتحتلن على الحياة ليمضي منها يوم آخر. فهذا

بناء شاهق ليس به أب ولا أم واحدة ولا شباك أو عود نعناع واحد. لا عينان تراقبان ولا وصاية من أحد على غيره. عن أية فكرة أريد أن أكتب.. حتى أيام السجن كُتبت كثيرًا. هي تجربة بها ما يمكن كتابته فقط كقصص قصيرة.. الأسى الذي قال لي به قائد السجن.. أنا مش عارف مين اللي ساجن التاني بالضبط. وكذا رئيسه الأعلى رتبة الذي صحبني إلى مكتب خالٍ، حيث باح لي بأنني أشبه ابنه الوحيد الذي دهسه ترماي الميرغني حين التفت ليحيي أمه الواقفة في الشرفة، في أول يوم له بالجامعة.. قال لي.. ابقى زورني أنا وأمه بعد ما تخرج.. في الموقفين ظننتها إحدى حيل أمن الدولة في صنع المرشدين.. فلم آخذ كلا منهما على محمل الجد. حتى بلغت العمر الذي يصبح فيه للكلام معنى.

صار لكل فعل أقوم به وقته المحدد سلفًا. أنام لوقت، وحين أتأخر في النزول أضع في كوب الشاي مكعبًا من الثلج، أكثر طعامي لفائف، وغريزتي أتخلص منها بنصف ملابسي بعد ما تحول الجنس إلى نشاط نهاري. وما أكتبه يُحسب بالكلمة. وما أطلبه من أحد تكفيه كلمة أو كلمتان مني أو منه.. هل بهذا الاختزال يمكن أن أكتب عملًا طويلًا، عن حياة تكفيها أقل الكلمات.

خلف حائط الزجاج بالدور العاشر بدت السماء منخفضة. وجبل الماء المذوب في الدخان يرتحل ويتشكل كأطفال لوحات القرون الوسطى.. أو كنساء بدينات، وأحيانًا كحيوانات تتهيأ للقفز. وقفت

منتظرًا أن يتخذ هيئة بندقية، أو رزم بنكنوت.. في الأعالي تبدو سمنة النساء جميلة، على الأرض لا تبدو كذلك.. يا إلهي.. سوف أجن عما قريب.. لا ألحان تنزل من السماء. الأغنيات والألحان يطلعان فقط من الأرض.

كان النيل يعرج طلوعًا ونزولًا بين البيوت، ينساب بالزمن في رخاوة. يبيت على أعتاب البيوت. يخفض له البشر جناح الذل من الجوع والعطش.. فيشير لهم إلى أي جهات الأرض سوف يصلّون هذه المرة.

تلقيت غوثًا للرواية من خبر على شريط التيكرز. "إليزا".. "إليزا كوخ". زوجة ضابط نازي يعمل قائدًا لمعسكر اعتقال أثناء الحرب العالمية. وجدت في الوشم الذي يدقه بعض الأسرى فرصة لانتقاء بعضهم وسلخ الأجزاء الموشومة. لتعمل منها مفارش وأغطية للمصابيح. واحتفظت برؤوسهم المجففة للزينة في غرف الاستقبال. كانت شاركت زوجها قيادة المعسكر بغير صفة رسمية. وحين دخل الحلفاء حوكم زوجها وأعدم. أما هي فكانت حبلى من واحد ممن عاشرتهم من ضباط الرايخ الثالث. فحكم عليها بالمؤبد. وفي عام ١٩٦٧ بلغت ٦١ سنة وهي لا تزال في السجن فشنقت نفسها بملاءة السرير.

ثمة خبر آخر مهم لا أجد له موضعًا في حكاية "إليزا". حول ضرورة تفكيك دول الهامش.. وعزل التجمعات السكنية حول بؤر

وجود الثروات الطبيعية.. ووجوب التخلص من ٥٥ مليونًا من البشر في هذه البؤر فيما سماه الخبر.. مشروع "الشرق الأوسط الجديد". أو وحدانية العالم. ثمة تحد يمثل لي في نسج الموضوعين معًا بلغة الفن مهتديًا بفكرة الليبرالية الجديدة التي أفهمها كثلاثة أمور محددة.. براميل النفط رخيصة الكلفة.. ومبيعات الأسلحة.. واكسسوارات بشرية من أطفال هذه المناطق.. فهي قليلة التكلفة عالية الجودة.. عليَّ أيضًا أن أضيف الوهابية كديانة جديدة.

لأجعل "إليزا كوخ" تصنع أحذية لها من جلود الأسرى. حتى ولو أربك لي هذا شيئًا من نفسي، فأكثر ما تعلمته يعود إلى امرأة.. فلأكن على طبيعتي.. طبيعتي التي أجهلها وأعرفها بالوقت هي أيضًا أثر امرأة.

ربما أهتدي بسيرة "إليزا كوخ" في فهم نوع جديد من الفتيات ابتدأ ظهوره في برج الوكالة. بعد فتاة البار التي تراوح أنوثتها بين تعلم حركات جذب الزبائن وبين اصطياد زوج. بحيث تبدو مفككة توشك أن تتداعى لفرط رقتها. وتبدأ في الغمغمة بمجرد أن تنطرح.. وتظل تشكو قسوة رفيقها حتى تستخرج له الشعور بالمتعة من مكامنها الرجولية الغامضة.. يا خرابي عليك.. شكلك كدة مقطع السمكة وديلها.. إنت كنت فظيع.

وهي تنحدر عادة من سلالة أخرى سبقتها. لفتاة اعتادت صد الرجل بعدما يكون أشبعها ملاحقة وإشارات غزل عبر سلك

التليفون أو الرسائل. حيث تضطرب وتختلط كل المعاني التي تعني امرأة ورجلًا. بعدئذ قد يجيء الزواج أو لا يجيء. لتدعه يمارس طقسه السري وحده. وقد يجرفها معه عبر ذلك الطقس ويجوس بيده بما يرضي خياله. فلا يختلج أو ينطق إلا بعد أن تغمغم له بالثناء على فحولته التي أشعرها بها. كاهنان في معبد سري يتردد الموت في جنباته وتتردد الصلوات.

ها هو جيل ثالث ينحدر عن "إليزا كوخ" يطلع وينزل بين طوابق البناء الزجاجي الشاهق. فتيات قليلات الكلام مهذبات جادات الملامح وأنيقات. لكل إيماءة منهن أو بنسة شعر، سعر يضاف إلى الفاتورة. يفرض وجودهن على الرجل أن يعرف سلفًا ما الذي يريده منها على وجه التحديد. قد لا تكون هي ما يطلبه.. ما يطلبه قد يكون لدى زميلتها.

لا تجذبني تلك الأجيال الثلاثة المتعاقبة. فمن العبث ألا أثق بأنه حين يترك أحد بعضًا من جسمه في غيره، فإنه يتركه مذوبًا في قدر من روحه. حتى ولو كان جماعًا ثقيلًا مثل "إيمان" و"سهام" بعدما استنبتت كل منهما في عقلي بضع خلايا جديدة.

كل عمل أو بيت سكنته بقيت فيه لأجل امرأة، حتى ولو لم يكن في الأمر شهوة. كم ظننت أن ضيقي بفترة التجنيد يرجع إلى قسوة الحياة العسكرية. غير أن حياتي قبلها لم تكن أفضل كثيرًا. ألفت هذه الحياة حين اهتديت إلى عشة من الغاب على الطريق الصحراوي.

مطعم بدائي تقوم عليه امرأة فارعة ملامحها جميلة. بالعشة جركن ماء ووابور موقد دائمًا عليه براد. وقصعة فحم مطفأ عليها أسياخ. وكنبة بلدي عليها حصيرة. وثمة رضيع يحبو تلتفت وتبعده كل حين عن النار. أو نراه حبيسًا في حلة وبيده طمطماية أو لقمة. كنا نزوغ من المعسكر لنأكل لديها البطاطس المسلوق ـ هكذا تنطقها ـ والجبن القريش بالطماطم والشطة. ونراها وهي تتنقل بين أقفاص وقفف مليئة بشرائح الباذنجان.

في نهاية الشهر نتسلم الراتب ونذهب إليها جماعة. وتوقد فحم القصعة وينشط عمل يدها في أسياخ الكفتة بتلك الحركة المثيرة، التي تبقى في خيال المجندين.

لم يحدث أن رأينا لديها رجلًا في زي ملكي. أحيانًا يجيء سائق شاحنة. يلف سيجارة حشيش أو يضع سنة أفيون في فنجان القهوة. ولا يتكلم بغير.. سلامو عليكو يا دفعة. مرة وهو يجلس ومرة وهو يغادر. وقد يضع للرضيع في حجره قطعة فضية.

أراقب نفسي كعنصر مشع يحتفظ بنصف كتلته. أطلع على درج عريض صحبة امرأة جديدة مع كل درجة. هكذا أظل حيًا بعد موتي. لا أن يتم تحنيطي في متحف الذاكرة كأنني كنت مرة واحدة. يمتدحني الجميع، ويثنون على صلاحي وقوة إيماني. بينما لم أكن كذلك أبدًا. تجلس أمي بعد ذلك في ركن الصالة وبيدها جريدة قديمة. هي لا تقرأ ولا تكتب. لكنها تفتحها على صفحة الوفيات فتنتقي صورة شاب أو

فتاة تظل تتأملها وتهز رأسها أسى وتزوم كتمرين إحماء، حتى يطيع لها البكاء وتردد.. يا غدرة شبابك.. يا حزن أمك عليكي. فإن لم تجد صفحة وفيات بالجريدة راحت تردد اسم الجارات.. وتبحث عن الأحزان المنسية في حي البرابرة.. تظل تصفها حتى يطيع لها البكاء. أحيانًا أراها فيؤثر فيّ حزنها وأفكر بالرواية. أجرب المشاعر الحقيقية.. أعيشها بصورة تهددني وتهدد الرواية. كيف سأكتب في المناطق الآمنة من حياة لم تعد آمنة.

في كل مرة أغادر فيها البناء الزجاجي، تغشى عيناي بضوء النهار على الباب وتبدو الوجوه لى ذات ملامح مألوفة. يفوق بذخ الإضاءة في أروقة المبنى، ضوء شوارع وسط البلد الذي يرتعش بالتماعات مسائية. ضوءان مغشوشان يعليان من قدر شعاع نحيل من ضوء النهار يستعرض ألوانه في قطرة ماء فوق زجاج الشباك.

أحيانًا أغادر البناء من بابه الجانبي المخصص لطابقين مستقلين. يعرفني موظفو البوابة بملابسهم المدنية ويريحني تجاهلهم لي يقفون متباعدين ومستعدين دائمًا. وقد يحيطون فجأة بشخص أو يهرعون إلى عربة توقفت، ليشيروا إلى سائقها للمكان الصحيح للوقوف. ثم إلى من يترجّل عنها ليمرروا العصي الكاشفة على جانبيه. بينما تهرع الكلاب لتمد أبوازها وتدور حول العربة. لا أعرف طبيعة هذين الطابقين وما من لافتة أو علامة سوى باب زجاجي ينفتح تلقائيًا لمن يدخل على برودة لافحة وبساط أحمر ممتد.

أتخيل أنابيب ضخمة تشبه مواسير التكييف تمتد في حوائطها المبطنة برخام أخضر. تنزلق عبرها رزم البنكنوت محزمة بالشرائط ومختومة. أتلكأ أحيانًا لأرى عبر انفتاحة الباب ساحة مضاءة وحواجز متجاورة من الزجاج المصنفر خلفها أشباح تتحرك. ثمة ممرات تُرى إلى الجانبين حيث تسود السكينة مثل ممرات المستشفى. بينما صُفحت الحوائط بمربعات معدنية. يلوح أحيانًا عابر عجول في قميص نصف كم وكرافت ثم يختفي.

سأحاول معرفة ما يجري داخل هذه القلعة التي تعمل على تداول كل ما هو خارجها في هدوء. لا بد أن الأمر كذلك. وإلا كيف تنهار بيوت وتنهض أخرى! وتهاجم الذبحة أشخاصًا في منتجعاتهم البعيدة، ويدخل بعضهم السجن ويخرج منه آخرون إلى الحكم. وأي قوانين سترتفع لأجلها الأيدي في البرلمان. وكيف تعمل العصي المكهربة وقنابل الغاز والرصاصات عبر كاتم الصوت. ربما يشرح لي الحراك الهادئ في هذه القلعة كيف تنتقل في صالات المزاد الأباريق والتماثيل الأثرية، أو كيف يجري التخلص من الأجنّة في غرف العمليات ذات الرائحة وتصميم آخر موديل للسيارات أو الطائرات. أتوقع أنه تتم صناعة غابة مؤدبة هنا، تنتقل بها الأكباد والكلاوي صغيرة السن، أو يجري تطوير ميكروب قاتل. ويرسم خط السير لسفن ستشق المحيط محملة بالأسلحة والنفط. قد أفهم أيضًا شروح كلمات الله في المطبوعات اللامعة وأحصي كم لحية سوف تطلق هذا

العام، لتصبح الدولة اثنتين، والاثنتان خمسًا.. وكم امرأة سأتزوجها ومتى أطلق.. بل كم عامًا سأعيش.

إلى جوار هذه القلعة الغامضة تبدو لي حكاية "إليزا" تقليدية.. وأخلاقية. الأفضل أن أبسط الموضوع إلى ملياردير يصاب بالعنّة وينصحه الطبيب أنه إذا انتعل أحذية مصنوعة من جلد البشر سوف تعود إليه ذكورته. يفعل الرجل، لكنه حين يبلى الحذاء يعود إلى العنّة من جديد، فينصحه الطبيب بتغيير جلد الحذاء، مرة يكون أصفر ومرة أسمر لاتيني ثم أسود أفريقي، يجرب كل الأجناس حتى الأوروبي الأبيض.. ويتولى مساعدو الرجل من كتاب ورجال دين إقناع صاحب الجلد المستهدف.

مضت أيام من حماس الكتابة الأولى.. ثم أعادني اليأس إلى قراءة كلاسيكيات الرواية التي ترفع من شأن الإنسان.. ثم إن المرأة غير موجودة تقريبًا في نص كهذا.

في صباي نسيت إحداهن زجاجة عطرها ومبرد أظافرها عندي. لم أكن بطبيعة الحال من اشتريتهما لها. عطر تدوم رائحته وتلتصق الجلد كالهوية. أسود اللون كُتبت على زجاجته بأكثر من لغة.. "رائحة تدوم أبدًا". وعلى الجهة الأخرى.. "ماء البحر يغير من هذه الرائحة".

خطر لي أن أسقط منه قطرة داخل ديوان شعر أحبه. ثم كررت الأمر مع بعض الروايات وقصص الحب الشهيرة والسير الذاتية.

بمرور الوقت صرت أشتري لكل مجموعة عطرًا أميز به الكتب فأستخرج الكتاب بأن أيمم أنفي شطر عطر أعرفه.. بغير أن أنظر.

استبعدت مجلدات فخمة خُدعت عند شرائها بعناوينها التي تعد بإجابات شافية. فإذا بها تمتلئ بأكروبات لغوية تنتهي عند إرادة الغيب. غيب يحرص ساكنوه على التخفي من دون سبب.

اليوم لا يخجلني أن أتذكر صورًا قطعت من مجلة لنساء تعرِضْن فتنتهن لشباب كالأحصنة. وإعلانات لأعضاء مطاطية تشبه نظائرها الطبيعية. ظلت منسية داخل المجلدات لربع قرن.

ثمة مجلدات أربعة أخرى لأغلفتها قماش منشّي. له حافظة خضراء عليها صورة الأب الطيب.. "تشيكوف". لا أتذكر سبب وجود تلك الصورة باهتة الخضار بأحد المجلدات. لسيدة ثلاثينية أنيقة ترشق دبوسًا صغيرًا في ياقة البلوزة. وتبقي سحرها خلف ملامح هادئة. امرأة تخطو نحو الأربعين بوجه راضٍ كمن فرغت لتوها من شئون رجل وعدة أبناء وبنات. تشي الحزوز الناعمة على جانبي عينيها بسيدة ارتوت من دون ابتذال. لا تزال تلتقط إشارات الحب فتسعدها للحظة عابرة.. هي صورة ربما استخدمتها لتعيين الصفحات.

سألتني "فاطمة" ذات يوم.. صورة مين دي؟.. قلت.. لما هتكبري هتبقي زي الست دي. قالت ساخرة يعني أنت هتحتفظ بيها عشان تشوفني لما أكبر.. قشطة ع الاستهبال بتاع الرجالة.

المجلدات تداولتها أيدي كثيرة. والصورة قطعًا ليست لإحدى نساء عائلتي. اللائي تظهر عليهن علامات الاستعداد للتصوير. ولا تنتسب ملامح كهذه إلى جدة يحكون أنه حين تم تشغيل أتوبيس بين عزبة البرابرة والمدينة، صعدت بعد أن خلعت مداسها، فطلب إليها السائق أن تنتعله.

قالت.. أنتو جبتولنا نعمة م السما. حد يدوس على نعمة ربنا بالجزمة!

حين حكيت الواقعة لـ "فاطمة" قالت.. سلالتكم كلها كده.. ما شاء الله. وأخذتها موجة ضحك تشنجت منه ساقاها. وكادت تنزلق من الكنبة إلى الأرض. ضحكنا ضحكًا من ذلك الذي ينبت للمرء جناحين ويطرد الجنس بعيدًا. فالأخير يتوهج عندي بالشجن.. وربما الحزن.

انقضى وقت قبل أن يذهب أثر الضحك.. وجاء غياب وجهها وبحة صوتها من بعيد كخوار ثور يذبح. تهاويت غير قادر على تحريك جفوني، طافيًا على بساط من الماء. كأنما نزعت سدادة عن ثقب بداخل عقلي تنضغط تحته أبخرة وأوجاع تستعصي على اللغة المعروفة. توالت وقائع لا حد فيها بين ما يسمى بالكذب أو الحقيقة.. ومضات أقرب إلى سحر الشراب. ووجه عريض الوجنات عليه بعض من طمأنينة امرأة.. أرى رجلًا وامرأة منطرحين تحت سماء ثقيلة بالماء. يروح

ويجيء على مسافة منهما عراة كثيفو الشعر في الفراغ الساكن. تغوص أقدامهم في أوراق الشجر والماء في لا مبالاة.

أشعر هكذا حين أمتلئ بالرغبة في الكتابة. انداح في الوجود بغير شعور كأنني حزمة ضوء تتبدد في اللاوجود.. أو على الأكثر سمكة تضرب في الماء على راحتها. والويل لي إن لم أتمكن من كتابة ما أشعر به.. حينئذٍ أتخذ الطريق إلى "كيرياكوس". متمنيًا لو كان لي يقين مؤمن لأمكنني في تلك اللحظات، أن أكشف الغيب. وأقرأ رسائل الهواء. مغبطًا من يكتبون أعمدة يومية حلوة. من يكتبون بسهولة التنفس، أو إدرار الثديين للحليب.

استدارت جاذبة الملاءة على عريها القمحي. لو كنت امرأة لن أخفي كنوزي بعد أن أمنحها. بل ولمضيت في الحياة عاريًا أدفع الموت بعيدًا ما أمكن. ليتني كنت أعرف أن أرقص.. كل شيء استهدف عقلي، استهدف جسدي في ذات الوقت وأخذ منه العفوية. في عرس "إنعام" كنت أتنطط وأرقص مع دقات الطبول التي التهبت لدى وصول أقارب وقريبات. وانتشار فواح من فساتينهن الملونة وطرح الشيفون. بينما أخذت الأذرع السمينة تضرب الهواء على وقع الغناء.. يا ما قالوا سمرا. وهي حلاوة حمرا. إلى أن مضى العروسان.

لدى إنزال الأعلام وعقود الأنوار رأيت في الفضاء أسرابًا من ملائكة سمراء ترفرف، لتتبع الموكب.. وتضع في بطن العروس بشارة السماء.

سألت خالي عن الملائكة السود والسمر. صاح.. الملايكة بيبقو بيض يا بني. تعا يا "بركسام" شوفي ابنك، يا سبحان الله عليك، هتكفر بالله من دلوقت. عاوز ملايكة على كيفك، وسود كمان ـ وقف لينظر في وجهي للحظات ـ والله الواد ده قرينه هو اللي بيتكلم ـ التفت مخاطبًا أمي ـ والله الواد ده قرينه عايش في أمريكا.. يا حول الله يا رب.

هل أذكره الآن أم أتخيله يتسلل خلف الكرار المقفول على صفين من طواجن اللبن.

وعبر حديد الشباك ينقل غابة من طاجن إلى طاجن ويشفط بفمه وش الطاجن. في الصباح رأيت أمي والبنات ترددن فرحات أن ربنا أخذ قشطة اللبن ليصنع منها البشارة التي ستضعها الملائكة في بطن العروس.. والله "إنعام" هتجيب بنت ف أول خلفة وهتكون بيضا.. فكرت بأمي التي ستصبح أيضًا بيضاء يباهي بها الله ضمن حوريات الجنة. فهمت أيضًا أبي الذي أسمعه يتوضأ ويدعو في الفجر بخليط من الفصحى والعامية.. يا رب، لماذا ماخلقتنيش غني وقوي.. الكبد مبهدلني.. ليه يا رب لا تحبني!.. الحمد لله على كل حال.

وسط السكينة نهضت "فاطمة" عارية إلى المطبخ وجاءت بالشاي كوبًا فكوبًا. كانت تفيض نشاطًا وحيوية وتقترح ترتيبًا جديدًا لأثاث الشقة القليل.

ـ خايف تكون بتحبني عشان الموضوع ده بس. طيب لو أنا مش جميلة كنت هتحبني برضه!.. على فكرة أنا خمرية مش سمرا زي

ما بتكتب. تلاقيك كما بتقول عليا سودة. قلت ضاحكًا وعبيطة كمان وداخلة النار داخلاها من غير واسطة.. بمجهودك.

قربتها مرة أخرى وأنا أصف ما أود أن أفعله كي أثيرها. مستعينًا بما أعرفه عن جسدها، وارتباطاته الممتعة. كفَّت يدي برفق قائلة.. كل حاجة لازم توصفها بالكلام.. وحياتك تخلص م الكتب الكتير دى قبل ما تجنني معاك.. من يومين كنت باستحمى فضلت أنده بصوت عالي، كذا مرة.. لقيتني بانده على نفسي. يظهر هاتجنن قريب.. ـ أردفت بعد فترة صمت ـ عاوزة مخطوطات قصصك، والقلم الحبر اللى بتكتب به. أنا عارفة الحاجات دى بتبقى عزيزة ع الكاتب.. على فكرة أنا رومانسية.. غيرك خالص.

أصابني الارتباك في تلك اللحظة خشية أن تكون حبلى. جئتها بما طلبته. وبما كتبته من مشاهد للرواية.

عندي كمان مذكرات استنسل لأدباء كبار. لو عايزة مذكرات "عبد العزيز فهمي" و"أحمد عرابي" بخط إيدهم أجيبهم لك بخمسة جنيه من على سور الأزبكية.

قربت حافتي البلوزة فوق صدرها السمين، ثم ميّلت ستارة الشباك قليلًا.. ألحق أنزل، مفيش حد ع السلم. بقت للحظات تنظر من فرجة الستارة القليلة.. تمثال من الرخام لأنثى رومانية ممتلئة قليلًا.. جمال كثيف في كل تفاصيله. لا يوجد تمثال روماني قمحي ولا لامرأة حبلى أو بدينة.

"تحب أصحيك بالتليفون.. فانلتك مش نضيفة.. عندك أكل ف المطبخ يدوب تسخنه.. وده إيه ده كمان".. لم تقل أيًا مما اعتادت قوله. الجسد يقف خلف الروح.. هذا ما كان يقوله "جاسر". جسدي مخدر حتى الفناء. وروحي متوهجة حد الإشعاع، كيف تستقيم المعادلة يا "جاسر"!

من ناحية الشرفة – هي علبة مسورة وملحقة بالمطبخ ـ سمعت زعيق امرأتين كانتا تتبادلان تمريغ بعضيهما. نهضت البدينة وأوسع لها الزحام. رأيت الأنحف تلملم ملابسها وتبحث عن الحذاء فعاجلتها ثالثة بدفعها إلى الأرض من جديد. وعلا صفير الأولاد فصاحت.. "وحياة النبي الغالي اللي هتقرب لأحشي لها زيها مقامها شطة. رأيت ساقين تضربان الهواء مع الصراخ. ثم نهضت منكوشة الشعر تعرج.

انصرف الأولاد في مظاهرة ترفع عصا عليه "كلوت نسائي" بلون النبيذ المنقط بالأصفر كم أحببته.. كانت المحشوة شطة "فاطمة". والأولاد يطيرون قراطيس من الورق الذي معها. ولمحت "أم زمزم" تنظر باتجاه "فاطمة" البعيدة.

يمكنني أن أقول إنني أهبط بمنزلتي كثيرًا بالإقامة هنا، في شقة إسكان شعبي حتى ولو كانت قريبة من وسط البلد. كنت أضحك مع "فاطمة" فأقول.. هنا خط الفقر، ترتعش أسهم البورصة فترمي بي إلى تلك الناحية أو تلك. وأن البشر هنا تماثيل طرية من الداخل لا تضمر شرًا. طالما ظللت لابسًا أخلاق البدو ومظهرًا عدائي للحياة، متواصلًا

معهم بأقل كلمات. كلمتها عن حذاء من جلد البشر وقلت لها أن الرأسمالي سيشفى حين يستعيد ضحاياه القدرة، فالعنّة تصيبهم أيضًا.

قالت.. اكتب ما شئت، إنت أفكارك متقلبة.. يعنى تكره إنك تبقى غني؟

طرق المقدس "صبحي" الباب. ليس هذه المرة لطلب بروة صابون وفردة موسى فقد كان بالبدلة الكاملة وليس بالجلباب. خمنت أنه جاء ليؤاسيني فيما فعلت زوجته والنساء.. قال.. أنا رايح الكنيسة، ما تيجي معايا. قلت.. خمس دقايق وآجي معاك.

جلس صامتًا يتنحنح ويتابع في التليفزيون احتفالًا ما وكلما ظهرت امرأة قال.. داهية تاخد النسوان كلهم. حين استدرت عنه شعرت أنه يتأملني، ويعود بعينيه إلى التليفزيون. أشعر أن ما حدث ليس بعيدًا عن أقدم سكان العمارة.. الشيخ "طلبة" بعد ما أقام من نفسه حارسًا للفضيلة فيما يخص نساء الحي وفتياته. يراني صنوًا له منذ جرب مثلي السجن فبعد أن استغاث أحد الجيران من لص بشقته. هرع إليه الجيران وقيدوه. ثم استدعوا "طلبة" ليفحش بهذا الصيد المقيد لقاء عدم تسليمه للشرطة. غير أن اللص ذهب فيما بعد إلى الشرطة وحرر محضرًا ضده بما حدث. وبعد قضية ومحكمة انتهى الأمر بحبس اللص ٦ شهور وعم "طلبة" ٣ سنوات. كان اللص ابن أخت المقدس "صبحي".

جالست المقدس حتى ينهي الشاي ويتابع مشهد مدينة ما تفرقع في سمائها الألوان. وثمة شباب وفتيات يرقصون في بهجة. شعرت بالإحراج لصمته وصمتي. قلت.. إحنا بس دونًا عن الدنيا كلها معندناش احتفالات زي دي. قال.. النسوان كلها ف نصيبة.. النسوان كلها. وحوّل القناة إلى أخرى.. حيث مذيعة تصف بالإنجليزية مشهدًا لعربات مدمرة وأحدهم بجلباب ولحية ضخمة. مصبوغة بلون الحناء. شاب قوى البنية يمسك آخر أشقر من شعره يعاونه اثنان على تقييده. ثم يجز عنقه بالسكين مع صيحات التكبير وأزيح المشهد بسرعة.

شعرت بالإحراج لا أعرف لِمَ.. قلت.. أنا جاهز، بدا غائبًا وقال كأنما يتم حوارًا في عقله.. ربنا يوفقك، ابقى سلّم على ابوك.

وقف يحدق في صورة على الحائط بها ملائكة يفرون من شيطان أسود له قرنان قصيران. يلاحقهم برمح ذي أسلة ثلاثية. كان هو من أعطاني الصورة. كرهت فرار الملائكة، وأعجبت بمن خوّف كل هؤلاء. لونت الملائكة بأجنحتهم أسود وأصفر وأزرق بحري وأسمر وتركت واحدًا على لونه الأبيض.. كيف تتعرف الملائكة من الفضاء من يحتاجونها على الأرض. إن ملاكًا أسود أو أصفر سيفهم ألمنا بسهولة. من أدراني يا مقدس أن الملائكة البيض ليست شياطين متنكرة.. سألني.. رجعوك الشغل يا بني.. على السلم سألني.. أبوك صحته كويسة؟.. "نورا" اتجوزت ولّا لسه.. كان يسأل وينظر في

وجهي مبتسمًا من دون سبب. في الطريق تراجعت عن فكرة مرافقته إلى الكنيسة. فقد تجاهل صورة علقتها قبل أيام للمسيح وحول رأسه إكليل الشوك كما يبدو دائمًا. لكنه مسيح أسود.. زنجي مثلما يراه الأفارقة ويرسمونه. المسيح في هذه القارة السوداء أسود.. رآها اليوم ولم يعلق.

أتراه يتوقع ما بيني وبين ابنته! هذا الأقصري الذي ينجب بناتًا خمريات جميلات التقاطيع. لا شك أن "إيمان" عرفت بالفضيحة. وسوف تعود إلى زيارتي، فهي تتوقف عن المجيء ما رأتني على صلة بامرأة. قد تمر شهور ولا أراها. وقد تزورني في فترة أخرى يوميًا. كانت ممن يتقوت حضورهن على غياب امرأة أخرى. وكأية امرأة أتذكر أول يوم لي معها.

يومذاك توقعت من النقاط البنية على رقبتها أن طلاء وجهها يحجب نمشًا كثيرًا. متى جلست بدأت في الإشارة بجرأة.. بل نطقت الكلمات الخمس البذيئة بسهولة ذكرتني بـ "أم زمرم". وسألتني.. تعرف أنا نفسي في إيه أنهارده؟ قلت.. ف إيه؟ قالت.. نفسي مصر تغلب السنغال ف الماتش.

ـ وإن اتغلبنا هيجرى إيه يعني؟

ـ وحياة أمك!

لم أسغ هذا الاجتراء. وفي حين استدارت لتتطلع إلى عبارات الحائط، كنت أنظر إلى ردفين أعرفهما دفتر توقيع لمن عرفتهم في الحي. توقفتْ عند الصورة الظلية الشهيرة لـ "جيفارا".. سألتني عمن يكون. ثم قالت.. فيه واحد قريبي اسمه "جيفارا" بس من غير دقن. والكتاب ده إيه!.. "مدخل إلى نظرية المعرفة"! وانت هتدخل إمتى بأه يا مان!.. علام إيه اللى يلزمه الكتب دي كلها. جاي لك إيه من تضييع فلوسك وصحتك على حكاية الطهارة والنجاسة والكلام ده. والله ما أنا عارفة ربنا هيبت ف أمركم إزاي!

رفعت إلى وجهها بكتيب "المومس العمياء.. قصيدة" عليه صورة للشاعر. أعادتها قائلة.. الكاتب ده صاحبكم، وهي دي كمان بيتعمل فيها شعر. "إنعام" قالت لاختي إنك بتعرف تكتب شعر. وف الجامعة كمان.. ما شاء الله عليك.

مرت دقائق التواطؤ الصامت إلى أن جاءني صوتها من غرفة المكتبة.

ـ يللا بسرعة عشان عاوزة انزل. هجيلك تاني. وربنا هجيلك واخليك تعمل كل اللي بتحبه.

لم أكن ألححت عليها في المجيء. ولا هي تعرف ماذا أحب. لكنها ظلت تجيء حتى اعتدت الجنس كنشاط نهاري لا شجن فيه. جنس الهارب، أقف فيه مشدودًا بكاملي وثلاثة أرباع ملابسي مرتداة. يقظًا لصوت أي قدمين على السلم. مصدقًا أنّاتها على أنها بجد. إلى أن تفوح

خصلاتها الشقراء برائحة البودرة التي يضعها الحلاقون. تستدير وتضحك بخلاعة في لحظات تبدأ وتنتهي كالسرقة. أنحلّ بعدها في همود كئيب كإحساس الخمر المغشوشة. تصورت أن حرجًا ما سيصيبها عند ذكر المال. مفكرًا في كل مرة بوقف هذه الصلة. ما أن تجيء أقول لنفسى.. أهي أي حاجة والسلام. أقول لها بعد ذلك أنني سأنام. قبل أن تطلب مني الجلوس وأن أضع ذراعي حول كتفيها، قائلة.. أصل أنا غيرك.. أنا رومانسية شوية وده عيبي.

"بعد السادسة" يصلح عنوان قصة أو مسرحية، بأكثر مما يصلح اسمًا لبار نصف مضاء. يمنح الداخل إحساس الولوج إلى كهف. هذه المرة كانت الصالة شبه خالية بسبب الانهيار الاقتصادى العظيم. وصوت "سيلين ديون" يهمس في فضائها للا أحد. والعاملات عند الكونتر تبدين أكثر من حقيقتهن بوقوفهن بلا عمل.

كنت بعت أشيائي الحميمة واحدًا فواحدًا. خاتم حريمي نسيته زوجتي، ثم الكاميرا، وساعة ثمينة ماركتها قديمة، ولأحدهم أعطيت شنطة غالية من الجلد متوقعًا أن يسألني عن ثمنها. أو يصمم على إعطائي مبلغًا. احتفظت بقلم من الذهب. لا أحب السلف ولا القروض ولا الشكك أو الأقساط ولا حتى الإيجار الشهري.

على قدم المكان، لم يعد "أفتر سيكس" يحمل الكثير مما تشير إليه لافتة باهتة ملقاة في آخر الصالة مشققة الطلاء كانت معلقة على واجهته، عليها لوجو المحل "ever say no".

ظل باب الصالة يتأرجح إلى الجهتين وتعالت ضجة أصوات أجنبية ثم دخلت دفعة من الشباب غزيري الشعور معهم شقراوات، اثنتان كانتا ترتديان استرتشات متربة. شعورهن ملمومة تحت إيشاربات بها أعواد خشبية مرشوقة. تبدين كالعائدات من تدريب.

لا يبهرني الخواجات عادة. لكن أنثى كهذه أمر آخر. إذ انفجر صوتها المنقوع في الخمر والغضب بشجن لا أفهم لغته.. يعلو ويعلو ويلمس القلب بغير عناء. ويرتعش شعرها ويوشك على السقوط من مشط خشبي كالكف.. صوت يمكنه أن يشق الحائط بسهولة.

أصيب الجميع بالشلل فتقدّمتْ إلى منتصف الصالة. دقت كعبيها بتوالٍ سريع، وغابت ملامحها، ثم تفتحت مع دوران تنورتها الواسعة كمروحة. رأيت من قبل كأس زهرة يتفتح بغواية اللون والرائحة قبل أن يطبق على الصيد. أما أن يتفتح ليطلق دفعات من الغضب في كل اتجاه.

أبدًا لا تغفل أنثى عن نظرات رجل. مدت أصابعها كأم تشجع طفلًا يخطو. خجلت أن أمد يدي ليديها المبسوطتين من غير أن تتوقف عن الغناء ولا توقفت ارتجافات صدرها. فهمت أنها قادمة من بلاد تُعبد فيها النساء، تشكو بالغناء أنه لم تتم عبادتها بعد. قلت بصوت خفيض بالإنجليزية.. أنت جميلة. قالت.. "سانكس موف ويز ميوزيك".

أمسكتْ بأطراف أصابعي كرجلين في عرس مصري. وأخذت تدور وتدبدب.. "موف سلولي".. "لت يور بودي".. عيني على وجهها المحترق كمن سارت في الشمس طويلًا حتى تحمص النمش فوق خديها وشممت رائحة جسد.. ليس عطرًا إنما رائحة أنثى. وفجأة توقفتْ عن الغناء وضربتْ الهواء بذراعيها مرات وكأنما حشيت حنجرتها بالبارود المطحون.. انطلق سبابها مع ضحكات رفاقها البعيدين.

غادرت المكان وصوتها يزعق بإنجليزية واضحة.

ـ بلاك تشارج.. لايك يو.. فاكنج أويل.

وددت لو أعود وأُظهر أي غضب. لكنني لم أكن غاضبًا. ربما لن يصدقني أحد إن قلت إنني لم أكن أدري بانتصابي. كنت مثل صبي نصف نائم يتجه إلى الحمام. ولا يفهم سر ضحكات أهل البيت وهم ينظرون ناحيته. ظل وجهها ماثلًا لي، يصرخ بغضب.

أشرتُ لتاكسي وطلبت من السائق أن يسرع.. قال.. أكيد ورا سيادتك ميعاد مهم.. قلت.. أيوه. حاول أن يمضي في الحوار فلم أتجاوب. توقف عند إحدى الإشارات.. قال.. هنلحق الميعاد بإذن الله.. تأخد قرص يهديك شوية.. معايا ترامادول ولا مؤاخذة. فلم أجبه.

كان عجوز أنيق ينزل على سلم الترماي بحرص مادًّا يده في الهواء لمن يعينه. صعدت إليه فتاة في زى المدرسة الأزرق. عبرت به الطريق بينما يتمتم. ويصنع بكوعه تلك الملامسات التي تحرك خيال الصغيرات. عادت البنت إلى اثنتين تنتظرانها بذات الزي المدرسي.

تدل الفراشات على نفسها بألوانها وتستخف بالمصير. هي أيضًا استعدت لأصابع من يحاول أن يمسكها، فلا تترك عليها غير الدقيق. استدارت الفتيات إلى فاترينة ملابس نسائية على مانيكانات عارية.. أنصتُ إلى ما يقلنه.

ـ أنا اشتريت طاقمين زي دول. اخترتهم خلاص. كده يبقى عندي كل الألوان.

ـ الأحمر المنقط ده بينزل لوحده. بسقفة واحدة يفك الرباط، سقفتين ينزل. رشا خطيبها جايب لها زيه.

ـ وهي لسه اتخطبت، ده يدوب متكلم، انطقي يا بت مش كده!

أخيرًا عبرن الشارع ممسكات بأيدي بعضهن بطريقة استعراضية. ثم تحلقن بالرؤوس وفتاة الترماي تريهن شيئًا. لم أصدق أنها سرقت الرجل العجوز. غير أن السائق قال ذلك ضاحكًا. كانت أسراب الناس ابتدأت زحفها إلى وسط البلد. حيث اندلع وميض النيون. وابتدأت العيون تحدق بغلمة في كل ما يشبه الأنثى. مع مخالسات الأيدي وكل ما يلخص الرسائل المحكمة للمال.. خطر لى إنسان

الكهف الخائف من صورته في الماء. وهو يقرفص قريبًا من الكهف يسن السكين في هدوء.. نفس الأسلاف يحلّون لحمًا ودمًا في ثياب أنيقة. لا.. هذه صورة مفتعلة. أدعي البراءة لأبرر تخلفي عن فهم الحياة.. لأبرر عزلتي.

أمام التاكسي كانت تندفع شاحنة صغيرة محملة بحزم من أسياخ حديد البناء. شعرت بدوخة مفاجئة حدثت لي من قبل متخيلًا الشاحنة وقد أبطأت. لتخترق الأسياخ وجهي وصدري.. هدّي شوية وحياتك. قال السائق بضيق.. إنت عاوز إيه بالظبط يا أستاذ؟

لو كان سيفهمني لحكيت له حكاية أحذية من جلد البشر. وسألته عمن ستقبل بصحبتي عند نهاية الدرج حيث لن تصبح للجسد كلمة. حين أمتلك أسباب الحياة الرخية من دون الحياة ذاتها. أريد أن أتكلم مع أحد.. عن الجسد، ذلك النتاج المركز لعقود وأحقاب من كدّ الطبيعة وتجريبها لينتهي أخيرًا عند أرحام مضبوطة الارتعاشات على أسهم البورصة. سيرثي لي الرجل ويقول.. ممكن أعطيك شريط بنص الثمن. ربنا يتولانا برحمته. لو أمكنني سأبسط له فكرة الرأسمالية التي تضخ النور من داخل لحم وعظم الإنسان، إلى أن ينطفئ شيئًا فشيئًا، لا أذكر ما الذي قلته، لكنه قال..

ـ كله ف الكليتش.. الباشا بيشتغل إيه؟

ـ كاتب.. كاتب روائي

ـ يعنى بتأفلم ولا تبع مسلسلات سبعة وربع؟ عجبني فريد شوقي وهو بيكوم أورطة شحايط فوق بعض. طبعًا.. لازم الحق ينتصر.. ربنا ذاته اللي قال كده مش أنا ولا مؤاخذة. وبعدين هم اللى واخدينها عافية. لو عافية كان الطور استحق لقب باشا.. كده ولا أنا غلطان. مراتي عاجبها المسلسل أوى.. عارف ليه.. عشان فيفي عبده. قلت لها دي اتحجبت. قالت لي معقول.. قلت لها أيوه.. لبست كلوت. ها ها ها.. فُكها يا أستاذ هتفرج. الأيام الزفت هتفوت.. إشمعنى الأيام الحلوة بتفوت.

ناولني قبل نزولي ورقة مطبوع فيها ما ظننته بعض الأدعية.. كانت.. "من المعروف أن الكبد مكون من عدة فصوص. يمكنك بيع واحد منها بمئة ألف جنيه ومواصلة حياتك. كذلك يمكن أن يعيش الإنسان بكلى واحدة.. اتصل برقم كذا".

عندما خطوت من شارع جانبي إلى نهر الطريق شممت فواح عطر. في أوروبا يرشون العطر بمروحيات تجوب سماء المدن. تقودها نساء في زي الطيارين فتظل الميادين فواحة بالعطر. ومتى انتهين من وردية العمل. تعدن إلى بث الحياة ورعايتها. لا أصدق أخبار التيكرز إبان الانتخابات التي تذكر أن النساء تمنحن أصواتهن لمن يبيح الإجهاض ويعد بتخفيف الضرائب.

على أبواب المحلات كانت الفتيات تضحكن للمباغتة. فتقمن بتثبيت الجوب فوق الفخذين ضد هبّات هواء تندفع من الدواسات.

"إيمان" لم تكن لتؤثر فيها مداعبة كتلك. "إيزابيل" ستضحك ولن تفعل شيئًا. ستشتمهم زوجتي الأولى وتقسم على عدم دخول المحل مرة أخرى. وفي اليوم التالي ستتحدث مع معارفها عما كان وتعيد السباب. فتيات المدارس سوف تدخلن وتخرجن عدة مرات جاعلات منها تسلية.

من الحيطان كانت تبرز كبائن ماكينات الفيزا كارد. بحراسة جنود صغار السن. بعد أن يخرج العميل برأسه يسألونه سيجارة أو عشرة قروش بنبرة غير مدربة. نشاز ينتؤ من العمائر القديمة مثل اهتمام ساكني أحد الأدوار بدهان شقتهم والشرفة بلون مغاير. كان "جاسر" يقول.. سكنى العمائر القديمة تطيل العمر والجديدة تقصره.

بقرب الميدان بدا الشارع مسدودًا بصفوف من لابسي الأسود معهم الدروع والعصيّ.. خلفهم عشرات من الشباب والفتيات. بعضهم يرفع يده بلافتات في حجم غلاف كشكول. قلت لنفسي جاءوا يتظاهرون لأنفسهم. ثم يتلقون ضربات العصيّ المكهربة ويعودون.. فالناس في وادٍ وهم في وادٍ.

راحت فتاتان منهم تتحدثان بطريقة ودية مع أحد الضباط. ما أن استدار عنهما حتى ناولتا الجنود لفائف. كانوا ينظرون ناحية رؤسائهم ويفضونها في تردد. وانصرف الرؤساء إلى توجيه سائقي العربات والمارة إلى طرق أخرى. تعالت هتافات المحتجين بجمل عفوية لا سجع فيها. حتى الشعارات كُتبت بلغة عامية. لا غضب أو صراخ أو

لافتات أنيقة.. ثم أخذت فتاة تهتف من فوق كتفي أحدهم وتبتسم. هي أخف وأقصر قليلًا من "إيزابيل". بينما زملاؤها يرددون خلفها ويفردون لافتة مطبوعة. ارتفعت عصي عليها دُمى ملطخة بالأحمر لـ "بوش" و"شارون". بعد قليل أوسعوا لحرقها مع أعلام أمريكا وإسرائيل. وحين بدأ الهتاف ضد "مبارك" وتمزيق دمية تمثله حتى دبدب الجنود مرات وانهالوا عليهم بالعصي. لحظات وظهرت نساء بدينات.. بدا أنهن تعرفن ما ستفعلنه. أمسكت إحداهن بشعر الفتاة النحيفة التي تهتف. ومزقت زميلتها بلوزتها وجذبت بنطلونها. ضربت الفتاة بيديها وساقيها ثم أخذت تتكور وتداري عريها مثل "فاطمة" وهي تقاوم حشوها بالشطة.

لو أنني كبير هؤلاء لتركتهم يهتفون ويمارسون اللاجدوى.. لن يتغير شيء.

قليلًا.. وانهمرت زخات الخرز المطاطي. وأخذت فتاة سمينة تحمي رأسها من ركل الأحذية. بينما تحاول إحدى المهاجمات جذب بنطلونها.

رأيت مسارات الدماء تنزلق بطيئة من أنفها إلى كتفها إلى الأسفلت. وفتاة تشبه زوجتي الأولى تبكي في وجه ضابط قوي البنيان وتضربه باليدين في صدره. لو أن طليقتي فعلت هذا معي لصار الموقف جنسيًّا خالصًا. هرع الجمع موسعًا لعربة إسعاف. دفعت

الأيدي بأحدهم، وتبعه قفزًا اثنان في لباس مدني وانطلقت ببابيها مفتوحين يتأرجحان.

حين ذهب "جاسر" قال "مراد".. الموتى يشعرون بنا. أتراه الآن يفزع لحركة الهواء قبل أن تركل البيادة رأسه. أو تُشنج عضلاته الكهرْباء الخفيفة في موجات السديم! أم أن هذه الفظائع أرضية فقط.. من يدري. الشتائم لا مجال لها في حضرة السيد الإله. لدى السادة الصغار من الضباط فقط. عرضت علينا المحررة العلمية فيلمًا قصيرًا لجراحة تجري داخل جمجمة. نشرها الجراح في البدء بمنشار يشبه مبرد أظافر. وطرطشت سوائل حمراء وصفراء. طرطشت الدناءات والنبالات والأفكار.. غادرت مخازنها في الأنابيب الدقيقة. ثبتت الكاميرا عند كتلة من أنسجة رمادية. لو أن هذا المريض مؤمن لذوبت هنا العقيدة أيضًا.

في اللقطة الأخيرة، جلس المريض مبتسمًا على كرسي مضمد الرأس، تدفعه ممرضة شقراء طويلة. أو يمكن للجراح أن يصب من قواريره وأنابيبه في دماغ مفتوح ليعيده شخص غير الذي كان!

أسير ورأسي لفوق مثل كل الناس. في طفولتي تمنيت لو أسير فوق وسادة من الهواء. أسرع، وأطلع وأنزل وأناور فزاعات من العصيّ وأكياس القش في جلباب. تتحاشاها العصافير التي تحترف الطيران. كبرت ولا تزال الفزاعات تملأ الحياة. الزواج والأبناء فزاعة. الراتب الشهري والخصومات المتكررة فزاعة. أن أصحو كل يوم في

الصباح فزاعة. جيران الحي فزاعة. العاطفة القوية فزاعة. الحبس في مكان ضيق فزاعة. سقوط الأب مريضًا فزاعة كبرى. الدين ولقاء الله فزاعة.. أين لي باطمئنان أمي حين قال أبي يوم "إنعام".. قريت فاتحتها واتفقت، ومفيش معايا جنيه واحد.. أجوزها بالحرام.. أبدأ أول فرحة ليا بالحرام. أعمل إيه ولسه عندي تلات بنات وولد نفسي ياخد الكلية. ردت أمي بهدوء وهي تقلب الشاي.. ما ضاقت إلّا ما فرجت.. أكم! هل كانت "إيزابيل" ستخجل من تعريتها في الشارع. أم تبطل لرجال الأمن سلاحهم، وتنازل البلطجية والعاهرات ذراعًا بذراع غير عابئة برجرجة ردفيها.

في المساء كان التليفزيون يعرض فورات النيران وانفجارات متوالية لقذائف تجيء من البحر والسماء. لم أعد أنفعل لما أراه.. أتابع فقط أحيانًا لأجل العمل أو بحكم العادة. عملت قهوة.. القهوة التركي تجعلني عادة أنام بسرعة. إلى أن أنام رحت أفتش عن امرأة بين المقاتلين الذين تتناثر جثثهم.. ذكور مطلقو اللحى.. سيان أن يكون هذا في غزة أو في غيرها. عندي يقين أن مقاومة كهذه لن يكتب لها الفلاح. فالنساء تركضن فقط مذعورات تحملن صغارًا ونادرًا ما يظهر وجه واحدة. كلهن منتقبات. أحيانًا يظهر رجال بنصف ملابسهم يحملون أطفالًا إلى خصورهم. لن أقول أو أكتب كلامًا كهذا وإلّا تم رجْمي على الأقل بالكلمات. مشاهد صارت من مفردات اليوم. سأحظى بالتقدير إن احتشدت لها بكلمات نارية لأعد ثوريًّا.

أدخنة بيضاء تخترقها أعمدة من النار بين عمائر تنهار. وأسهم من النار تمرق من جهة البحر أو تنزل من السماء. وجبال من النار تزحف كأنما لها إرادة، وتتعقب من يركضون قبل إتمام الهرب. وعدسة كاميرا تركض مع نساء منتقبات.. وترسو عند بشر انتهى أمرهم.

حياة يجري ابتلاعها أولًا بأول. ما من شيء أنتمي إليه في هذه الخِراب سواي. مشاهد تضاف إلى مخزون ذاكرة مُثقلة بمذابح قانا وشاتيلا. وإلى بشر يهرولون مشتعلين قبل أن يسقطوا كتلًا سوداء تبخرت منها السوائل. ومن بقت فيهم السوائل تقاطعت أرجلهم في الأزقة وانتفخت جثثهم داخل ملابس ملونة بياقات كبيرة على موضة الثمانينات. لصق حوائط مغربلة بالرصاص.

حياة، موت، بنكنوت، قذائف، أسهم بورصة.. نفط. يا إلهي، كلمات كثيرة رديئة التوصيل، كيف سأكتب بهذه اللغة الخشبية نصًا حيًا؟.. ولأفرض أنني سوف أصبح مؤمنًا مثلما قال أحدهم لأبي، كيف سأؤمن عبر لغة فاترة كهذه وأصوات لا تقول شيئًا!

لتبحث لك يا ساكن الأعالي عن مشترٍ أو مستأجر لنجوم الفضاء، بأعلى سعر. أو فأبحث لك عن مُتكأ جديد، غير تلك الأعالي الملوثة بأقمار مصنوعة. بعدما خلت من الملائكة. مُتكأ لا تزاحمك فيه ذبذبات الرادار والموجات القصيرة والأكاذيب الموجهة عن بعد.

لتأخذ معك حورك البيضاوات وملائكتك بأجنحتهم المحترقة إلى بقعة غير ملعونة من هذا الفضاء. فما من ملاك تبعث به ليرف هنا

يعود سالـمًا. سنعيده لك مع بشارته مولعًا بالملائكة الأحدث سنًّا. سنكثر علفه حتى يصبح ذا كرش ومؤخرة. ونعيده طاغية ذا شارب ضخم.

أو رجل دين شرس مولع بالجلد بالكرباج. سنعيده لك مدربًا على ترك بشاراته ملفوفة في خرقات بجوار أكوام القمامة أو تحت الكباري. ثم نغمسه لك في النفط حتى يذيب منه الضمير. ليلحق بملائكة أشرار موكلين بصنع الجوعى والمشردين. بالنسبة لي لا رغبة عندي في خمرٍ لا تسكر.. فأنا لا أحب العصير. يعفي من ممارسة مسئولياته بالقسم. ويوقف مرتبه لحين انتهاء التحقيق.. توقيع وختم.

لم يكن لي أن أكرر فشلًا ثالثًا بفتاة الكومبيوتر. أعرف ما هي الطبقة المتوسطة. هي التي لا يتغير صوت البنت فيها كأنما هي عدة فتيات. تجاوز فيها الخامسة والثلاثين من غير أن تصبح أمًّا إلا حين تريد. تقتصد في عباراتها الدينية مثلما تقتصد في مواطن الامتلاء فيها. لا ترى في الدنيا حبًا إنما رغبة. وتمكنني من تذوق عسلها الحمضي الذي بطعم النبيذ. تعرف لكل فعل اسمه الكتبي. وتتم خطبتها الرابعة لرئيس التحرير فيساعدها في الحصول على عضوية النقابة لقاء أن يحقنها بميوله الخليجية. وحين أكلمها عن الحياة تقول قولة "إيزابيل".. سي لافي.. بارعة ترضي خطيبها والإله والناس والعمل والفلوس بغير تعقيدات. لا أمس لديها ولا غد.

أغبط من يحتفظون بألبوم يكتظ بالصور. يدار فيه مفتاح الزنبرك وتتوالى الموسيقى مع نضارة الوجوه والشعور الكثيفة والملابس المزركشة. لا ذخيرة لي كهذه منذ قنعت بالحضور في الزمن عبر أحشاء النساء. والقليل من الصور في مظروف ميري أصفر بُريت حوافه حتى لتكاد تنفصل قطعه الثلاث. وصورتان في جيب جاكت كاروه قديم من الصوف بهت خضاره. منها واحدة ملونة لي مع "إيزابيل" تذكرني بقولها.. هناك ثلاثة أرباع حب ونصف حب وثلث حب. وأن هناك ثلاثة أرباع أنثى ونصف أنثى وصولًا إلى زيجتيّ السابقتين، أذكر لهاتين الزيجتين ما لم تسجله الكاميرا. في صورة أقف إلى جوار فتاة سمينة صبت إحداهن على وجهها طبقة من الطلاء الأبيض. وفي الثانية أقف بمواجهة عروس رشيقة استعدت للتصوير بابتسامة تظهر لثتيها. تمسك بيدي عاليًا كأنها نرقص. أنظر بعيدًا لأوحي أن الصورة التقطت في غفلة مني. تمسك كلتاهما بباقة من الورود البلاستك يستخدمها المصور.

في درج المكتبة بعض عملات أُلغيت. مع ثلاث صور. واحدة مقوسة لطفل يصفق ويتنطط في عرس وأخرى لمجند مع رفاقه حول ضابط كبير السن لا يتناسب ورتبته الصغيرة. ثمة ماض قريب تلخصه صورة حديثة كصور البطاقة. أقف فيها ممسكًا إلى صدري بمستطيل عليه رقمي كسجين. رقم لم أحفظه أبدًا. أصابها شرخ لرداءة الورق. لا أعرف أين اختفت صورة باهتة لجمع من الأقارب لا أتذكر

أغلبهم. يقف فيها خالي في الصدارة حاجبًا نصفي. ليكون إلى جوار سيدة جميلة. أتذكر فقط أنها كلما جاءت لزيارتنا، تحلّقت البنات حولها. وعاملها الجميع بتوقير زائد. لا أعرف قرابتها لنا على وجه التحديد.

رفعت صوت التليفزيون لدى رؤية الكاتب أمّي الروح، يحلل أحداث الساعة.. ويهاجم بعض رجال الدولة ويصف خصومه بخصوم التنوير.. أشار أيضًا إلى موهبته التي لا تجعله يقرأ لغيره. وكيف يكتب ثلاث روايات في وقت واحد. مع بعض المديح المكرر لرائحة حبر المطابع وملمس الورق. لا أعرف ما الذي يجعلني أنتبه له.. هل لأني أراه وأعرفه!.. فما ينطق به قد يقول غيره بعد أيام وفق حسابات يجريها ساعة بساعة.. وطني حدود جلدي.. عنوان مناسب لما يقوله دائمًا.. آه يا عجزي.. أنا أبرّئ نفسي بكلمات كهذه.. إنه ينتمي، وأنا لا أنتمي إلى شيء.

حياتي مثل أحداث فيلم اشتهر هذه الأيام حول غرق سفينة.. أقف أمام خيارات أبطاله. إما أن أكون مثل العاشقين "جاك" و "روز"، يقاتلان معًا لأجل الحب والاستمرار في الحياة.. لكن حياتي تخلو من "روز". وإما أن أكون مثل عازفي السفينة الذين ظلوا يعزفون الكمان وهم يرونها تغرق، والركاب منصرفون عنهم يهرولون طلوعًا ونزولًا وقفزًا إلى الماء. أو أن أسلك مثل قسيس السفينة الذي يتلو

دعاء يا مريم العذراء الممتلئة بالنعم. عاقدًا صلحًا مع الموت القادم لا محالة.. ويهيئ الآخرين له في رضى كامل.

أعجبني "جاك"، لولا أنني أحيا مضطرًا إلى كل فعل. مندوهًا إلى حرية لا أبلغها. فحتى الأنوثة إلهام تصنعه كثرة الرجال، ولا وحدانية فيها. "جاك" لم يسأل "روز" عمن مسوها بمائهم قبله. لم أعرف بماذا أطمئن "إيزابيل" حين سألتني.

ـ هل يمكنك أن تحب أكثر من واحدة في وقت واحد؟.. هل سمنت قليلًا.. كثرة الجنس تجعل المرأة أكثر جمالًا.. أرجوك.. حين لا تعود تشعر بي، لا تقل لي أحبك.. لا تقلها مضطرًا.

هل أكاشفها بأنني لا أحتمل أحدًا في مجالي أثناء الكتابة!.. وبأنني لأجل إتمام الرواية أقبل بخسارة ثديين ظاهري النمش. يرتعشان مع أهون حركة.. كم تمنيت ذلك الفعل الطفولي معهما. وكذا فخذين يبدوان نحيفين فقط حين تكون "إيزابيل" بملابسها. ألن يصيبهما عطب بعدما صار الثديان والرحم موطن السرطان في الجسد المعاصر؟

ـ تذكر أنني لست أمك.. تنسى أن لي ما أحبه أنا أيضًا. تحب ألبس لك حجاب؟

ـ لا.. تعالي من دون قطعتيك الحميمتين. أريد أن يراك الآخرون في الطريق ووحدي أعرف سرّك.

إنهما وضوحها وخلوها من المكر ما جعلاني أكاشفها. حكتْ لي عن أسوأ ما يحدث لطفلة من كاهن كنيسة. بألفاظ باردة لا فجيعة فيها. وحكيت لها عن جارة كتعاء والبناية المهجورة، ولعبها فوق السطوح الذي كان يتوقف لدى سماع دبيب حذاء خالي قادمًا في ملابس جندي. يشتم ويزعق ليصرفهن بعيدًا عن غرفته فوق السطوح. ثم يكلم أحدًا من خلف الباب وهي معه.. باتوضا ونازل الحق صلاة العصر ف الجامع.

كانت "إيزابيل" واقفة بنصف ملابسها مبللة لا تزال. تحكم لف الحجاب بالدبابيس في المرآة بوجه جاد. عدا هذه الاستقامة في الظهر وذراعيها المرفوعتين، فهي أمنا حواء التي تحن إليها ذكور القردة. بوجه هجين يشبه من كانت تجلس إلى جواري على مقعد المدرسة. أوقن بأن الريح قطعت المسافات لتطبعه لي من جديد. بعد ما رشقته ببعض حبوب اللقاح البنية المزغّبة. لا يروقني الجمال الذي تسوقه الكاتالوجات وبرامج الجنس.. فهو لا يشبه "إيزابيل". أتمنى لو كنت مؤمنًا حقيقيًّا مطمئن النفس، فلا تجعلني هذه المرأة السمراء وتر عود يضطرب بلمسة واحدة. تلهبني صورتي في المرآة وأنا أقبض على خصرها. بينما تلتفت وتزيح شعرها المتهدل من تحت الحجاب.. أوه.. الجنس العربي oh, le sexe arabe

ـ هل هناك جنس عربي وآخر أمريكي!

ـ عاوزه أحس أني بيتش.. قلت لها مازحًا بفرنسية ضعيفة.

ـ كلبة.. مينفعش قطة.

نظرتْ لي بلوم، وارتبكتُ قليلًا لاضطراري للحديث بالفرنسية. ممتنًا للغة العربية التي تقصد المرأة فقط بكلمة بيتش. كان عسيرًا على مفتون بها أن يشدها من شعرها ويصفعها بين الشتمة والشتمة مثل فيلم أبيض وأسود.

ثم تهاويت حصانًا بغير جسد، يطوي أطرافه. بلا قدرة وتتوالى فيه وقائع بعيدة في الزمن بغير رابط. لبثنا نتبادل تدخين سيجارة واحدة. سألتني.. هاش.. أومأت برأسي.. وأنا أرى كمثل جدار تسقط عنه بلاطة من هنا.. ومن هناك، لتظهر تحتها جدارية أخرى. لا شيء مؤلـمًا أو مبهجًا، إنما دموع تنزل من دون شعور مما يصاحب البكاء. وثمة دكان سقفه عالٍ من عروق الخشب، شبه مضاء وأرففه خالية. خلف كونتر دقت في سطحه المزيت عملات معدنية يقف عجوز طويل. له طربوش وبالطو بُني فوق جلباب سمني، يطالع جريدة ويرشف كل حين من كوب ماء رائق به عود كالنعناع. تقف أمي بالباب تنادي.. خال.. خال. أخشى أن يتعرفني الرجل ضمن رهط من الأولاد ونحن نشن عليه غارتنا اليومية بعد خروجنا من المدرسة. نسأله في نفس واحد.. عندك بيض أرانب! في كل مرة يُفاجأ ويقف منتفضًا وبيده منشة من ذيل الجاموس.

ـ ده ابنك يا "بركسام".. ما شاء الله.

يمسح على رأسي ويعطيني كتلة ملزقة من الكرملة التي تشبه الماسة. كلما خلا بيتنا من الطعام تصحبني أمي إليه. أسمع غناءً هادئًا من راديو كالصندوق. مغطى بكسوة مفصلة من الكستور.

ـ ليه يابو بدير سايب الراديو عمال على بطال يحرق كهربا ع الفاضي؟

ـ المزيكا يا بت زي نفس البني آدم. تعشش ف عضم الحيطان ما تطلعش.

ثم يناولها بعض المال. في العودة تقول أمي.. خالك ده فيه شيء لله من زمان.. عوّاد مالوش أخ كيفه غنا زمان ولو أن سمعه تقل شويتين دلوقت. يشخص لي الرجل ذا جسد ضئيل، كفيفًا بعوينات سوداء.. بينما يعلو صوت أم كلثوم من شبابيك المنور وأبواب الشقق. أراه على كرسي خرزان خلفها محتضنًا العود. وأمامها آلاف من الرجال والنساء، يصفقون جميعًا. الرجال واقفون محتفظون بالسجائر بين شفاتهم، نحاف ولهم ظلال على الصدغين. وتصفق النساء وهن جالسات مصبوبات في تاييرات قصيرة الأكمام. شعورهن مصففة على نحو واحد. تتحرك رؤوسهن مع اللحن ولا تبتسمن. ثمة ضباط أيضًا في زي رسمي أتخيلهم يرون "عبد الناصر" كل يوم.

يجيء وجه "عبد الناصر" لي بهيئة بيتنا القديم مزدحمًا بالوجوه الواجمة. وزوج أختي يقرفص على الأرض واضعًا راديو ترانزيستور على ركبتيه مستغرقًا في ضبط الصوت. وينهض فجأة لدى انفجار

عاصفة من الصراخ من كل الشقق. كانت أول مرة أرى رجالًا يبكون فبكيت. التفتت "إيزابيل" بعينين مفتوحتين كمغمضتين ولمستنى بيدها.. كنت بتكلم مين؟ ومين صاحبة الاسم الذي نطقته.. إيه اللى كان بيضحكك؟ أخذت تحكي ما كان مني في النوم كأنما هي "فاطمة".. يمكنني أن أحصي المرات التي بكيت فيها. مرة حين رأيت "سعاد حسني" تترك رجلًا يحبها إلى غيره. بعد سنوات بكيت لمشهد شنق "عمر المختار" في الفيلم وسط صراخ النساء وزغاريدهن. وطفل في جلباب يتسلل بين الحشود صاعدًا إلى منصة المشنقة ليلتقط نظارته. ثم أسمع نفس الزغاريد وأيدي النساء تكبش وتلقي أوراق الورود والملح على عربات فلسطينيين مرحّلين عن بيروت فلا أتمالك دموعي. بعد ذلك سوف أبكي موت أبي.

تعتبر البوذية بكاء الرجل أكثر من ثلاث مرات قبل الزواج مسوغًا لعدم صلاحيته للزواج. أحمد الله أننى لست بوذيًّا ولا شيئًا آخر. بينما تطرد من ديانتها من يكسب رزقه من صنع السموم والأسلحة. أحمد الله أنني أحب البوذية.

يومذاك رأيت ملائكة سودًا ترفرف بأجنحة مثل طرح الشيفون فوق جموع تزحف ملء الشوارع. تهبط لتودع بطون الصبايا أطفالًا سودًا ونصف سود عند زفافهن. فما الذي جاءت لتفعله الآن برجال يبكون!

عندما يكف الجسد عن العمل تبدأ الروح نشاطها. أشعر كصوفي مُقبل على كشف. وأخشى الموت قبل أن يكتمل الكشف. تلك لحظة الكتابة، ليت "إيزابيل" تغادر الآن. لكنها بادرتني بالقول أكتب تلك القصة قبل أن يكتبها غيرك. شاب ألماني بعث برسالة إلكترونية برغبته في أن يأكل إنسانًا ومن يقبل يتصل به.. بعد أيام من الاتصالات اختار واحدًا قام بذبحه وتقطيعه ليطبخ منه جزءًا في كل مرة.

هذا الخبر ورد ضمن عملي.. سأكتبه حال يتحسن وضعي الاقتصادي. فأنا أدفع لأهلي ربع مرتبى كي يعيشوا. ولطليقتين وأولادي منهما نصف دخلي ـ في الحقيقة لم أكن أدفع لأحد شيئًا ـ وعليَّ أولًا أن أتعامل مع هذه الوسائل الإلكترونية ـ وهذه أيضًا لم تكن تعني لي شيئًا، لم أذكر شيئًا بالطبع عن كلفة علاج أبي. تتكفل بها "إنعام" التي تتكسب من شيّ السمك وتمليحه بفرن أقامته أمام بيتها. تأخذ أجرها سمكتين عن كل كيلو. وبعض الأرغفة عن كل خبزة. والمال تكسبه من كحك العرائس وصواني العزائم في الأفراح والمآتم. وتسألها أمي.. وبعد المرحوم مفيش رجالة! تقول "إنعام".. كلهم واقعين وطمعانين ف حتتين السيغة اللى عايناهم لجوازة البنتين.

أضاءت لي عتمة الفشل جزءًا من ذاتي. ومعه التهاب المعدة. تقيأت بغير ألم. كنت أظن في صباي أن القيء مؤلم. وأحزن لأمي حين أراها تكتم فمها وتهرول فجأة. أتبعها فتقول.. خش أنت ذاكر دول

شوية برد خلوني أطرش. هعمل شوية نعناع دافي وأشخ وها طيب على طول.. متعلّقش بالك. وأفكر بأن أربت على ظهرها.

ظلت الكلمتان دون لساني مع الكلمات الخمس البذيئة ومعهما سؤال.. هل هناك كلام أحسن من كلام. كي أحيا داخل صفحة من القاموس؟ كانت طبيبة تلك التي سألتني ذات يوم ونحن نتهيأ للعري.. إيه أكتر حاجة عجبتك فيَّا؟ نطقت واحدة من هذه الكلمات الخمس. كان هذا الجزء منها جميلًا فعلًا. غير أنها نهضت غاضبة تزرر بنطلونها قائلة.. كنت فاكراك محترم عن كده. فكرت بأنني لم أصحبها عاريين كي نسكن معًا بين غلافي قاموس.

كنت مرنت لساني عبر "أم زمزم" و"فاطمة" وفتيات الحي، على النطق بالأحرف العشرة. التي تصنع بتبادلها خمس كلمات، توجز أمور الارتعاش والبلل. كلمات مثل المال تصنف الناطق بها واحدًا من حي البرابرة، أو الأحياء الأخرى.

ما أجمل عري الأنثى. وقفت "إيزابيل" تتأمل صور برواز الصالة. رغبت في تصويرها. بعدما تحسنت لغتها العربية وفق عامية حي البرابرة.

ـ مامي جميلة.. وأختك كمان. بابا مشمر دراعه ليه. كان بيضربهم بالعصاية دي قبل التصوير ـ أشارت إلى فرع شجرة يتخذه أبي كعكاز ـ .. ومين ده!

ـ زوج أختي، بس عينه بتوجعه شوية.

ـ كانت تؤلمه وقت التصوير أم هي حولاء! هناك باليه يعرض، وسأسعد إن صحبتني إليه.

ـ لا أحب فتيات الباليه بالغات النحافة.

ـ دعوتك إلى مشاهدة الباليه وليس إلى النوم معهن.

أخرجت الموبايل وقالت لمن يحدثها.. أيوه، أنا عند حبيبي. قلت بغيظ.. إبقي قولي أنا عند فلان وبس. راحت تضغط أزرارًا وتعلمني كيف أستخدمه.. ده لك، عندي واحد زيه. إبقى كلمني على الرقم اللي سجلته مع اسمي.. تحب نغمة إيه! سألتها.. يعني إيه!. بعد أن شرحت لي أشرت إلى ساعة الحائط.. صوصوة العصفور ده. قالت

ـ أوكي.. ثم ده كتكوت مش عصفور، وهعمل لأسمي النغمة دي. إِعرفها بأه. عاوز أخليها لك إيه.. تزييقة السرير بتاعك. أول ما ظهر التليفون ده واحدة بتسأل صاحبتها.. بتتكلمي مع جوزك وأنتى بتمارسي الجنس قالت لها أيوه، لو طلبني ف التليفون.

بعد الضحك، سألتني ليه معايا بتتكلم وتوصف اللي هتعمله كأنك بتشرح درس. لم أكن أشعر بنفسي كما قالت. إنها بعد أن تغادر أراجع في عقلي تفاصيل ما حدث متأكدًا أنه حدث. كنت مطمئنًا لعدم التفات نساء الحي إليها. فهي لا تمثل ذلك الجمال الذي اعتاده الجميع

من أوروبية فهي تشبه الكثيرات. قلت أيضًا.. أنا فهّمت الجيران أنك أشهرتِ إسلامك. وإني كاتب عليكي على سنة الله ورسوله. قالت:

ـ لكنني قرأت عن محمد بن عبد الوهاب فلم أحب هذا الدين.. هل يغضب الله إن صليتم له ورؤوسكم وليس (.....) مرفوعة؟!

كان الركاب في محطة المترو قليلين. طفل عائد من المدرسة، أو عجوز أنيق يتطلع في لا مبالاة إلى تلفزيون معلق يبث إعلانات رديئة الصنع. ثم سيدة في جلباب بلدي تطيل النظر في عمق النفق حيث لاح قرص مضيء تبعه هدير مزلزل. لم تتجه إلى عربة النساء وخطت إلى عربة مختلطة. رحت أتابع العجوز الأنيق الذي كان يرسل نظراته إلى فتاه سمينة لا تنهض لأي قطار. إنما تُغير وضع الساق على الساق ولا تعبأ به. أخرجتْ موبايل وأخذت تعبث به. تقدم العجوز جالسًا على الكرسي إلى جوارها. فضمت ركبتيها إلى الناحية الأخرى وواصلت انشغالها. وفجأة حط على الرصيف المقابل عدد من الشباب. أخذوا يشيرون لعدد من بنات المدارس فتضحكن وتملن على أذرع بعضهن وتشرن لهم. لم تسألني "إيزابيل" فيم انتظارنا؟

في المترو اتفقنا على أن نلتقي في "أفتر سيكس" بعد عودتها من الأوبرا. في العربة انفجر رضيع في حجر أمه بالبكاء. وكلما ضمته ازداد صراخه. ألقمته ببرونة ملفوفة فسكت قليلًا ثم عاد إلى الصراخ. تناولته عنها سيدة إلى جوارها وربتت عليه وهي تتمتم فهدأ الصغير.

حين أعادته إلى أمه عاد يصرخ. من أقصى العربة جاء رجل ضخم ذو جلباب ولحية. بيده مصحف مطوي على إصبعه.. حمله عنها وراح يتمتم.. هدأ الصغير. غير أنه متى عاد إلى حضن أمه صرخ عاليًا. خطر لي أن أشير عليها أن ترضعه من ثديها لا من البرونة. أو تحرك أناملها بحركة دائرية فوق يافوخه الطري ليهدأ. تراجعت عن التحدث إليها بكلمات مثل.. صدرك، وترضيعه، وتحسسي. أشارت "إيزابيل" إليها إلى بروش كقرص الشمس بدائرة إبر كالأشعة. ما أن نزعته المرأة حتى هدأ الرضيع تمامًا.. وأخذ الركاب يحدقون في "إيزابيل".

في طرقات المترو الطويلة رحت أتتبع بوسترات عليها وجه فاتن محاط بحجاب لممثلة معتزلة كنا نستمني على عريها في الأفلام. إلى أن تلقت عروضًا بملايين الريالات كي تعتزل.

على السلم الذي يفضي إلى الشارع رأيته يكلم بائعة المناديل المنتقبة. ويناولها مع الفلوس ما يستخرجه من جيبه من لب وفول. من غير أن يسلم عليَّ أمسك بساعدي إلى أن صرنا في الشارع. تعالت ضحكاته وهو يلفتني لأراها.. إذا بها ترفع النقاب وتشعل سيجارة. قال:

ـ بنت الكاااالب. مش أنا والله اللي علمتها. تلاقيها بتسكر كمان من ورايا وعاملة صاحبتي. شفت الصحاب اللى ميشرفوش. من كام يوم أخذت منها تمانية جنيه سلف وكام سيجارة وكانت

نسيتهم.. بس اما ارجع لها. رايح الجورنال وبعدين اعدي عليك.

قلت له.. إن "إيزابيل" ستعود من الأوبرا وتكون معي. قال.. مش عارف البت دي بتحبك على إيه. صار يرى مؤخرًا صحبة فتاة حلوة.. يقول.. تواصل أجيال، كنت بحب أمها زمان، والبنت عارفة الموضوع ده. إنه يمنحني مادة متجددة للرواية. يتحدث عن النساء بإيمان نبي يجهل رسالته.. يتلوها بأقل الكلمات ودون ادعاء لقداسة. باستثناء الصلعة والهزال اللذين خلفهما العلاج الكيماوي يمكن أن يعد النيجاتيف للكثير ممن أعرف. إنه عم "جودة". له سهولة أخاذة في التعامل. يصدقه الجميع ويتقبلون بذاءاته. مكنون نفسه وحياته الباطنية مكشوفان مثل صبي. أحيانًا أحاكيه، وأحيانًا أبدو مثل القطة التي تمثل دور القطة. كل ما فيه بداخلي ولكنه بعيد. موهوب في حب الحياة. مصاب بسرطان الدم من زمان. ويشتري الفياجرا ليلتقي صديقته ثم يعود نشيطًا والحبة لا تزال معه. يقول.. دي مش واحدة تقوم من معاها زي اللى معدي عليك قطر.. دي برقبة أي فيتامينات يا جدع. أرى لديه شبابًا وفتيات يرونه رسومًا متواضعة. ينزل بالمديح عليها وعليهم. أقول له بعد مغادرتهم.. الفن المتوسط رديء يقول:

ـ كويس إنهم مصدقين الفن. طاقة الفن يا حمار لو ما طلعتش فن هتطلع شر. وتلاقيهم اللي ضارب لحيه وجلابية واللي ضاربة

نقاب. وقاعدين يحفظوا كلام ابن قزاعة وابن حربازة ويشرحوا فوايد الحستبوك.

ـ إيه هو الحستبوك. يقول بغير أن يضحك:

ـ يعني ياخي عرفت ابن قزاعة وابن حربازة ووقفتْ ع الحستبوك. ده يا سيدي بالضبط زى الحُبيرظ بس له زماميل.

ونغرق في الضحك معًا. هو أحد منغصات المنضلة اليومية المنصوبة في البار. متى ظهر يخفت فيها الزعيق بالتحليلات السياسية. أما المكلمات فإن كلماته العادية تلهم روادها الكثير. ومنهم من شيد شهرته على بعض مما يتفوه به الرجل في كلامه العابر. كان "كرياكوس" واقفًا خلف الكونتر ينظر بثبات إلى الفراغ، ثم يهش أمام وجهه. قبل أن يخرج بحذر منشة من ذيل البقر، ثم يتركها فجأة ليخطف عصا تضيء مثل عصا رجل المرور ويطعن بها الهواء.

لكيرياكوس وجه طويل وشعر مسرح إلى الوراء. وجبهة مطقطقة من الصاج. وهدوء أقدم جرسونات البارات. إضافة إلى حواجبه الثقيلة، فله وجه أحمر ورقبة مثل رقبة الديك الرومي. كان ما أراه غريبًا على رجل هادئ الطباع يميل إلى توقير حركاته. كواحد من تلك السلالة التي لم تنقرض من يونانيين متمصرين. إنها أشهر شخصيات البار. ذبابة كبيرة تسير أمامي على المفرش. ترعش جناحيها بطريقة مستفزة، ثم تطير في دوائر صغيرة تختفي بعدها. توقعتها غارقة في أحد أكواب البيرة.

عادت إلى الطيران بعصبية وتغيير مساراتها صانعة مثلثات لتصطدم بوجه إحدى الفتيات الأربع، فتمايلن وضحكن. هذا الإصرار لا يكون إلّا لذبابة. لم أتخيلها ذكرًا أبدًا. بدا "زرا بيللا" مشدودًا حين شعر بها على جبهته. رمى الصاعق وضرب جبهته من كل الجهات. انفجرت الجميلات بالضحك العالي وهن تنظرن إلى نظرات الموجودين.

أول عهدي بالبار ظننتهن مراهقات. سلبت الرعشات الأولى عقولهن. فجئن لأجل رحمة الشراب التي تسري في العروق. حتى سمعت كلامهن الذي جعلني أتمنى لو أعمل بحثًا حول هذه الحرفة لحديثات العهد بها.

ـ الحكاية دي ملخبطاني.. اللي top واللي bottom واللي عاوزني butch أو muscular، واللي مش عارف هو عاوز إيه وأنا اللي أعرفه.

ـ أنا بأه fem وبس يا بختك يا "هويدا" رزقك واسع مع العرب، بتعملي كل حاجة وأروبة مع إنك جديدة لسه.

قالت "هويدا" الأكثر بياضًا وامتلاءً.

ـ والله ما باحس بحاجة. جتهم ستين نيلة. كلهم عاوزين حاجة واحدة. واللي مش كده عاوزني slave. رزق إيه، دا حتى

فلوسهم مفيش فيها بركة. متنسيش إن أنا واحدة متجوزة. أيوه كاتب عليا.. يا بنتي إحنا متجوزين عن حب.

ـ بس لما بتخرجو مع بعض كل واحد بيدفع لنفسه. على كده لو جالك ف شغل هتاخدي منه فلوس.

اهتزت رأسها وهي تبتسم في فتور قائلة.. إنتي شايفة إيه!

حكيت لإيزابيل ما سمعته عن شفراتنا العاطفية، فهزت رأسها بغير اكتراث. وددت لو أسألها عن حدوتة الأوبرا التي كانت تشاهدها. غير أن أحدهم حاول الحديث معها. أراه دائمًا ينتفض واقفًا لدى دخول أحد الغرباء ليهرع إليه بغريزة خرتي أصيل. يخمن حاجة الضيف من استئجار غرفة في بنسيون إلى جزء من جسم إنسان. إلى زيجة عابرة لتتميم أوراق.. أي شيء. ظللت أفهم أن لكل شيء سعرًا.. برميل البترول، طن الزجاج، قنطار القطن، غشاء البكارة، الحج والعمرة، الأرداف العذراء وغير العذراء.. أسعار متفق عليها لكل شيء. غير أنني لم أفهم تحوّل المال ذاته إلى صك، ثم انتقاله إلى عملة ثم عملة أخرى ليصبح هناك سعر لسعر السعر.

في البار نشأ بيزنس جديد كاكتراء قلم في صحيفة، أو وقت في التليفزيون، أو منصب في الدولة. بل والتقاط صورة مع مسئول كبير وحتى بيع جوائز الدولة. كان الأعلى سعرًا هو التصاريح التي تستثني أحدًا من القانون. صار الحوار بين أي اثنين ينتهي بالسؤال.. بكام؟ فآثرت أن أبقي عقلي تحت مستوى الذهول.

أخذ "كيرياكوس" يضم المناضد صانعًا واحدة كبيرة. تساعده الفتيات مبتسمات كأنهن بصدد احتفالية. يحدث هذا حين يكون ثمة وفد قادم. كان يتحرك بذات الفوطة المبللة على ساعده.

وقف عم "جودة" بالباب مديرًا عينيه ثم نظر ناحيتي. أشار صائحًا بمرحه الذي يشبه مرح التلاميذ.. أيوه كده، دى أحلى م اللى كانت معاك الصبح ـ وبصوت سمعه كل من في البار ـ عليا الطلاق وانا أدك كنت انام اليل وده ما ينام أبدًا.. وانفجرت الضحكات.

كنت أرى أهلي البيولوجيين مجرد صُدفة. أهلي الحقيقيون هم عقلي والروائيون والشعراء والتشكيليون. فيصافحني قائلًا.. أهلًا بعادم أهله.. لم تدهش "إيزابيل" التي تعرف أنه مرح وصريح في عالم يتواطأ على نفسه بكل إخلاص. هو رسام لا يعبث بمرحه إنما يخفي فيه مقصده. كان التقى عم "طلبة" عندي عزم عليه بسيجارة فرفض الرجل. سأله أصب لك كاس! وأخرج من جيبه زجاجة براندي ربع، جن عم "طلبة" فقال له بهدوء.. يا أخي أليس من حقي أن أدخل جهنم.. ربنا أعطاني هذا الحق، فلماذا ترغمني على دخول الجنة. جلس عم "جودة" غافلًا عن الأستاذ الجامعي الذي ظل ينظر إليه مضطربًا، ومضى يحدث جلساءه عن المشاهير الذين يرومون شهادة منه بجدارتهم. وعن سفره القادم إلى دولة حكامها كانوا من تلاميذه. وعن ٣٥ كتابًا ترجم أكثرها إلى الإنجليزية. التفت عم "جودة".. يا ريت تترجمها كمان للعربية يا أستاذ. من حقنا برضه نقرأها ونستفيد.

حياه الدكتور وراح يفيض في نقد ما يسميه الدبلوماسية الثقافية للدولة. هازًّا رأسه بذات الكاسكيت الإنجليزى المميز له.. والذي جعل من وجهه ماركة شهيرة.. لوجو تنشره الصحف كممثل يكرر عبارة لتكون علمًا عليه.

كان يتناول من الطبق ترمسة ترمسة. ويشرح ما لديه من دبلوماسية مغايرة وينفعل فجأة فيضرب قرص الترابيزة بقبضته تأكيدًا لكلماته. غضبة تعود بعدها ملامحه إلى الارتخاء. في غمرة انفعاله سقط الكاسكيت عن صلعته. صاح عم "جودة" بجدية.. سيبه وامضغ لبانة أحسن، محدش عملها قبل كده.

تجاهل الكاتب الكبير المزحة ووضع الكاسكيت إلى رأسه. قلت لعم"جودة".

ـ لو أنه يفرج عن ذاته من بين أغلفة الكتب والمال الوفير، لحكى وجائع ومباهج ونساء أحبهن وخيبات أمل.

نظر عم "جودة" في وجهي صامتًا للحظات ثم قال.. إنت عبيط ياله!

أصابني بالخجل أمام "إيزابيل".. دخلت فتاة معروفة بوجهها كمذيعة صحبة شاب يحمل كاميرا. ثم مالت على عم "جودة". فرفع صوته قائلًا.. وهنسجل فين يا حلوة.. وبعدين تطلع الجرانين تقول.. ولم يتمالك نفسه وطرح المذيعة أرضًا.. وانفجرا ضاحكين.

نظر "كيرياكوس" باسطًا يده لنا مع انحناءة خفيفة باتجاه منضدة مضاءة بشموع ترتشق ثمرة ضخمة من قرع العسل. أخذ يوزع كئوسًا اعتدتها مجانية يفاجئ بها أحد قدامى الزبائن بعيد ميلاده. وبصوت مبحوح لسكير أصيل راح يغنى أغنية قديمة. فور انتهائها انطلق يدبدب بقدميه رقصًا على طريقة "جين كيلي". مع انبعاث صوت من السماعات.. صوت امرأة له نفس سحر الفتاة التي شتمتني.. ثم يترجم للمحتفلين ما تغنيه.

يا رب اهدني بعض الدموع

اهدي عيوني دموعًا كثيرة

كي أتفاءل من جديد.

ذكر اسمها، معرفًا بها كفتاة جرى اغتصابها على يد جنود الصرب. ثم قام بتقطيع ثمرة القرع. وناولت الفتيات كل واحد قطعة ومنديلًا. دعا الجميع لأن يكسروا كئوسهم بضربها في الأرض وتهنئة المحتفى به. كان المحتفى به أنا. من غنت له إحدى فتيات البار أغنية أحبها.

.. لما رمتنا العين. لم أكن أعرف أن صوتها يشبه تمامًا صوت "سعاد مكاوي".

باقتراب الفجر خلا البار تمامًا. بدت الصالة المبللة كمكان نجا من حريق. إذ أخذ العمال يسلطون خراطيم المياه في شظايا الكؤوس. ترك

أحدهم خرطومه يتلوى على الأرض إلى زوار أجانب بالباب. يسألون عن شيء ما بطريق الخطأ.

سنوات تتوالى، أبددها لقاء التواجد بالمدينة. وهزائم تلتصق جلدي كبدلة راقص باليه شاخت ساقاه. وفقر يدور مع عقارب الساعة. يسلمه جيل إلى جيل كوديعة. وحب يجيء ويمضي ومظاهرات مليئة بالانفعالات تضبط فورتها مع بداية العام ومواعيد المطر. ثم تمضي منسية لا تخلف أثرًا غير أسابيع من السجن. لأعود من جديد ابنًا لأم سمراء تؤمن بأن الحور العين لا يكونون إلا بيضًا. وأب يرتب المصائر حوله بقرب موته في طمأنينة من يغادر غرفة إلى أخرى في البيت. ورواية أسعى إلى جمع شظاياها مثل فازة مهشمة. وتوفيقها إلى بعضها بخبرة لا توجد في كتالوج. سعي أتغذى فيه على المادة الحية للوجود صانعًا جنتي الأرضية من عدد لم أحصه من النساء. أفكر قبل مجيء كل واحدة منهن بالطريقة التي آتيها بها. يضمهن مثل غربي أنت لا تستطيع أن تحب كل نساء العالم ولكن ينبغي عليك أن تحاول. لكل منهن رحم انقبض ليقنص الماء نصف الحي قبل أن يغيض. وثلاثة نساء نسيت أسماءهن وملامحهن في عبث مع موت لا يعبث خلفن فيَّ أربع خيبات إذا أضفت إليهن ذكرى واحد مخجلة. لن تفلح أية لحية يجاء لي بها أن تستنطقني عنها كلمة. الله وحده يفهم اللهب الذي أودعه الأجساد الطالعة.

ثمة فتاة أخيرة ماتت. كانت بوسعها أن تبقى لو أرادت أن تتصرف ليس كربع امرأة إنها كامرأة كاملة.. ينبغي أن أحصيهن لتكنَّ دفاعًا مقنعًا أمام الله، بأنني امتثلت لمشيئته في درء الموت. مثلما يليق بواحد من سلالة فقراء كابر عن كابر..

آه من تلك التي غنت بعد أن اغتصبها الصرب. ما من امرأة عرفتها تنتسب إلى هذا السحر.. ربما لو عرفنه ما دبَّ فيهن السوس مبكرًا.

في تلك الساعة تصبح الشوارع أجمل ما تكون وقد خلصت إلى طزاجتها المنعشة. أوشك الفجر البنفسجي على التحول إلى ضباب. ليفتح السائر أزرار قميصه ويضع يده على كتف فتاة ويمضي مغلفًا بالضوء القليل.

لماذا لم تستمر مع امرأة واحدة؟.. هل يعرف "كيرياكوس" عنا شيئًا؟.. لماذا اضطربت لدي غناء الفتاة المسكينة.. أنا لا أفهمك.. حاول أن تنتهي من كتابة الرواية.

بقرب الميدان أشرت إلى التمثال.. قلت لها.. لو كنت ممن صممه لجعلته تمثالًا لزرافة.. هي الكائن الوحيد الذي يولد بقرنين قويين لا يفعل بهما شيئًا. وبرقبة عالية يرى بها موضع الطعام فقط. قالت:

ـ حاول أن تنتهي من كتابة الرواية بيبي.

في غبش الفجر كان ثمة عمال يسلطون خراطيم مياه من عربة فنطاس، ويغسلون التمثال.. يراقبهم عجوز أنيق. ومع الرغاوي تنزل الأدخنة وزرق الطيور. ولا تمحى شعارات مكتوبة على ثنية البنطلون الحجرية وقاعدة الرخام.. يحيا.. يسقط. وتحتاج إلى كشط.. مع ذلك الطقس الوثني الذي توثقه قلوب وسهام. قلت:

ـ حرصوا على نحت الطربوش بأكثر من أن تكون زوجته أو صديقته إلى جواره. يباهون دنيا المال والصناعة باستقامة خصيتيه. قالت مبتسمة:

ـ تريده فاسدًا مثلك.

عرفت العجوز بنفسي. قال في تعالٍ.. عفوًا، لا أقرأ الجرائد ولا أشاهد التليفزيون منذ ثلاثين عامًا.. منذ النكسة. أجيء لأغسل تمثال طلعت حرب. على كلفتي مرة أسبوعيًّا.. صدقة جارية على روح أبي. قلت:

ـ طريقة مبتكرة يا باشا، أفضل من موائد الرحمن. متجيب واحد كفيف يقرا ربع بعد كل غسله. نظر بضيق والتفت عني من دون كلمة.

شعرت ألمًا خفيفًا في بطني. ازداد بالسير حد الغثيان والعرق البارد.. أعرف أنه سيجيء بعد قليل بالخمول وربما القيء. أمارس الحياة كطفل حديث التعلم يعرف موضوع الصفحة بتأمل الرسوم

المصاحبة. أخطو نحو الخمسين ومازلت أراوح نفسي. ولدت لناس وأأتنس بغيرهم.. أحيا كمصري يأوي إعرابيًّا ماكرًا بداخله. أحب وأبذأ بلغة أعيد ترجمتها إلى الفصحى. أتعيش من عمل وأحب غيره. أنطق بالعبارات الدينية وأحتجز غيرها في عقلي. أنتمي إلى نوع من النساء وأتزوج آخر. أسير ورأسي ملفوتة خلفي. أسلك أمام الآخرين ما يوجبه العلن. وأكون على كامل حريتي في الوحدة. أقضي العمر على الحد الفاصل بين شيئين. وها أنذا أحيا نصف كاتب نصف محب، نصف يقظ، نصف فاهم، نصف زوج وأب. مصابًا بلعنة التوسط بين نقيضين.

تصيبني الأجواء الاحتفالية بهياج ما. تلك هي اللحظات التي يحدث فيها التواطؤ الصامت. فتهاجم الفتيات في هدوء واعتيادية. إلا هذا الاحتفال على ما كان به من فتيات وغناء.

في الطريق أشرت لإيزابيل إلى الأحرف الإنجليزية التي تركب سهمًا يخترق قلبًا على قرميد العمائر قائلًا.. أشهر رسم في التاريخ فأومأت برأسها.. قلت.. هذا الكاتب الذي تركنا "كيرياكوس" ليعتني به أسميه أمّي الروح ـ قلتها بالإنجليزية ـ قالت بالعربية.. وانت مالك! قلت.. يكتب ٣ روايات في نفس الوقت.. قالت.. هناكل إيه قبل ما نروّح!

لأدعها تفكر بالطعام والجنس. أما أنا فسوف أتخلص غدًا وليس بعد غد من كل ما لا يحررني.. له أكثر من ثلاثين كتابًا بمكتبتي.. ورق

كثير وحبر كثير لكاتب وعى الطبخة المصرية فكررها فوق ثلاثين مرة.. بق من الحرية على بقِّين عن الاشتراكية على جملتين في الليبرالية وثلاثة أبقاق ناصرية. زائد مقادير متساوية من التدين والعلمانية. ثم بعد أن تغلي المقادير وتجيء الأموال والجوائز يضيف ثلاثة مكاييل من العداء لإسرائيل على مثلهم من وإن جنحوا للسلم. ويرش فوق الخلطة ملعقتين من الفضيلة. ثم يصب في قوالب من مديح الفقر والفقراء. أو في قالب كبير من ضعف الذاكرة المصرية. بعد الوجبة يسير وبيده لافتة على أحد وجهيها ever say no وعلى الوجه الآخر never say no قبل أن يعود إلى كتابة رواية جديدة فيها الابتكار وبعض الموهبة في استلهام أفكار الآخرين. سأتخلص من كتبه.

في مدخل البيت كانت أربع خرزات صفراء ترسل نورها ثابتًا في الظلام. لقطين قررا إطلاق غرائزهما. قلت.. لا يفعلان ذلك في ردهات البنوك والأبراج.

خلعت ملابسها ومن الحمام سمعت صوت الدش.. قلت لأسمعها.. منحتيني حرية القطط في النطق بالكلمات الممنوعة. لا أعرف لماذا نقول ذبابة وقطة دائمًا. ودائمًا نقول حمار وحصان.

ـ أعرف أنها في لحظة الخطر تأكل صغارها. إنها حتى لا تتذكر من أحبلها ـ أردفت وهي تجلس مبللة ـ هل كنت تحدث زوجتيك هكذا.. هل أصيبتا بالجنون.. أم أن هذا هو موضوع الرواية!

اكتفتْ بارتداء جاكتة بيجامتي.. حكيت لها عن المظاهرة والفتاة التي تشبهها.. هتافها كان يوحي لي بمعنى جنسي لا سياسي.. مش هنخاف مش هنطاطي.. إحنا أخدنا ع المطاطي. ضغطت سبابتها في جبهتي.. دماغك ده مفيش فيه غير حاجة واحدة. قلت.. الرواية. قالت ضاحكة.. exactly

ارتبكتْ بخجل وأعجبني أن تتكلم بصوت مضطرب، مع تمايل عفوي في حركاتها. كأنها بنت مصرية ترسل إغواءً. مازلت أجهل الشفرة التي يعمل بها جسد المرأة. قالت:

ـ أول مرة أشوف الصورة دي.

كان صاحب الصورة المعلقة منهمكًا بنصف جسمه داخل ماكينة قاطرة. وقوفها هكذا بظهرها نصف عارية مشهد رأيته في فيلم أجنبي. ولا يحدق صديقها في قوسي ردفيها إنما يعد شرابًا. لم تقرأ العبارات المعلقة فوق الصورة. بينما أتوق معها إلى شيء يشبه حمرة الخجل والارتباك مع فك الأزرار. بعد أن تصنع يدي لجسدها العارى ثوبًا. ثم أتلقى تيار اللذة واقفًا أراقب عينيها المغمضتين وهي تنطق بكلمات غائمة تسارع من نبضاتها. غير أنها كانت تتناول سيجارتها كل حين لتأخذ نفسًا. أعرف اسم الشيء الذي أفكر به، غير أنها.. اللعنة. فابنتي تكلم شابًّا جامعيًّا. و"نورا" تختلق الأسباب للخروج من البيت. وكلتاهما لا ينقصها الجرأة أو الثقة.

أريد الكتابة الآن. وأريدها أن تبقى. أشعر أنني على الحافة بين هاويتين. حياة معتادة بلا معجزات تبدو مقدمة طويلة. وأخرى ممكنة يمكنني أن أكتبها.. بلا معجزات أيضًا.

ليتني اكتفيت بمثل هذا مع "سهام" فلا يصير موتها بعض موتي.. ومع "إيمان" فلا يمسني الجمال الملوث بالجنون. لا.. ليس الجنون، إنما الجمال الملوث بفقد الذاكرة.

لم تكن "إيزابيل" تلبس قميصًا يلي جلدها لتتركه بعطره مثل "فاطمة". فذكرتها مرة ثانية بكيف تجيء. وأنا أتخيل سائق التاكسي يحاول أن يتحدث إلى وجهها في المرآة. ثم يحدق فيها المارة.. ووحدي من يعرف سرها.. كعري بين أخريات تُسرفن في إخفاء كنوزهن تحت العباءة السعودية أو الإسدال الإيراني أو الملحفة الأفغاني أو الشادور الباكستاني أو الجلبات أو حتى البنطلون. غير من تتدثرن من فوق لتحت بما لا أعرف اسمه، بعدما اختفي الفستان.

كان الصخب الصباحي قد ابتدأ وعلا زعيق "إيمان" وأمها.. هاتي يا بنت الصرمة قبل ما تنزلي الجنيه بتاع بنس الشعر. يرد صوت "إيمان".. مش هارد عليكي عشان أنا متربية. مش ليا عندك تمن باكو شاي ولا نسيتي. تقول أمها:

ـ والله ماهتشوفي نجاح في حياتك. ف نصيبة ع اللبس اللى لابساه. ناقص تبيني إيه يا لبوة. ما هي الناس مش هتلعنك. هتلعن أبوكي وأمك. عربية تفرمك ويجيني خبرك يا بنت الوسخة.

ـ باي باي مامي.. باي باي يا "أم جورجيت".. وتمن شريط الدوا كمان ولا نسيتيه!

حكيت لإيزابيل عما بيننا. قالت بضيق.. أيوه زى جنس المطارات.. انت حر في اختياراتك. خفت أن تطرق "إيمان" الباب. رغم أنني أعرف أنها لن تجيء.

هي المغربية.. تبدو الشوارع أجمل بالمطر الخفيف يتجمع حول أشجار الرصيف. لتخرج ببطء ديدان وخنافس تتقلب على ظهورها درجات الأخضر بألوان بديعة. عما قليل سينهمر المطر بشدة وينزلق الطبق البرتقالي الكبير.. سوف تتمم الطبيعة عملها، وأصاب بالذاكرة.

في البهو الأنيق للطابق العاشر من البرج، فوق بنك وتحت مركز تجميل نسائي. تتوالى الأنباء متشابهة عبر عدد من أجهزة التليفزيون. قتلى وجرحى وهاربون من الموت. طبيعة مضطربة وإعلانات في كل قناة. ورجال أنيقون يتحدثون.

إلى اليمين غرفة لا تزال بها منضدة وقائم وبالطو ملطخ بالألوان وعلب ألوان ولا "جاسر". لم أحسن استقبال الإشارات المبكرة في مشهد الشاب ذي الشعر الطويل في شرفة السفينة. والفتاة التي ترش العطر وتنتظر. ولا حتى مشهد أسراب السمك التي تقطع آلاف الأميال لتضع بيضها ثم تموت على الشاطئ الآخر للمحيط.

من وراء حائط زجاج الصالة بدا الفضاء شاسعًا. والناس في الشوارع ضئيلي الحجم. بينهما النيل لا هو رائع ولا هو قبيح. إنما مجرى لماء يرتب العمائر والكباري وينير ويظلم على جانبيه. يسخو ويترقص هنا، ويغيض ويتوسخ هناك، مانحًا ما شاء من الأخلاق على جانبيه. إنهما مصران لا مصر واحدة يزهو كلاهما على الآخر بما منح الماء.

أحتفظ في درج مكتبي بربع براندي للنوبتشيات. تبدو كتابة الرواية لي إنقاذًا للذات. لن أكتبها بربع دماغ كأنها عملي الوظيفي، خاسرًا الطاقة الجبارة لصفاء النفس. بغيرها يجيىء الكلام كهواء قليل الأكسجين، لا تلمسني عباراتي.. عقدان أحاول خلالها كتابتها غير أن الواقع يكتب معي.

أشتغل بالكلام.. أحيا بين ناس طعامهم كلام ويقينهم كلام. غضبهم وفرحهم ووجودهم صخب من الأصوات. يعبدون كلامًا يعدهم بدنيا نساؤها كلام، فاكهتها وخمرها كلام في كلام.

لا أريد أن أضيف إلى الهواء المطبوع عدة مكاييل أخرى. لا توصل ما بين النطفة والرحم. ولا ترشد الحليب إلى نهود الفتيات.

ليس بزجاجة البراندي ما يكفي. ولدى "زرابيللا" لن يفوتني أكثر من فورات أخرى من اللهب البرتقالي. ودوامات من السحاب الملطخ تفرُّ منه الطيور إلى سموات أخرى. على الأكثر سيفوتني تصريح لزعيم عربي ملهم يزهو في بدلة كثيرة الشارات والشراشيب

كصبي في بدلة العيد. يعيد به تربية شاربه. وتربية الهواء في الحناجر والرعب في النفوس.

الذي أرغب به كلام آخر، يرق فيرمم نفس الطفل بقبلة على الجبين في سبحة النوم. ويشتد فيوقف رصاصة في الطريق إلى جبهة ساخنة. عبارات مما ترفع أنبياء على أنبياء. ثم تعاشر الماء فيكسوان العظام لحمًا.. آه يا عجزي.. لا أعرف السبيل إلى جمل تشبه "فاطمة". يترجل بها الراحل عن صورة في برواز فيعود يسعى من جديد. أو حتى تكون شالًا يوضع على الكتفين ليمنح الخاطئة الغفران.. ما السبيل إلى أمر أشعر به داخلي، يضيىء كل حين.

في البار كان "كيرياكوس" على نفس وقفته الهادئة خلف الدولاب. ينظر بوداعة كأنما تطالع أحد شعراء الرومانسية من زمن. يجيب زبونًا بعيدًا بإيماءة إصبع. أو بيده كلها لفتاة بالباب تبحث عمن يعرف هو مكانه. غير غافل عن تلويح آخر بكلتا يديه من أظلم أركان الصالة. يجلس وحيدًا، يجدد شعوره بالمأساة. ويحدق في رغاوي الكوب مفكرًا بعدد الزجاجات التي تجرعها. عهدتُه يجلس شاردًا في ذات المكان كل يوم تحت مرآة قديمة. ينظر ناحية الفتيات الأربع من دون كلمة. بعدها يتحدث إلى نفسه قليلًا، ثم يرفع عقيرته بغناء يبدل فيه الكلمات بأخرى بذيئة. وأخيرًا يتلو لنفسه شعرًا عاميًا بذيء الكلمات، موزونًا ومقفى على طريقة نجيب سرور.

وقفت مع "كيرياكوس" قليلًا. قال.. الدنيا هي الدنيا. واليوم زي إمبارح.. الشباب واحد. كنت أقف ومعي جريدتان مطويتان. حين تداخل صوت أليف إلى أذني. صاحبه يقرفص فوق كرسي. وسط نوبة سعال أشار لي أن أعطيه الجرائد سائلًا.. فيها حاجة مكتوبة عني؟ قلت.. لسه شاريهم. أشاح بيده وقال بلهجة آمرة.

ـ ممكن تقعد تشرب معايا.

ـ شكرًا، أنا راجع الشغل تاني.

ـ بقولك اشرب معايا. وممكن أعطيك تصريح ولو اني واخد موقف من الصحافة كلها.. مين البنت الحلوة اللى كانت معاك.

هو شاعر نال جائزة عن ديوان لا أذكر عنوانه الغرائبي. جلوسه هادئًا على هذا النحو حدَثٌ. فما أن يوجد ينثر فوضاه وضجيجه مثيرًا الشجار. وكانت فتيات البار تهربن من الخدمة عند ترابيزته. يقال إنه لفرط موهبته يكتب على لحم مخه. أحيانًا أراه في المنضلة المنصوبة يشن هجومًا على أي اسم يجيء ذكره.

قال "كيرياكوس" وهو يحرك مذبة من ذيل الجاموس من دون ضرورة.

ـ الشباب همه همه. أثناء ما كانت الحرب الثانية على أشدها. وقف واحد مثل هذا السيد في مقهى بباريس يمتدح "هتلر". ويتلو الشعر في "جيرمين" ومثل حنفية تنقط ظل يردد "جيرمين"..

"جيرمين" من أول الليل حتى الصبح وهي تربت على ظهره. مع أنه كان يضربها ويأخذ نقودها ولا يريدها أن تنجب. وبعدين "مارتير" في باريس. عندي كراسة بها أشعاره.. هو أخي الأكبر و"جيرمين" هذه صارت زوجتي، العجوز التي تراها هنا. المرأة مثل ثمرة قرع العسل، تعيش بشمعها وعسلها كثيرًا.

قلت.. المرأة مثل العقيدة الدينية تميل لها أو تبعد دون أن تعرف لمَ. لقد عرضت ديوانًا لهذا الشاعر ـ لا أتذكر أيضًا عنوانه ـ بعد أن دفع عني حساب البار وسماني في الإهداء "الكاتب الكبير" أحمد الله أن ما كتبته قد نسي.

يُعد بث الموسيقى الخفيفة علامة حية على المكان.. همس لم ينقطع لستين عامًا. تخالط فيه النور الأخضر القليل. مما يحول المرئيات إلى أطياف تزيد من الشعور برقة الحياة، وبالخلود.

صار "زرابيللا" يخالل الموسيقى بأغان لـ "فيروز" وأدوار وموشحات قديمة تزيد من سحر المكان. مما يجعل الجالس يتماهى في الزمن ويحب الحياة والموت معًا. أصيب "جاسر" بحالة "أفترسيكس" فقرر الرحيل.

بُطنت الصالة بالخشب الداكن. وعلى مسافات ثابتة ألصقت مرايا مدورة. أعتمت فضتها وقلّ نورها. يظهر اسم المحل مطرزًا. بخيط بني على المفارش والمنافض after six

عُلّقت بدائر الحيطان أيضًا فيما بين المرايا مستطيلات طليت بالأصفر. عليها لوجو المحل ever say no مع رسم سلويت يختلف من مستطيل لآخر. مرة شفتان أنثويتان، ومرة دائرتا نظارة فوق شارب. وأخرى تفاحة تنقص قضمة. أو إصبعان يشيران بعلامة النصر. رسوم قديمة بهت فيها اللون الأصفر وتشقق سواد الرسوم.

كان البار خاليًا في تلك الساعة. إلّا من فرادى صامتين، وجوههم محفوظة ولا تعرف لهم أسماء. وكذا الجميلات الأربع والثرثرة والضحكات الفاترة. تغير لهن العاملة السمينة منفضة السجائر كلما مرت بقربهن. وتعود بزجاجتي بيرة تضمهما إلى صدرها. وبيدها الأخرى منفضة نظيفة وفتاحة. بوجودهن يشعر الداخل بغمامة صغيرة من العطر، فيلتفت إلى حيث أربع من موهوبات الجسد، المصبوبات بالجرام سمنة ونحافة. تشربن وتدخن.

اندفع جمع من الشباب في احتفالية تشبه انطلاق جرس المرواح. يحطون هنا يوم الخميس. متى اتفقوا على موضع جلوسهم. يقتفون أثر بعضهم إلى دورة المياه. وفي عودتهم يتمطون كمن يستعدون لأمر جلل. وهم ينظرون تباعًا ناحية الجميلات الأربع. يفضح مظهرهم حداثة عهدهم بلعبة التمرد. يضحكون كثيرًا من دون سبب واضح.

كانوا يصفقون لـ "زرابيللا" كما يستدعى عامل المقهى. فإذا التفت صاح أحدهم ever say no دلالة على معرفته التاريخية بالمحل. عدد من الوجوه السمراء المقشرة والعيون المتوثبة يقودهم

واحد يغالب قصره بميل الفصاحه والتحدث يمينًا وشمالًا. يطلبون الأشربة لا بأسمائها بل بأسعارها وينادونه بيا خواجة. يجاء بأطباق الترمس واللبن الرايب فيرتفع صوت قائدهم.. إحنا مطلبناش ده.

متى حلوا يوصي "زرابيللا" الموظفات بعدم التورط معهم في كلام كثير. وبأن تقدمن لهم الأشربة قليلة الكحول. بعد لحظات يعلو صوت أحدهم بسباب بذيء فيما بينهم. ثم ببعض التجديف الديني. فيهرع صوت آخر بإلقاء نكتة. قبل أن يتجاوب الباقون بالضحك العالي على أية كلمة. وتسود لحظات من الصمت. قبل أن يعلو صوت راميًا بمخارج الحروف بعيدًا.. عاوزها لحم فصوص. مش عود قصب ممصوص. ومحربقة بعصعوص. وعاملة روحها غزال. ويعقب صوت.. الله يا عم "بيرم". وينفجرون جميعًا بالضحك.

كنت أنتظر "إيزابيل". حائرًا بإزاء هذا الشيء المضمر وراء عيون كثيرة الحركة. أو كلام لا مناسبة له. ثم الصمت الذي يحجب ما لا أفهمه. يرمي أحدهم بعينه ناحية الباب مرة وناحيتي مرة. موشكًا على السؤال.. صاحبتك ماجتش ليه؟

يتردد عليهم "زرابيللا" سائلًا إن كانوا يريدون شيئًا. ثم يتعهدهم من بدا أنه زعيمهم بما يلزم قعدة السكر. بأن يسخر من أحد رفاقه. أو يُلقي طرفة. ثم بالوقت تخفت أصواتهم ويصيبها الإنهاك. ويشرح آخر فيما يحكيه كيف أنه اختار ما يتفق مع الأخلاق والمبادئ وهو عارف بما سيحيق به منهيًا كلامه بالقول.. وقلت لها إنتي مش أكتر من فردة

جزمة.. فيعقب غيره بقول مأثور يلخص الأمر كله. بين الكلام والكلام يرمي بعضهم بالعين ناحية موظفة فتجيء أخرى.

ـ أجيب لسيادتك إيه يا فندم؟

وفي عودتها يرفع إبهامه في ظهرها منبهًا.. براندي.. مش بيرة. أخيرًا ينصرفون ثقالًا على هيئة السكارى كما تصورها السينما أبيض وأسود. يترنحون وهم يضربون بالأقدام في شوارع الليل الساهرة في ألفة مدعاة لمُحدثي مدينة. ويتداعى بينهم البوح في حذر. تستبدل فيه الأسماء والأماكن بغيرها مخافة الافتضاح. يكابد بعضهم الاحتفاظ بتوازن الكلمات. إلى أن يباغتهم أحد الميكرفونات بالتوشيح لأذان الفجر. فيواصلون السير مضروبين بالصمت.

بنزول المساء يحط نوع آخر من البشر. تفضح ملابسهم الغالية المتنافرة مصادرها الحقيقية. يتتابعون كمن على موعد. يتصايحون وتحسبهم سيتعاركون بعد قليل. يعد لهم "زرابيللا" أدنانًا من الخمور الرخيصة، يتركها لعماله يخلطونها في الصندرة. خلطة لا تؤثر فيهم بأذى. إنهم الراسخون في الضياع. يدندن أحدهم لنفسه قليلًا، بينما تتقارب منهم الذقون المهملة تحت الضوء القليل يتذاكرون بالبطولات السرية. وما أسرع ما تعود إليهم هزائمهم واحدة فواحدة بألفاظ فجة متشابهة. لا حاجة لديهم لكل اللغة. في أكثر حكاياتهم تستوي المرأة والأموال التي كسبوها، ثم يتم تشفيرهما إلى خيانة الأحبة وغدر الزمان. معلنين التوقف عن المزيد من التجربة. حتى يعيدهم إليها

صوت بقصة تستقيم الدنيا في آخرها وتتدخل السماء في الوقت المناسب. يسود هدوء يقوضه أحدهم فجأة طالعًا فوق كرسيه هاتفًا ملوحًا في الوجوه.

ـ اللي هيقول بعد كده إن محمد أمبوكشه ف الضياع هطلع دين أمه

ـ محمد أمبوكشه مش ف الضياع.. محمد أمبوكشه ف الدمار.

ثم ينزل وسط تصفيق رفاقه. أعمار استغنت عن بقيتها. تصرفهم من الفجر الكراسي المقلوبة وخراطيم المياه، والعمال مشمرو البناطيل. بعدما منحتهم خمر "زرابيللا" شهادة البراءة. في حياة لم يعد اتقاؤها ممكنًا. تركت المكان متخذًا طريقي ثانية إلى العمل.

على باب الأسانسير ألصقت ورقة تذكر الطالع بأن البقاء لله. وبوفاة اللواء فلان زوج خالة فلانة المديرة بشركة كذا. قلت في نفسي لا هو لواء ولا هي مديرة إنما تمت ترقيتهما لزوم الموت.

على رخام الحائط بقايا لزاق في كل طابق. قشرت عنه أوراق كانت تمتلئ بالألقاب الدنيوية. إلى يسار الداخل توجد لوحة تشبه لوحة الشرف. بها أوراق نعي قديمة. أبقت عليها أيدي موظفي الاستعلامات فلا تمزق ورقة عليها آيات قرآن أو ألقاب كبار الموظفين.

ـ صباح الخير يا أستاذ.. نوبتشي!

ـ أيوه.. إزيك يا عم مصطفى

ـ شفت اللي حصل.. أهي دي نهاية أمريكا اللى ربنا ذكرها في القرآن.

ـ هو القرآن فيه أمريكا كمان.

قال الماكر الذي يعمل قوادًا بين بعض موظفات وموظفي البرج ويعد لهم طرقات البناية الخالية في الليل.. مش عاوز أي حاجة!.. أعمل لك قهوة! هو يخمن أنني راجع من عند "كيرياكوس" الآن. نحيل ومقوس كأي رجل شره وشهواني.

خطان.. خطان على جانبي الوجه نقلاني كل هذا الزمن.. سجلتهما مرآة المصعد بما لا يمحى. إذا أعطبت الآن التسجيل الذي يبث دعاءً واحدًا في الطلوع والنزول، فلن يعرف أحد.. وبالمرة أنزع كل أوراق النعي التي تحتفي بالموت يوميًّا.

غادرت المصعد.. تقدمت لخطوتين، ثم سمعت خروشة.. أبدأ بهذا النعي كثير الكلام.. تتكرر فيه صفة الفاضلة. الموتى لا يكونون بالضرورة إلا فاضلين وفاضلات.

إعلان آخر في نهاية الطرقة علقه أحدهم قبل شهرين وظل هكذا. لو أحب كاتب النعي من ينعيها لما جرؤ على كتابته بخط جميل هكذا. ذاكرًا موعد الدفنة ومكان العزاء.. واصفًا إياها بعروس السماء. قلت لنفسي.. امرأة أخرى غدرت بأنوثتها وبرجليں على الأقل.

في الطابق السادس عشر تختلط إعلانات الموتى بتنويهات عن فرص عمل ورحلات سياحية، وأجهزة كهربائية تباع بالقسط ومراكز للدروس الخصوصية. أمام عيادة خاصة كان النور مضاءً وثمة أصوات خافتة بالداخل. في طابق آخر أدير راديو يبث القرآن طوال الليل في مقر شركة. وعلى الباب علقت تهنئة قديمة من الموظفين لرئيسها الجديد وقتذاك. خلت لوحة عزرائيل بهذا الطابق من أي نعي.

تحاشيت التجول بالطابقين التاسع والرابع. ففي التاسع كل بوصة من الطرقات محروسة بكاميرات مخبأة تصب لها الأسقف ضوءًا غزيرًا مثلما يليق ببنك. وبالرابع مقر جريدة معارضة بمساحة الدور كله. عملت بها في مبناها القديم. مبهورًا بالصوت العالي لرئيس تحريرها ومعاركه. منذ جاء من الجنوب شابًا نحيفًا أكرت الشعر. مبقيًا على لهجته التي تنتمي إلى موطنه البعيد. وما أن مكّن لصوته وأظافره حتى أنشأ جريدة وملتقى لمصالح الكبار. تفيض تلافيف عقله بالتبرير والدهاء. التقيه عند باب الأسانسير فيصافحني ويخاطبني باسمي. وأقشعر من ملامسة جلده. يسألني كنجم حقيقي عن الصحة والأخبار بطريقة من لا ينتظر ردًا. وفجأة يلتفت متحدثًا إلى شخص آخر. يتركه حارسان مسلحان حين يغلق باب المصعد. ويتسلمانه حين يخرج. أراه فأتذكر فتاة الكومبيوتر التي أوشكت أن أنتمي إليها. لولا أنها أذنت لي بيوم واحد.

في أكثر ردهات البناية تتقاطع وتلتف طرقات. على جانبيها أبواب مغلقة، تبعث خوفًا بدائيًّا تعززه ملصقات ملونة كثيرة. على كل منها فتاة محجبة تبسط يديها و.. دعاء المرض.. دعاء الشفاء من المرض، دعاء السفر والعودة من السفر.. دعاء الجلوس إلى الطعام.. دعاء دخول الحمام.. وغيره للنوم.. عشرات الأدعية كان نزعها سهلًا. ليس بينها دعاء الحب، أو الشعور بالوحدة، لو وجدته لأبقيت عليه.. اللهم حنن جسد فلانة بغير المال.. ما أجمل هذا الدعاء.

أكثر الوفيات كانت بالطابق الخامس. ما من نعي أو تهنئة بزواج يذكر أن فلانًا أو فلانة أحب لمرات. أو اشتهاها أو سرق جسدها آخر. أو تآمرت بجمالها لمنفعة ما. أو خاصمت رحمها مثل "إيمان". أو تحوطت ضد الحمل مثل "أمل". أو اعتنقت أنوثتها مثل "فاطمة". أو اعتادت الاستجابة كعبدة مشتراة.. أو أنها واحدة خاصمت الأمر كله إثر تجربة مذلة.

شكرًا يا "مصطفى". أخذت السجائر والساندوتش.. لن أناديك بعد اليوم يا عم "مصطفى"، و"أم إبراهيم" سأناديها يا "كوثر". تغير البناء وبقت سبورة الموتى التي في المدخل تمتلئ بأوراق النعي. أيام كان الموقع فيللا أنيقة، كانت تزدحم بأوراق موقعة ومختومة، والقليل من أنباء الموت.. كلما دخلت هذا البرج أفكر بالجوخ الأخضر للسبورة كتايير لقوام أنثويّ يؤطره بييه أسود. أو كستارة يحركها هواء يسعى إلى عريين في هدوء معبد.

أول طابق يقف به المصعد هو الرابع. يظل الطابق الثالث هو الوحيد الذي لا قائمة به للموت أو الموتى. ينتهي الدرج فيه إلى باب يفتح إلى الجانبين خلفه ممر طويل مبطن بالموكيت الأحمر. على جانبيه فتارين بها صور من الفيلم المعروض. فالطابق كله دار سينما. كلما مر المصعد بهذا الطابق رأيت مشهدًا أبيض وأسود. رجل يلمس خصر امرأة يتطاير الجوب حولها.. يتراقصان فوق الأسفلت تتبعهما موسيقى مجهولة المصدر.

أغلقت الصوت في تليفزيونات الصالة، وأهملت الأخبار التي تتوالى من شرائط التيكرز والتليفونات التي ترن. خلف حائط الزجاج بصالة التحرير وقفت أتابع أسراب السحب ترتحل عبر السماء. لا أنتمي في هذه الصالة إلا إلى يديّ في جيبي بنطلوني، وغيمة عطر تضوع هنا كل يوم. إلى تحت تتراص أسقف العربات، وتتقاطع الشوارع ومساحات الخضرة بطريقة هندسية. مشهد بديع لا يبدو هكذا من تحت.

لا أحد سوى بائع بطاطا يدفع بشظايا الخشب في فرنه. أو عابر يحكم لف الكوفية ويمضي مسرعًا. خلف هذا العالم المعلن عالم حقيقي آخر. وتاريخ يتقلب في الكتب. أتلقى إشاراته بغير اهتمام. هؤلاء الأولاد مقشرو الوجوه يتعرفون مواطن النبل في هذا الوجود ويستعدون للانقضاض. أما السكارى الراسخون في الضياع يحطون ويرحلون محتجين على أنفسهم.. فيشخصون لي بالمصير.

هذا أول الخريف والفجر الأزرق المليء بالبخار. وبهواء يخبط حائط الزجاج مهينًا نفسه. يستاهل، فقد فسد ولم يعد لديه ما يشحن الحناجر بالغناء. وحلوق النساء بالبذاءة في الفراش. ولا حتى أجنحة الطيور بالرفرفة.. مهام تحتاج إلى هواء كثير ونظيف. فوق أنه أسلم نفسه إلى أجهزة التكييف، وخطب عجائز السياسيين وحناجر المنضلة. مثلما أسلم طيوره إلى أكياس الثلاجات وقلايات المطاعم لتباع كأوراك وصدور. تخلّى عن وظيفته في ترطيب عرق الأذرع والرقاب وتوصيله إلى أقاصي السماء أولًا بأول ليسلمه إلى الله. وعن تطيير فساتين البنات، وإمداد العابرين بالشهقات لدى مطالعتهن. ثم العمل في لهاث عاشقين صغيرين. قبل أن يبعث ببعضه إلى حلوق الرضّع لزوم الصرخات والكركرة بالضحكات.

قرأت الفاتحة لـ "جاسر"، وإن لم أحس بأية جملة مما قرأت. هذا ما اعتاد الناس أن يفعلوه لمن غاب. يبدو أن الموت هو محنة الأحياء فقط. وأن الانديباح في الكون ليس مجرد عزاء وقهوة وعبارات مكررة.

ما من امرأة أستعيذ بها من شر الوحدة. كل منهن انقضى أمرها بعد انقضاء الفورة. "فاطمة" و"إيزابيل" استثناء كشف لي مساحة من نفسي. كنت أيضًا سأضل الطريق إليهما لو لم أمر بكل هاتيك النساء. قلت لوردة قبل أن تهرب.. أي جدوى في أن يظل المرء عمره كله يغتسل ثم ينهض وينحني ويبرك ويتلو وينهض وينحني ويسجد. ويكرر الفعل كل مرة بغير إحساس. أتكون أفكاري تلك حيلة من

وحي الشيطان الذي لا أعرف حتى أين يكمن. لو أنه الشيطان لأبقاك معي. فلا ترين اللاديني على أنه كائن همجي. يغدر ويسرق ويؤذي ويحتال ويقتل ما استطاع إلى ذلك سبيلًا. أسرعت بارتداء ملابسها والنزول من غير أن تتحوط لباب شقة مفتوح أو لأحد قد يكون على السلم. يحاولون أن يدهنوني بالكذب من فوق لتحت كي أشبههم، وأخفي ملامحي الحقيقية. ملامحي التي يتعرفني بها جيراني وأهلي ورفاق السجن وزبائن البار والعمل والبوليس السياسي والنساء. قالت لى "وردة" يومذاك.. أبويا كان إمبارح ف المقابر بيودي واحدة قريبته.. شاف أمه قاعدة بهدومها جوه الطربة كأنها لسه مدفونة. أصلها كانت ست طاهرة.. أمي قالت لي نفس الكلام.. كانت معاه ف الطرب.

لعلي أجد موضعًا في الرواية لهذه العاهرة المقدسة. التي تصنع ذاكرة مبكرة من الرجال داخل معبد. أبوها من قال لي يومًا ما:

ـ أنا باقرالك الأيام دي بإيديّ وسناني عشان اهديك، وآخد ثواب هدايتك.

سألته.. إنت بتورد أنفار لربنا! تصوروا من قال لي هذا؟ إنه عم "طلبة" الذي أجاز لنفسه ثلاثة من بناته. والذي قال لأبي ـ يقصدني ـ سيبه عليّ، هيروح فين. كلنا كنا كده ف الأول. اللي زى ده لما بيؤمن بيبقى أحسن مني ومنك.

لم أعد أشعر بحكاية "إليزا". بقدر ما أشعر الآن ببناء شاهق مغلف بالزجاج. كل شيء فيه يوحي بالبذخ. قسمت واجهته بالورب إلى مثلثين هائلين بطول البناء. واحد من ألواح المرايا الأزرق. والآخر من زجاج النحاس. وما من شرفة أو شباك. مهما دار طائر حوله لن يرى سوى صورته. ومن يدخلون ويخرجون يكون ذلك من مستطيل صغير أسفل الواجهة. خلف هذه المرايا الهائلة يتحرك كل شيء في مكانه داخل النظام.. يخلو سطح البرج من الأعمدة المدببة. فلم تعد ثمة صواعق تأتي من السماء.

جاءني كالغوث خبر بثته إحدى الإذاعات.. فكرة ليس بها جنس أو امرأة.. "كراتشنكو".. الأوكراني العجوز.. سأجعل منه مفتاحًا للرواية.. قالت المذيعة.. عندما اجتاحت القوات الألمانية عاصمة أوكرانيا، ارتعدت فرائص الشاب "كراتشنكو" البالغ ١٧ عامًا خوفًا من اعتقال النازي له. فاختبأ في سرداب مظلم خلف داره لا تدخله شمس. وظل هناك سنوات يقدم له أهله طعامه وشرابه وهو في مخبئه. حتى جاء البلاشفة. لكنه ظل مختفيًا خوفًا من تجنيده. وقضى الشاب كل أيام وسنوات الاتحاد السوفيتي في مخبئه خائفًا. ثم انهار الاتحاد السوفيتي واستقلت أوكرانيا. وغيب الموت أهله وإخوته. غير أخته الصغرى التي ظلت تقوم على خدمته في مخبئه. الذي لم يجرؤ على الخروج منه خوفًا من محاكمة الحكام الجدد له بتهمة التهرب من التجنيد. وجرت في مياه الدولة الجديدة المستقلة زوارق جديدة.

ويشعر كراتشنكو باطمئنان نسبي إنما يعرف بوقوع شقيقته مريضة مرض الموت حين افتقد ترددها عليه. فأطل برأسه من سردابه المظلم ليكتشف أنه ظل فيه خمسين عامًا كاملة. لم يواجه فيها ضوء النهار فجثا على ركبتيه ومالت رأسه على صدره.. ومات.

أمصّر الفكرة، بغير أن أجعله يموت. إنما يتعامل مع الواقع بسلبية بإعمال الحيلة والكذب والتقية.

(٣)

حكت لي "أم زمزم" أن "طلبة" وأصحابه يراقبونني من جلوسهم معًا على دكة أمام دكانه.

ـ إبقى قول السلامو عليكو وانت معدي ونفعه كيس عيش.. تمن جبنة، علبة سالامون.. أي حاجة. جربت الشراء منه إلّا أنه يأخذ الفلوس أولًا قبل أن يطلب الشاري. أعرف أصحابه ممن يقومون بجولات ليلية يمطرون فيها الكلاب المتسافدة بالطوب. كنت من الشباك الخلفي أرى الكلاب تهرول ملتصقة أمامهم. لا أعرف لم تسامحوا مع مجيء "إيمان" و"إيزابيل"!

تشبه الحياة حولى بذورًا صلبة، قدورها مرصصة في متحف. فاتها أوان البذار. نشتهي ثمارها التي نُسيَت حتى أسماؤها. أحب طقس الاعتراف المسيحي. وتعجبني رقة البوذي الذي ينصحه إلهه: "لا تضغط على يد صديقك بقوة وأنت تصافحه كي لا تقتل الكائنات الدقيقة السابحة في الهواء".

تعب الإله مع مخلوقاته كي لا يؤذي أحد أحدًا. وتبهرني إمكانية إقامة العبادات بالقلب مثلما يفعل الدروز أو هؤلاء الذين يصلون للماء الجاري. وكونفشيوس الذي يقول: "غالبًا ما يبحث الإنسان عن سعادته في مكان أعلى منه. وآخرون يبحثون عنها في مكان تحتهم.

ولكن السعادة تكون دائمًا بحجمهم. لكل إنسان سعادته التي تساويه". بينما أنفر من تلك الديانات التي تسوق مؤمنيها مغمضي الأعين ليفعلوا شيئًا واحدًا. الهيبيز والمورمون ينتحرون جماعيًّا. الصوفية أيضًا يمارسون طقوسًا جماعية. في الحياة ثماني وستون ديانة كبرى ما من دين واحد ينتظمها جميعًا بما يبطل القول.. إن الوحش قديم، والإنسان حديث.

ـ أنت من أية طائفة في المسيحية أو اليهودية.

ـ لم أفكر بهذا الأمر من قبل.

ـ تبدين وجودية. قالت "إيزابيل" بحدة: أرجوك.. دعك من هذا.

سمعتها كأنما أقرأ عبارة مترجمة في فيلم.. let that please لو أعرف.. هل يجوز للإنسان أن يؤمن بعدة أديان معًا! لم يعد جسدها ما يجذبني، بعدما اعتدت وجهها بالحجاب، إلى حد أنه يمكنني أن أتزوجها.. كبرّها في العمر وجعل منها امرأة بحق. كلمتها عن الرواية العسيرة، وعن شعوري بالوحدة في عالم من الفخاخ والموسيقى يملأ فيه الهواء المغشوش الفضاء. لنتنفسه وتدقه الماكينات أرقامًا فوق البنكنوت. حدثتني عن أن الحجاب أعجبها لأنه قربني منها. وأن في بلدها مثل باعة الفستق عندنا يمرون على المقاهي والحدائق بصندوق مليء بالزلط. يشترى الجالس وحده زلطة ليكلمها.

وعن افتتاح مقاهٍ تتيح لروادها حرية التعبير عن حزنهم واكتئابهم بالبكاء. يوفر لهم المقهى المناديل الورقية وزيت النعناع لتخفيف ألمهم. والبصل والفلفل الأحمر للمساعدة على جلب الدموع. ودُمى على شكل النساء لأصحاب العلاقات العاطفية المحطمة ليضربوها.

حين أصاب بالأرق أفتح التسجيل على ما سجلته لي حتى أنام على صوت راعية الجبل التي ينبجس الماء من آهاتها، وبعض من الغناء الصوفي، وموسيقى فيلم زوربا وغناء الفتاة التي تسأل الله دموعًا كثيرة لكي تصفح. وصفير الهارمونيكا الخشبية. لم أسألها من أين جاءت ببعض الغناء القديم الذي أحبه. كاشفتها برغبتي في تعلم الرقص وأنني أفكر بالموت.. وأخشى أن يجيء مغافلًا.. فابتسمت.

يبعد الموت بالموسيقى. فهو يخاتلنا ونحن نيام. كنت أشرت عليها باستبعاد أغان معينة مهما كانت حلوة. أية أغنية يغني فيها المطرب يا حبيبي ويخاطب المرأة كمذكر. وتلك التي يناجي فيها طيفه كذا أية أغنية فيها مبالغة. أو تتغنى بالعبودية المذلة. مهما كان المطرب كبيرًا. الأطياف.. هذه بالذات أكرهها. فعلت كل ما طلبته. ولم أعرف ما الذي يفعله الجنس بالمرأة حتى يحيلها كائنًا ودودًا ومطيعًا هكذا! فكرت بتطهير المساحة التي أتحرك فيها من الموت. وتكرّر ما أفعله في النوبتشيات مع أوراق النعي والأكاذيب. هذا أفضل من المداومة على أدوية الاكتئاب. أو شراء زلطة أقول لها.. وبعدين يا زلطة.. ما أن يقع نظري يا زلطة على امرأة حتى أراها متهدلة الشعر عارية. هي أيضًا

تشعر بمعنى نظراتي. فهل أنا يا زلطة قرد قبل وقوع الزلزال..! أنا مضطر يا زلطة إلى ضبط سلوكي العلني وفق ما يريد الناس.. فتقول.. هه وبعدين، الشهوة يا زلطة ترقق مشاعرى وتحفز قدرتي على العمل..

ـ من أين جئت بالأغنيات والموشحات القديمة.

ـ من الـ net

لم أسألها عن معناها. وقلت إن الرواية تحتاج أعوامًا من الكتابة. فالقلم أحيانًا يتدفق كامرأة محبة. وأحيانًا يشعر أن البراءة وصمة فيتوقف، وأنا أتبعه. "إيمان" يا "إيزي" من تجيء وحدها وما أن أفرغ منها حتى تجتاحني الكآبة.. كالخمر المغشوش. قالت.. أنت تتكلم أكثر مما تكتب. قلت.. "وردة" قالت لي ذات يوم إنت بق، فسألتني عن معناها ولم تضحك.

أن أكتب يعني التطبيع مع الحياة. والتطبيع مع هذا النوع من الحياة يعني عدم الكتابة. فقد هان قدر المرأة وأصبح لها سعر وباركود. فقدت الفتيات البرق الذي يندلع من خصورهن. وكفت الفراشات عن الصعود من نهودهن. أطلق الرجال كروشهم ولحاهم وجاوبتهم النساء بإشهار مؤخراتهن الثقيلة. وحدهم الفتية والفتيات يبدأون من جديد كأنهم في بدء الخليقة. فاجأتني "إيزابيل" بالزيارة في العمل. بدا وجهها العالي أكثر براءة وجاذبية.. بكثرة ما انفعل لرجال كثيرين. تحيطه طرحة خفيفة فوق شعر سائب كأميرة عربية حقيقية. اختارت عباءة سوداء مقصبة بخيوط الذهب. بدا ثوبها الخليجي ألفت للعيون

من الجنز الممزق والستوماك اللذين زارتني بهما. تقاطرت زميلاتنا للحديث معها. كن اجتمعن بغرفة "جاسر" بامرأة عصرية الثياب تجيء دوريًّا لتقرأ لهن الكف وتبشرهن بالغد الذي هو دائمًا ممتلئ بالمال وإشباع الغرائز. جئنها بعصير قالت لهن ضاحكة.. أنا أصوم اتنين وخميس. اكتفت بكوب ماء وأخرجت علبة سجائرها وعزمت عليهن. قلت لها.. نطلع أوضة المخزن.. فوق.. دور ١٤ فأطاعت هذه المستعدة للمتعة في أي وقت. كنت عرّفتها كيف تفك السلك الذي يقوم مقام القفل بعدما اعتاد بعضهم إفساده. من غير أن يسرق شيء.

أيقظتني نغمة المحمول التي خصصتها لاتصالها.. صفير الراعية بأصوات حلقية تشبه صوت الريح لتؤنس وحدتها في الخلاء.. بآهات منغمة تنبت العشب حيث تقع.. أووهووه.. ياهاااهووووه.. إى ى هي ى ه.. هي دى ى هااه. كأصوات الأوبرا.

أشعر بداخلي كتابة تشبه هذه التأوهات الصافية.. حتى لأغبط من يطلقون حزنهم ببساطة في فضفضة يمسون بها أناسًا بعيدين لا يعرفونهم.. هم من يحررون أعمدة يومية بالصحف. قالت..

ـ أكثر الناس يفعلون هذا بيبى.

قرأت الباليه الذي أحبته. حيث يصنع المؤلف أسطورة حول الفتاة "جيزيل"، التي ماتت في ربيع العمر حزنًا على حبيبها الذي هجرها. ثم تعود لتنقذ ذلك الحبيب بعد أن استدرج لوادي الأشباح. وفيه تنهض الفتيات اللائي تمتن عذارى من قبورهن في ضوء القمر

المكتمل. لترقصن على حافة الغابة. تنتقمن لأنفسهن من أي شاب يقترب منهن. ويبتهل شبح الفتاة "جيزيل" إلى زميلاتها العذارى بأن تتركن حبيبها بعد أن غفرت له. قالت "إيزابيل": عاوز تبيع المكتبة بعها.. عاوز تخليها خليها بيبي.. و"مراد" قال: أنت عاوز تشوف م الحياة على أد ما تتحمل.. وأمي تقول دائمًا.. وخلقنا البني آدمين في كبد.. بينما خالي يزعق.. عاوز ملايكة على كيفك.. سود كمان، والله ده قرينك مش انت اللي بيتكلم. و"أم زمزم" تردد دومًا.. هو كده البني آدم ينشف ويخضر وبعدين ينشف ويخضر. أما طليقتي الأولى فتقول في غضب فاتر.. حط واطي شوية، متفرعن على إيه. محدش على سفيرك.. يا أخي اتقي ربنا شوية، وتبرطم فأقول ليتها تشتم ولا تردد أكلاشيهات الغضب.

في ذهابي وعودتي من العمل كنت كمن يكتشف المدينة بعد سفر. أسير إلى أقصى ما تستطيع ساقاي، مراقبًا سعي الجميع لجلب طعامهم. مشهد أحدهم وقد جاد عليه مرض الكبد بثديين كالنساء، يرعشهما للمارة فيمنحونه المال. أو نمى لامرأة شاربًا وذقنًا تتكسب بهما الرزق كامرأة مبروكة. تدخن السجائر وتطلبها من المارة. كثر من يعرضون على الرصيف أكياسًا لأعشاب ألصق على كل كيس ورقة بنوع المرض الذي يشفيه. ومن حبته الطبيعة قزْمَنة مضحكة فإنه يأخذ في الشقلبة كقرد. ثم ينزل على قدميه باسطًا يده لكرم العابرين. مولد يومي ينصب فيه الأكثر مكرًا منضدة عليها ميكرفون صغير يكرر

عبارة واحدة لأجل التبرع لبناء مسجد. قلّة هم المخابيل. ولم أعرف أبدًا كيف يجيىء الخبال بالمال. يجهرون بما يجعل المارة يهربون منه. عندما يقومون بالتعري وبالإشارات البذيئة.. والزعيق بالكلمات الممنوعة التي لقنتها لإيزابيل في الفراش. كان بعضهم يقف بعيدًا وينظر وتتغافل عنهم النساء.

لدى إحدى الفتارين كانت صفوف التليفزيونات المعدة للبيع مضبوطة على نفس القناة. ونفس مشهد أبراج نيويورك لا تزال صامدة تخرج من جنباتها فورات النار والدخان. قبل أن تندفع طائرة لترتطم وتختفي داخل أحدهم. كان عدد الواقفين يزداد. وبعضهم يغطي فمه في وجوم. بينما البرجان يتهاويان بنظام هندسي متقن. ثم مشهد بوش الابن وهو يسير. مبادلاً ذراعيه كمصارع في طريقه إلى الحلبة. قال أحد الواقفين بنبرة فرحة.. أمريكا قربت تقع من جواها.. وقالت سيدة.. إرادة ربنا، سبحانك يا رب. كانت الأحداث تتلاحق بما يقلل من قيمة الشوط الذي قطعته في الرواية. وصار من المستحيل أن أحصل على إجازة. أنزع فيها فيشة التليفون ولا أرد على المحمول إلّا إذا كان المتحدث "إيزابيل" التي لم تعلمني كيف أغلقه. وأعطل ساعة الحائط. ثم أستسلم لأعماقي. إذا تلاحقت الأحداث بهذه السرعة لن أكتب شيئًا ذا قيمة. فلو أنني كتبت عن انهيارات الواقع لما قلت جديدًا. وتلك التي يعرضها التليفزيون ستصير أخبارًا. إنني

حتى لن أستطيع رسم صورة كتلك التي يعرضها التليفزيون في أقل من ثانية.

يحدث أن تنظر صدفة إلى وجه فتجده ينظر إليك عبر الزحام. تلتفت عنه وتنظر فإذا به ينظر إليك مرة أخرى.. وجه المرأة يقول عما تحت الهدوم. هي منقبة من فصيلة المرأة الهزازة. الشتاء هذا العام شديد البرودة.. أحب هذا لأنه يدفعني إلى الكتابة، غير إني أضطر إلى ارتداء فانلات الصعايدة والكلسون الطويل. كما أن معدتي تتهيج بالبرد. لا أسوغ أن نتعرف ثم أصحبها مباشرة إلى البيت فـ "طلبة" وأصحابه سوف يصرفهم النقاب عنها. إنما لعلاقة كل ذخيرتها، ثلاثة ساندوتشات شيش طاووق وعلبتا كانز. واسم أسألها عنه فتذكر اسمًا آخر وهي تستخرج من كيس تحمله قميصًا معطرًا وحمالة صدر. ثم تتخلى عن ملابسها بغير خجل وببساطة من يؤدي عملًا.

أمام أحد المقاهي وقف شاب يهتف بالجالسين لعرض مهارة رقبته. بأن يديرها حتى يصبح وجهه إلى الخلف ثم يعيدها. عبرت الطريق مبتعدًا عن زقاق مظلم. فهناك من ينتظر في مدخل عمارة قديمة ليشهر مطواه وتفتش يده الأخرى في الجيوب. سائلًا عن الموبايل بصوت مترنح قبل أن يقول.. يللا يا بن القحبة. أمشي وماتبصش وراك. بينما تقف فتاة بائسة المظهر تعرض بصوت خفيض على عابر تنتقيه شيئًا عجولًا لقاء جنيه أو اثنين. قبل أن يظهر ذو المطواة.

تنتهي تخوم وسط البلد حيث يكثر الظلام وتندر الفتارين. رأيت العمارة التي تحمل لي سرًّا قديمًا. وأوقفتني إحداهن لأقرأ ورقة، هي توصية مختومة من جمعية خاصة بالمعاقين. مع ورقة أخرى بها آيات قرآنية وأحاديث مكتوبة بخط أنيق تعد المتبرع بالثواب. في هذا الموضع البعيد وتحت عمود نور جلس رجل ذو جلباب يبيع السلاحف الصغيرة. هو أيضًا يروض الفئران في صندوق صغير.. يأمرها فتطيع. وبين قدميه علبة من الزجاج بها سحالي ملونة كمنشور الضوء. لو كان معى أحد لجرّأني على الوقوف كي أتفرج. استوقفت فتاة حسنة المظهر رجلًا مسنًّا. وبلهجة مضطربة قالت له إنها في حاجة إلى أجرة العودة إلى بلدهم. تركت محدثة التسول هذه، متوقعًا أن أراها تكرر الطلب في شارع آخر.

أميل إلى وضوح العاهرات الذي يسمي الأشياء بأسمائها من دون مواربة. الحقائق لديهن خيال والخيال حقائق. المحترمة أو بنت ناس كما تسمى. تصيبني بالاحتشام، الذي يسدل حاجزًا في التو. ويجعل الكلام متورمًا بالمجاملات اللفظية.. بالأدب الجم. كنت خبرت فتيات الطريق. أعرف نظرتهن التي تجلطت في عيونهن على إحساس البيرة في بطن فارغ. مع ابتسامة مبالغ فيها. في هذا العمر لا أعرف على وجه الدقة ما هي العبودية. أو ما هو الشيء الذي يكمن بين سن الأربعين والخمسين. جاعلًا من كل ما فات بروفة. فأنا لا أطلع سلمًا صحبة امرأة واحدة على كل درج. إنما أركض وأنزل وحيدًا كطفل

يلهو ولا شيء لدي لأقايض عليه الآخرين. سوى أمنية مؤجلة بأن نشترك معًا في الخلاص من العبودية. فأحاول ذلك وحدي.

كانت الشاشات خلف الفتارين العريضة لا تزال تعرض صفوفًا من شواهد الرخام فوق مقابر. أسندت إليها صور شباب في الزي العسكري داخل أطواق من الزهور في حديقة أنيقة. تتوالى توابيت جديدة يتقدمها جنود يحملون لوحات نياشين. خلفهم تقف نساء أسدلن طرحًا شفافة على الوجوه في خشوع. نشرت وكالتنا قبل أيام خبرًا حول رصد رجال الأمن السريين لسيدة صغيرة تُرى يوميًّا في شوارع نيويورك هائمة على وجهها. بتوقيفها ظهر أنها مهندسة متزوجة من ضابط بالمارينز. سئلت عنه فأجابت بأنه هناك.. يقتل في مكان بعيد.. اليوم نقلنا أن السلطات أرسلت مئة ألف كيس أسود خاصة بالجثث إلى القوات في العراق. كيف أكتب هذا فنًّا؟

لا رغبة لي في طعام. أشعر خفة في وزني مثلما أشعر حين أكون مقبلًا على كتابة. أحس أيضًا بأن خيالي قديم. تحركه لحظات الوداع وعناق الأمهات والحبيبات وموسيقى الجنازة التي تنظم خطوات عسكرية قصيرة. تدرب عليها جنود سوف تعزف لهم ذات الموسيقى بعد حين. وكلام مكرر حول جنون جماعي لجنود بيض وسمر وسود. ونساء في ملابس عسكرية جميلات وذكوريات وأخريات بلا ملامح تنتمى إلى جنس محدد. حُقنوا جميعًا بأرواح قديمة، تم تحضيرها في

المعامل والثكنات لتوقظ فيهم وفيهن رغبة قديمة كان الإنسان نسيها بأن يلتهم زميله في الحياة.

عليّ أن أتدبر شيئًا من القوة للمضي في حياة بها كل هذا القتل وبها جنود على رؤوسهم خوذات مبرمجة على إرسال ما تسجله من ضغط ونبض وأدرينالين إلى السماء أولًا بأول. لأقمار اصطناعية مبرمجة بدورها على رصد كل رعشة على الأرض. لم تعد لأحد حيلة في أن يدعي القوة أو الضعف. هل تشيخ مانيكانات الفتارين أيضًا بعد أن جعلوا لها لحى وشوارب من فراء الخروف. وزودوا الفتارين ببيضات الضوء الملونة. وبمانيكانات تحمل ميزة الحركة الذاتية بالدوران لأعين العابرين. وإتيان الحركات المبهرة. تتدلى بينها خيوط مضاءة بحبات الحمص الملونة. في احتفال مسائي للضوء بغزارته الملونة.

انرسمت لعيني صورة كاريكاتورية من الموجات عالية التردد. تضرب أرحام أصنام الجبس والخشب، وتماثيل دوارة تهتز منها الكروش والمؤخرات. وقردة تبغم كالبشر، وعابرون يضحكون أمام الفتارين الممتلئة بالمرح والمسابقات اللحظية.. وتعالى خد هديتك. انتبهت على احتضان زميل عمل رأيته صباح اليوم. أخذ يسألني بحرارة عن الأحوال ثم ودّعني بذات القبلات ولم أفهم شيئًا.

التقت عيوننا من جديد.. رفعت هذه المرة نقابها وانفجرت ضاحكة.. معقولة.. "فاطمة"، أخبارك.. هجيلك.. أنا عارفة الشغل.. بنجيب علبة الشرف.. هقولك لما آجي.. دي بنتك يا

"فاطمة".. حلوة أوي.. طالعة لي، رقمك إيه.. لسه ماعقلتش! انتهز اللحظة أحدهم، كان يربط رأسه بشاش مبقع ممسكًا بقسطرة تخرج من سيالة جلبابه. بيده الأخرى أوراق بالية يظهر فيها الوسخ. ناولته نقودًا لم تعدها قائلة.. بتروح لدكاترة مشهورين ليه! هذا وجه "فاطمة". وهذا جسدها الذي ينم عن وجودها وأوجد فيه ببعض مائي. أوشكت أن أسالها.. هل هذه الفتاة ابنتي! غير أن تحفظها اقتضاني بعض الحذر. قلت..

ـ أنا اللي عملت تحقيق الست اللي كانت بتبيع ابنها ع الناصية دي.. مفيش ف التاريخ الحديث حاكم كره مصر والمصريين بالشكل ده. شوفتي التحقيق.

ـ شوف مصلحتك بأه.. أنت لسه شاغل بالك.. دي مركب بتغرق، إلحق نط. لسه الكتب الكتير دي عندك!

مراهقًا احتلتني "أم زمزم" قبل أن تسلمني إلى "فاطمة". وإلى أن ظهرت ثنيتان على جانبي فمي لامست الكثيرات. مع بداية الصلع وظهور ثنية أخرى على جانبي أنفي لامست غيرهن. سوف أحصي عددهن فمازلت أخشى الموت. "إيمان" لم تكن تملك لجسدها تاريخًا، ومثلها "سهام". إنما عقيدة تتكرر طقوسها بطريقة واحدة كالصلاة. لا مجال فيها لخيال. أن أرى النساء نسخًا عن امرأة واحدة حماقة لا تليق بأربع ثنيات في وجه أربعيني. في أتوبيس العودة رأيتها.. هزيلة شاحبة، لا تنظر في وجه أحد. تلقي في حجر كل راكب بباكو نعناع.

وتعود تجمع ما وزعته أو تتلقى ثمنه. خجلت أنني تركت بهذا الجسد بعضًا مني.. كانت هي "إيمان". بعدما تطهرت تمامًا من ذاكرتها.

من تحت رأيت نوافذ البيت مضاءة والشبابيك مفتوحة. إما أنها "إيزابيل" أو أن يكون ثمة ضيوف. قالت إن أبي وأمي طرقا الباب وعرفاها بنفسيهما. ولم يسألاها من تكون. عرفت أن للمحمول كاميرا. إذ صورتهما "إيزابيل" وكنت جالسًا بينهما. بدت الصورة أجمل بكثير مما نحن. رأيت لدى "جاسر" لوحة لزجاجة ومنفضة وكتاب وساعة ملقاة في إهمال فوق ترابيزة. كانت أقوى في النفس مما هي في الحقيقة..

نام أبي وسألتني أمي إن كانت لديّ صورة منفردة له. تذكرت لقطة قديمة له وهو يحاول خلال التقاطها جذب ولد صغير والولد يبعد يده. لم أسالها لماذا تريدها. لم يكن يشبه في نومه صورة برواز الصالة الجماعية. ولا تشبهها أمي. من زوروا لها شهادة تسنين. دافعين بالعمر سريعًا قبل أن يدركه العطب. أفكر كيف ستصبح هذه المرأة ضمن الحور العين على هذا النحو. تشرب الماء فيرى أبي الماء وهو ينزل من عنقها. ويكون نصفها له من المسك ونصفها من العنبر. وكلما ضاجعها عادت له بكرًا مرة أخرى من دون أن يزوروا لها شهادة تسنين. نهضت تكلم جارتها في التليفون بعد أن طلبت لها الرقم. واستغرقتا في حوار. سمعتها تقول ـ تقصد فتاة ما ـ كبرتْ ما شاء الله. بعد بكرة الامتحان!.. ربنا يعمي عنهم مراقبين اللجنة قادر يا كريم..

سلمي عليها. وأخذت تكيل الدعاء لكل من في حي البرابرة. أحب النوم وحدي وسأضطر إلى النوم إلى جوار أحد.. وربما أنام بينه والحائط. طليقتي الثانية كانت تحب النوم بره. اقترحت عليها أن نبيع أوضه النوم ونشتري سريرين صغيرين ودولابين. قالت.. جواز إيه ده؟ وفي اليوم التالى وضعتُ السرير في منتصف الغرفة لينام كل منا إلى الخارج.

كان أبي يصالب ذراعيه على صدره. مغطى ببطانية خضراء كأي مومياء نصف حية. إنه يتمنى أن يحج مع أمي وينادى باللقب وسط ألقاب كثيرة. صاحب الفخامة، معالي فلان، صاحب العزة، ولي النعم، جلالة فلان، صاحب السمو، جناب الأمير، فخامة علان، سيادة ترتان. كم ردد الرجل.. الشهر الفضيل، الكعبة المشرفة، المدينة المنورة، الحديث الشريف، المسجد الحرام، السنة المطهرة. ويشتاق إلى لقب لا يحتاج إلى مال أو منصب أو بشرة بيضاء. وهو لا غير الراجل بتاع الشركة، أبوصباع. قلت لإيزابيل:

- أتخيله يمزق لفائف الكتان، وتنهض مومياؤه لتنشر جناحين سمراوين طال طيهما.

قالت: good night

استدارت بعدما نسيت السيجارة والعة. هي جميلة، الجمال ينفي عن نفسه وصمة العهر. للجمال براءة، العهر عقيدة داخلية تكبر مع الإنسان كالإيمان والإلحاد ولون البشرة.

لا أجد في نفسي ميلًا إلى الاختلاط الاجتماعي. حتى إنني أهمل واجبات اجتماعية كثيرة وكلما طالعت كذبًا أهرب. في حفل ما جاءوا بمطرب ربع مشهور. كتب الأغنية على صفحة يده، كان ينظر إليها كلما غنى كلمتين فانسللت خارجًا من الأحضان والقبلات التي لا لزوم لها. كذا تركت الصوان في مأتم. كان الشيخ متعجلًا، يخطئ في التلاوة والناس غافلون مأخوذون بالطقس. غير أني أعرض على الكون إخائي بطريقتي. لن أفعل مثل الآخرين فأقف في الطابور لأفعل ما يفعلون.

ملاك أسمر يرفرف فوق المدينة.. عنوان ملائم لرواية عمن خاصمتهم السماء. والتقطت شركات التجميل الخصومة، لتشقر لهم شعورهم وتُبيضّ جلودهم وتقربهم إلى السماء من جديد.

- صباح الخير.. صباح الرضى يا قلبي.. إنت كنت بتطرقع صوابعك وانت نايم وترفص الغطا.. ربنا يهدّي سرك.. لقيت صورة لابوك.. خش صحيه.

تركوا لي هذه الشقة لأتزوج فيها. وبنوا بما لديهم جميعًا بيتًا على تخوم المدينة. تركوا فقرًا هنا لينشئوا فقرًا هناك. تحت راية الرجل الذي يقرأ ويكتب ويعلق صورة "عبد الناصر"، ويناديني بالأستاذ أمام الغرباء. ويرى أن ثمة دربًا مأمونًا يسلكه الجميع، وأن لمثلي دربًا آخر. تركوا لي بالشقة كنبة فوتيل عتيقة تنتمي إلى أثاث القصور. لا أعرف من أين جيء بها. وجهاز تسجيل في حاجة إلى تغيير الهيد. وساعة

رملية لا أعرف فيم كان احتفاظهم بها كان يريها للضيوف بإعزاز. وبعض أواني الطهي. أضفت إليها ما استبقيته من إرث الطلاقين. المكتبة وأشياء بسيطة حتى إن طليقتي الأولى قالت.. يااه دانت قنوع أوي. وقالت الثانية.. يااه دانت بايع أوي. ولا أعرف هل أنا ما قالته الأولى أم الثانية. كأنني ما تركت فيهما شيئًا مني. ولا تركتا فيّ منهما شيئًا.

تقلّق أبي في نعاسه فقد شعر أنني أفكر به. ثم نهض بكتفيه فوضعت له المخدة. قال.. قول لامك تعمل شاي.. وفتحت له التليفزيون. أنجبني مبكرًا، بيني وبينه ثمانية عشر عامًا، لكن ملامحه تبدو أكبر، وملامحي أصغر. ظل يتفرج صامتًا على جنود في التليفزيون مثقلين بالعتاد مثل رواد الفضاء. وعربات عسكرية تنزلق من بطون طائرات واقفة واللقطة الخالدة لبرجين تخرج منهما الأدخنة والنيران. ومن بعيد تنظر إليهما الوجوه بفزع. توالت مشاهد بيوت مدكوكة.. وعمائر مائلة بطولها.. بينما واجهة بيت عالٍ تنتصب كحائط وحيد في الفراغ. به شرفتان بجانب جثث ملقاة ومقاتلون يهرلون بأسلحتهم. وضعت أمي صينية عليها شاي وقرص ـ لا أعرف من أين جاءت بها ـ وأبطلت صوت التليفزيون بغير استئذان سائلة.. ع الصبح كده هو إيه اللى حصل تاني. قال أبي:

ـ ده برج التجارة اللي كانو ضربوه. مصمصت قائلة..

ـ عليه العوض، يظهر مصر هتفضل كده على طول.

ثمة ساحة حديقة يجذب فيها بعضهم بالأحبال تمثالًا منكفئًا على قاعدته ممسوكًا من قدميه. غطاه جنديان بالعلم الأمريكي وربطوه بالسلاسل قبل أن يسقط وتهوي عليه أحذية الواقفين. ظهر أنه من الأنابيب المجوفة وكنت ظننته من الجرانيت المصمت كأي تمثال.

توالت المظاهرات الحاشدة وهجوم الجنود بالدروع والهراوات. ومنصات البترول المقامة في البحر يتدفق حولها النفط. ومواسير تطلق فورات من دخان أبيض خلف دانات لا تُرى، تجوب المدى بحثًا عن الأجساد الملهمة لشهوة البارود. وزعيم يصرح وأمير يهاتف. ثم يلتقيان رئيسًا. وطائرات تنزلق فوق أسفلت سفينة تنطلق من أبراجها سهام النار. ومدرعات محصنة بكل تجليات الفيزياء والرياضيات الحديثة. تتطاير إحداها فجأة في الفضاء نوافير من شظايا. ثم لقطات لبشر يتقافزون خفافًا كالقردة بين الخرائب بمواسير قصيرة فوق الأكتاف وشيلان فوق الوجوه. وثمة عربات عسكرية مموهة مملوءة بالقتل.

صار الجميع يحضرون إلى العمل أبكر من ذي قبل. تشغي بهم صالة التحرير والغرف كأنما هي مستشفى عمومي في يوم الزيارة. ولا أكتب سوى ما يكتبه غيري. لم أشعر بالحرج حين أعيد لي التقرير الذي قدمته مشطوبًا منه ما ذكرت حول أن فنون القتل البدائية كانت أكثر شرفًا من تلك الحديثة. وأن حروب الماضي هي الأكثر رحمة، فالخصم يراك عن بعد وأنت تندفع ناحيته بآلة القتل. التقاء أربع أعين يصنع

الضمير. وربما تتوالى صور الأشلاء على خيال المنتصر والمهزوم معًا، فتقلل من قوة الضربة القادمة. اليوم تومض إشارات سريعة، فيضغط إصبع زرًا على لوحة. ليفنى أشخاص بعيدون بقذيفة أو بشعاع سام. ثم يظهر أخصائيو السياسة على الجانبين يتلون قداسًا متطابقًا حول الدفاع عن القيم العليا وأنها حرب لأجل الله. لا حاجة بأحد إلى الضمير، لأنه موجود على الجانبين.

أرسلت خبرًا أعرف أن رئيسي سيعيده. حول قول نائب "بوش الابن" إن حكمة الله تجلت في حبه لنا بأن جعلت النفط من نصيب دول ديكتاتورية مما يسهل لنا الحصول عليه عما لو وجد في دول ديمقراطية. جاءني غاضبًا وقال:

ـ دي حاجات تكتبها ف صحيفة معارضة أو مجلة حيطة.

أعرف الفوران الذي يحرك لساني في وجود فتاة جميلة. محررة جديدة، قالت وهي تطوي شاشة كومبيوتر شخصي صغير.. كويس إن لسه فيه حد رومانسي كده..! لسه بتكتب بالورقة والقلم.. ليه بتكتب للشئون الخارجية.. ما تكتب أدب.. قلت.. أكتب فعلًا رواية. عن الإنسان في مدن زحف عليها فيضان غطى الشبابيك وبلغ الأسقف. وما أن أفاقت حتى ضربها زلزال وصارت أكوامًا من حوائط مقلوبة وشرفات مائلة وأسقف ملوية. وأثاث بيوت وأحلام وئدت بحجم مدينة لم يعد لها وجود سوى الهدد. تظهر منه سيقان وأذرع وجثث حيوانات. كنت أهرف.. هرف منطقي.. بعد أيام

أطلعتها على تقرير أعددته واعتبرته ردًّا ملائمًا على رئيس العمل، عن مساهمة صناعة الدعارة في غزو العراق. فقد أرسلت السلطات عددًا من المحترفات إلى الجنود في العراق. وطالبت نقابتهن مبادلتهن على دفعات حلًا للبطالة. وأن تمنح كل واحدة نصف أجرها عن مدة بقائها هناك قبل أن تسافر، وأن يصحبهن فريق طبي. وطلبت السلطات ضمانات تمنع تسلل هاتيك النساء وسط مواطنين محليين لأجل عمل إضافي في بلاد ملأى بالنفط والمال والفضيلة.

ضمن التقرير عرضت كتيبًا بعنوان How to make a pros? صادر عن مؤسسة Bsc ـ أحرف مختصرة لمؤسسة beauty & sex corporation ـ وتبلغ استثمارات هذه الصناعة ثلاثة وعشرين مليارًا من الدولارات. لا تقتصر استثماراتها على جسم المرأة فقط. فهي تقدم العون لجمعيات خيرية ترعى منكوبي الكوارث والحروب الأهلية. وتنشئ دورًا للأيتام. وتسهم في تمويل صناعات مكملة. كهدايا المناسبات ومستحضرات التجميل والعرائس المطاطية وأدوات الكاوتشوك والسوائل والعطور الخاصة بلعبة الحب بين الجنسين أو الجنس الواحد. والمنتجات التي تعني مصابي البيدوفيليا والزوفيليا والاعاقات النفسية والجسدية. إضافة إلى امتلاكها لدور طباعة ونشر ودعاية. واستديوهات تسجيل أفلام واكتراء مؤلفين وممثلين ومخرجين وفنيين لإنتاج فيديو ومجلات. وإنشاء قنوات فضائية تعنى ببث هذا المنتج.

وبالطبع فإن لها دورًا قويًّا في دعم أو مناهضة هذا المرشح أو ذاك. هذا غير تكليفها لباحثين وأطباء علم نفس واجتماع ورجال دين وإعلاميين لدراسة التغير في احتياجات السوق الذي لا يستوعب كل هذه المنتجات. مع اتساع موجات التمرد الاجتماعي والتحرر. لذا تلجأ إلى الترويج للأديان التي تدعو إلى التطهر والفضائل. وتجرم أشكال التواصل بين الرجال والنساء. مما يزيد الحاجة إلى هذه السلع. ويروّج للمبيعات في المجتمعات المغلقة والدينية. حتى إنها قدمت غشاء البكارة الصناعي لمجتمعات تماهي ما بين عذرية البنت والسيارة الزيرو ورصيد البنك. كما أن ثلاثة من القائمين على هذه الصناعة يدرجون ضمن المئة رجل الذين يحكمون هذا الكوكب. ليس بصفتهم كرجال صناعة الجنس إنما كصناعات التجميل أو الفضائيات مثلًا.

أثار التقرير إعجابها وأشار رئيس التحرير بالنشر فورًا بعد أن حذف منه السطور الأخيرة. وبالطبع صرف لي مكافأة ترددت في تسلمها مثلما خجلت من وضع اسمي على التقرير. لو حكى لي أحد ما صدقت!.. فيمن إذن كنا نعزي؟ يا إلهي، ليس فيمن أعرف قوة غيرك. "جاسر" على مكتبه يرفع لى يده محييًا.. قال.. عاوزك بعدما تخلص. كان يمسك بسيجارة، وكوثر أم إبراهيم تضع له من الصينية كوبي القهوة والماء قائلة.. حاجة تانية يا أستاذ. قال "جاسر".. خدي الميه مش عاوزها واقفلي الباب لو سمحتي.

لم أندفع لاحتضانه كما أحببت مكتفيًا بالسؤال.. إزيّ أحوالك.. قال.. مش مهم، شوف يا سيدي، الجواز الناجح يكون من واحدة بعدك بستة أبراج. والصداقة الناجحة إطرح واحد من برجك وضيف ٣، أفشل جواز من اللي برجها قبلك على طول.. ظل يقرأ لي من كتاب. الأبراج النارية تلتقي مع الهوائية في كوكب الزهرة حيث الحب والمال. والترابية تلتقي مع المائية في عطارد حيث الفصاحة والابتكار. لم أفهم ما قاله وإن شغلني قليلًا. بحسب رواية ولادتي كما سمعتها، لا أعرف لي برجًا واحدًا، كان ذلك في أول الليل. حين انفجرت صارخًا على الحافة بين برجين. غافلًا عن القابلة وهي تجذبني من بطن أمي قائلة.. ولد زي ما قلت لك يا "بركسام" وتعلقني من قدمي وتربت على ظهري. أحدق في ملامحي بشعور جديد لا أعرفه. وقد صاغتني أحماض أمينية وإنزيمات لا أراها رؤيا العين.. ولا حيلة لي في توجيهها.. شفرة تكبر وتكبر وترمي المسافات بيني وبين أبوي، وتؤكد الانفصال. ثم ترميني شيئًا فشيئًا بالحنين الذي أدعه كي أربك هذا الوجود الحي بالإنشغال بالأسئلة وتلافيفها المربكة. لا شيء قاطع اليقين سواي. أنا من سجلته الدفاتر والأختام، مثلما يقتضيني السير على صراط الطبقة. صراطها الذي يعمل كقدر، أنا من يعمل ضد وجوده.. ونفيه معًا متأرجحًا بين طبقتين بينهما طبقة.

إن الانتقال يا "جاسر"، الانتقال يا أبي.. الانتقال يا "فاطمة".. الانتقال يا "إيزابيل" إلى الطبقة أصعب كثيرًا من الانتقال إلى الله. ليس

الحثالة بانغلاقهم ودونيتهم وتسامحهم. ولا السادة الذين يلتهمون ويزدردون من دون تذوق كما لو أن كل شيء على وشك النفاد. لا هذا ولا ذاك، لا أريد أن أكون سيدًا أو عبدًا أو أن أطوي أحدهما على الآخر بداخلي.

ـ إمشي يا زفت.. طبقة تلمك

لو أن أحدًا دعا عليَّ هكذا لقبلت يديه وقدميه.. يليق الشراب بلحظة كهذه. بدا وجود "جاسر" خارقًا من الحوارق. تقبله الجميع ببساطة سواي.

يسافر الرجل خارج البلد ثم يخطف رجله لدقائق ويجيء ليحبل امرأته ويعود، من تلك اللحظة يُكنى بـ "أبو خطوة ". ما رأيت أحدًا يخطف رجله إلى عالم الموتى ثم يرجع.

صاحب المقام المهجور خلف الشونة كان رجلًا صالحًا سافر للعمل بالسعودية لسنوات. وبعد أن عاد وجد أولاده زادوا ثلاثة. لم يعرف أحد سوى امرأته بأنه كان يخطف رجله ويضاجعها ثم يعود في نفس الليلة. على اسمه سمى المسجد أيضًا. القطب الكبير السيد البدوي هو الأشهر. هناك من أقسموا على مصافحته في الحرم المكي طائفًا مع الحجاج. وفي ذات الساعة أقسم مريدوه هنا على أنه كان يصلي بهم العشاء. فتمت توسعة المقام والمسجد بما يليق بصاحب خطوة كهذه.

قال "مراد" وقد تجعدت جبهته كمن يخفي أمرًا

ـ غطي عليا لحد ما أرجع. أختي زعلانة تاني مع جوزها.

قلت ضاحكًا.. خدت له الفياجرا!

التفت بعد عدة خطوات وقال: بيقولك شوية ناس اتقابلوا ف الآخرة. كل واحد يقول اسمه وكام سنة حلوة عاشها ف الدنيا. اللى يقول تسع سنين واللي أربعة لحد واحد مصري عليه الدور قال.. محمد عبد المتجلى جبر من (...) أمه للقبر. ضحكت ولم يضحك هو. طليقتاي كانتا من البرج الذي يسبق برجي. أتراني كنت أبحث عن فشلي في الزيجتين! هل يبحث الإنسان في الزواج عن مقتله. هل هناك الانتحار عن طريق الزواج!

كلما غادرت البناء من بابه الجانبي أراحني تجاهل المسلحين ذوي اللباس المدني لي.. يقفون متباعدين ثم أراهم يقتربون معًا من شخص معين. أو يحيطون بسيارة تتوقف. فأمضي مشغولًا بالحوائط المبطنة برخام أخضر.

تنزلق رزم البنكنوت فيها في مواسير ضخمة لا ترى. تضخها من الداخل كتل بشرية مكتظة بلا خيال. كلامهم هادئ كمن ستضاف أسماؤهم بعد حين إلى قوائم صانعي الحكمة.. ياللثقة التي يضفيها المال على أصوات البشر. جاعلًا منهم ثعالب عجوزة صلعاء بذقن سكسوكة ورابطات عنق. يتلون علينا عناصر النجاح مثل مدرس

الابتدائى الذي كان يناديني روح يا إنسان.. تعالى يا إنسان.. ويعد نفسه شريكًا في صنعنا حين نكبر. ويشبههم رئيسي في العمل. تطلبه السكرتيرة لأمر ما. أثناء اجتماع التحرير. فينهض هذا القصير المطاطي. يقف للحظات مواصلًا حكمته.. ما هي الشمس بتطلع منين.. م الشرق، هه.. حد ممكن يقول بتطلع م الغرب. ثم يسير ثلاث خطوات ويلتفت ويواصل حقننا بجرعات النجاح.

لن أبقى في هذا العمل إلى أن أقضى ويتفرق دمي بين المناصب وأنظمة الحكم وأصوات الكلام الكثير. لم أعد أرى "إيمان".. ربما لم أعد أعرفها وطبعًا لن أسأل أحدًا عنها. في آخر مجيء لها كانت تهرف. تلتوي شفتاها ولا يتوافق تعبير وجهها مع فوضى كلام يندلق بلا ترابط. لم أمسّ يومذاك جسدها وقد ظهر لي أنها تتفكك ببساطة ومن دون مقدمات عنيفة. "سهام" ماتت بطريقة مختلفة. أشعر كأنما كنت شريكًا لجسد مات، وقد مسني ببعض موته. هما الآن بعيدتان. تجربان أنوثتيهما في مفردات الكون التي لا يعنيها أحد.

حين سأبلغ ساعتي المسجلة في دفاتر الله، سأعيد إليهما ما تركتاه في جسدي. وسأرفض وأنا رافع الرأس المثول أمام ملائكة بيض. سأقول لهم بكل الثقة، أنا ناقص كبير يحب الحياة، كثير الفشل.. حاول أن ينتمي ولم يصبه التوفيق. أما أنتم فملائكة لا غرائز لكم.. لهذا لا تخطئون.. سأضيف أيضًا.. ولا تصيبون.

في ممر المستشفى الطويل رأيتها تدفع عربة عليها أدوات طبية إلى أن توقفت عند المصعد. أخجل أن أبدأ بالكلام دائمًا.. السلامو عليكو، ٦٠٢ فين؟ ـ كنت أعرف الغرفة ـ.. رايح ٦٠٢ بتاع التليف.. بيقولو ابنه صحفي. كابها الأزرق وخفها الأرضي يوحيان بالثقة كان ينبعث خفيفًا من جيبها صوت "محمد منير"، أحب أغانيه الجميلة. خصرها دقيق. ما جدوى أن تمرّضني فتاة كهذه وأنا أسير وأقف لاهثًا مستندًا إلى أحدهم. في المصعد قالت.. والدك بيتحسن، ربنا معاه ومع كل العيانين. قلت:

ـ ربنا هيعمل إيه ولا إيه؟ نظرت في صمت، ورحت أخمن مصدر هذا الغناء الحلو. في الغرفة كان أبي مضطجعًا بظهره إلى السرير. إلى جواره تجلس أمي و"أم زمزم" وبينهما خالي. وبالغرفة رجال كثيرون بملابس العمل. قلب أحدهم كفه ناحيتي قائلًا بعد أن أنزل ساقًا من فوق الأخرى.

ـ الأستاذ.. راجل صالح، حبيبنا وصاحب أفضال.. أتفضل يا باشا.

لم ينطق أبي مدافعًا عني، لم يتحرك. ظل على حاله تحت بطانية كاروهات مقددًا مثل مومياء. فاتت اللحظة التي كان ينبغي أن أدافع فيها عن نسبتي إلى رجل خسر سبابته في العمل وأعطاني فانلته الداخلية قائلًا.. هتدخل ثانوى ولازم فانلة تشرفك قدام أصحابك. فاتت اللحظة. ثم أنني لست صالحًا بالمعنى الذي يعرفونه.

أيكون ما حدث بسبب ما أكتبه عن حرية العاطفة وعن القلق الديني!.. أكثرهم لا يقرأ، يرى فقط صورتي مطبوعة. قال لهم أبي ذات مرة.. هو يقدر يكتب الصفحة كلها.. فقال أحدهم.. ربنا يزيده علم.

لم يبْدُ على خالي تقدم في العمر لا يزال شعره مفرودًا وبشرته مبيّضة. يسمع ويبدي دهشته بلصق لسانه بسقف حلقه من دون كلمة.

ـ فكيناه امبارح، كل ما نعمل إضراب ينزلو فلوس لأعضاء النقابة. كأننا بنعمل الإضراب لهم. لا حول ولا قوة إلا بالله.

اهتزت ركبتا أبي بالضحك وفاجأه السعال فرفع منفضة السجائر تحت ذقنه تاركًا بصاقه معلقًا وهو ينظر إلى المتكلمين.

فجأة اضطرب الجميع.. جذب أحدهم البطانية وأدخلها تحت السرير. تاركًا ملاءة بيضاء. أسرعت يد أخرى بإخفاء إصبع لولبي يعمل كسخان مع كوبين داخل الكوميدينو على دخول الطبيب والممرضات. وبينما أبي يجيب على أسئلتهم بوهن غامت عيناي. لأفيق على سرير في غرفة خالية.

رأيت سرسوبًا من الأرجوان يتلوى على المشمع نحو البلاط. أمي فقط من صرخ. ورأيت فتاة المظاهرات التي تشبه "إيزابيل" على الأسفلت تحمي رأسها بيديها من ركل البيادات.

انحنت الفارعة ذات الكاب الأزرق والصدر الثقيل على ذراعي بإبرة مجنحة قالت: سلامتك إنت الصحفي مش كده.. قريبك بتاع ٦٠٢ هيبقى كويس. قلت لها: مش هيبقى كويس أبدًا وامتثلتُ لأصابعها الأنثوية، مستعيذًا من جمال سن العشرين. أوجعت امرأتين جلبتا لي أطفالًا كثارًا. كيف كنت سأدفع عن نفسي الموت أيتها السيدتان الفاضلتان رغم أنفيهما.. وأيها الرجال المنكرون لي.

ذات يوم زارنا ضيوف، وتوالى السؤال القديم.. تحب تبقى إيه لما تكبر. ضحكوا حين قلت.. بياع جرانين ومجلات. وبعد لحظة قلت.. أو نجار، فانفجروا ضاحكين مرة ثانية. وتداخل صوت.. ده بيعرف انجليزي. كلمهم كده بالانجليزي. طب قول قل هو الله أحد الله الصمد. حين ذهبت لنشر إعلان بيع المكتبة. أخرج الموظف صيغة ثابتة لديه.. "لدواعي السفر، مكتبة أدبية نادرة خاصة بمؤلف مصري. قصص وروايات ومجلات قديمة وحديثة ومترجمة.. لأعلى سعر". ثمانية أيام مضت قبل أن يتصل بي المعلن. خلالها كنت أُخلي الكتب على الأرض للبائع ـ في الحقيقة للشاري ـ أمهلني أيامًا إلى أن يجيىء بالعربة والعمال. ثلثمائة دولار سعر عادل لكتب الواحد منها بعدة قروش.

ـ الورق زبونه قليل معدش حد بيقرا.. كله بقى إلكتروني دلوقت يا أستاذ.. ناولني العربون من الحافظة ورقة بمئة دولار.. بالكاد

طويت تفوح برائحة عطرية. ثم نظر إلى المكتبة يختبر متانة ألواح الخشب مضيفًا وهو يهزها:

ـ ودي تلزمك ولا نتكلم فيها!

ازدحمت الصالة برصص كتب، كم لمستني كانفراج الكرب. أعمدة شيّدتُ عليها نصف عمري ـ أهو نصف عمري حقًّا؟ ـ .. لم تكن توحي بهذه الكثرة وهي فوق الأرفف. تلزجت رقبتي بالعرق الحراق والتراب. كنت أكح وأعطس وأطارد الحشرات الفضية التي تهرب بسذاجة. ليست بي حاجة لأن أفتح بالمسطرة الكتب التي لم تفتح بعد. ولا إلى تجديد أغلفة التصقت وكعوب تآكلت. كنز أصابه العطب، ليتني أعرف من ذا الذي سيشتريه من جديد. هززت المكتبة، كأنما أهز بابًا مهجورًا يسقط عنه التراب. أكثر هذه الكتب لم أكن أفهم لماذا تصادر مع كل تفتيش. إلى أن أجدها فيما بعد في الممر التجاري مع باعة الكتب بذات الملاحظات بخطي.. وأكلاشيه اسمي فأعيد شراءها.

ما أريده اليوم لا تمنحني إياه هذه الأرفف ولا شرائط التيكرز ولا حتى الكومبيوتر. منحتني إياه اللمسات الحقيقية للنساء الناضجات، كنز المعرفة السرية. آه لو أحصي كم كُنّ فيما مضى من عمر. أيضًا ما الشيء الذي كانت تومض به نفسي في أقبية الحبس الانفرادي. قبل أن أسمع في هدأة العتمة أقدامًا تتوقف ويفتح الباب.. أتلقى بعدها نبضة من اليقين لم أكن أدري عن وجودها شيئًا. ذات مرة فكرت في عتمة

القبو بعناقيد بلح فوق نخلة. عناقيد ملونة.. حمراء وسوداء وصفراء. ترسل وتتلقى حبوب اللقاح بصورة خفية. ثم تنده حبيبات المغنسيوم والنتروجين وأجزاء الماء لتعقدها سكرًا ملونًا. منهية عملها لهذا الموسم. دأب ابتذله ضابط في أول عهدي بالعمل حين قال لرئيس التحرير.. طبعًا لازم يكون بيكتب.. هو هيبطل!.. القحبة إن تابت عرصت.. خد بالك منه كويس يا "مصطفى" بيه. رأيت بعد ذاك السياسة عملًا دون الكتابة.. غير أني لم أمض في أي منهما.

كنت أرصص الكتب وظل التليفزيون يبث إحصاءه اليومي بعدد القتلى والجرحى، والمشردين. ويعرض وجوهًا احترقت وشوارع بكاملها انهدمت. إعصار هنا وزلزال هناك. وأطفال تحملهم مروحيات رحيمة. إلى حيث يجري علفهم وتطبيبهم ووزنهم وتثمينهم بالريال والدولار. وشبكات من أطباء ومؤسسات خيرية وضباط شرطة وبنوك أعضاء بشرية ورجال دولة. يعمل كل منهم في جزء صغير من منظومة كبرى لا يدري بتعقيدها أحد. ومظاهرات بها فتيات تعقدن بلوفرات حول خصورهن. وقنابل غاز وصَلْيات من الرصاص الحي. الرصاص الذي يقتل اسمه الحي. وزعماء يخطبون وأحزاب تصدر البيانات. وكلام يضاف إلى قاموس من هواء يلوث فضاء الله.. وتعبير يجري تداوله بكثرة. شرق أوسط جديد.

حين ناولني البائع العربون، أخذ يعد صف مجلدات تصنع كعوبها معًا لافتة كتبت بماء الذهب. تتناول شروح السالفين لأقوال السالفين.

مجلدات تطبع لعشرات المرات وتباع لموظفي الحكومة بالقسط مثل أطقم جهاز العروس. لم أجد الوقت لقراءتها منذ اشتريتها.

كتب مكررة، وأخرى صقيلة حسنة الطباعة خيبت أملي بشرائها. فقد كانت تعد بإجابات شافية على أسئلة الوجود الكبرى.

بداخل أحدها عثرت على صورة من مجلة مخبأة، لعراة يتحابون. مثلها كان يبث في أطرافي الوهج، تفتنني الفتيات العاريات إلا من شورت كرقائق القصدير. إذا غضضت الطرف عما كان يصيبني بعد ذاك من انطفاء وشعور بالتلاشى في فخ الأنوثة المنصوب عبر الزمن.

يا كم كرهت كلابشات المعصمين والسياط ذات الشراشيب والتقييد بالأحبال، لأجل الحب. لولا أن "إيزابيل" أرادته ذات يوم. ودفعتني إليه زوجتي الثانية. سأحتفظ ببعض الكتب ولن يشعر البائع بغيابها. هي سير ذاتية لعظام يشبهوننا في الفقر وتكرار الفشل غافلين عن أنهم يغيرون الحياة. أما هذه الرصص الثلاث فكتب يكرر بعضها بعضًا، ويشرح بعضها الآخر. ما من واحد فيها يشن هجومًا على جيرانه. كتب شهيرة حاز كاتبها الثروة. بقدر ما عطل من عقول وأخضع من هامات. يصف فيها أبطالًا وآلهة وأنصاف آلهة منذ مولدهم.

سأحتفظ أيضًا بتلك الكتب التي قلبت عقلي من فوق لتحت. تلك المعاول التي لحق بأصحابها الأذى حين انهالوا بها على أشجار ذابلة خالية من الخضرة. تتجاور جذوعها صانعة حرشًا قليل الظل

والأكسجين. تستوي هنا باللغة نفسها، والبلاغة نفسها، والبطولات الوهمية نفسها.. والملائكة البيض أنفسهم، والأقوال نفسها التي أستحلبها كل يوم كقرص المخدر الرحيم.. قربانًا لآفة الوجود.

ما من علامة على الحياة في هذا الحرش الورقي. غير حشرات فضية، تخرج مسرعة كلما أنزلت الكتب. لتهرع في كل اتجاه. بعدما ألصقت الصفحات إلى بعضها، وخلفت بقعًا سوداء حتى لتسقط الأغلفة بلمسة إصبع. خلف الصف قبل العلوي، كانت علبة فيديو مخبأة، التوت وتفتت فيها شريط الفيلم. كان كل مشهد فيه ملهمًا للحواس. لو أمكنني أن أراه اليوم. بتلك البهجة القديمة التي كانت تبث العافية، وترشد القلب إلى الحياة. صانعة لحظات لا تمحى من الذاكرة.

أما هذه الروائية السوداء التي تصف رجلًا خجولًا يريدها عازفًا عن عاهرات البار الصغيرات. ورغم أنه لا جديد فيما قالته.. سأحتفظ بروايتها تلك. بل بكل رواياتها، حتى لو خصم البائع ثمنها من الصفقة. لم أقرأ أعمالها التي تصف العبودية، والشعور بالمهانة كأمر اعتيادي. بعد أن نما لها وجه يجلب لها كلمات الإطراء. مُركّب في كيان لم يعرف الجنس بعد. تقول لحبيبها: وأنا صغيرة كنت تختوخة. وأن وفرة الشحم الأبيض تحت جلدها اختصرت لها المسافة، قبل أن تدركها التاسعة من العمر. إنها واحدة من سكان حي البرابرة، تشرح نموها السري.. أعرفها بالطبع.

أنزلت واحدة فواحدة أواني الفخار الصغيرة.. فخار أحمر وأبيض أُعدها تحفًا.. هذه ليست ضمن الصفقة. نفضت العفر لأمحو عن الصفحات الأولى الإهداءات المكتوبة إلى اسمي، وكل ما يدل على شخص صاحب الكتب. لبرهة أحسست أن ما يحدث يمت إلى شخص غيري. رجل خمسيني لا يحترم سنينه. ويزال ممسوسًا بروائيين كأنه يعرفهم ويعرفونه. لم يمكنه الإفلات من سحر ذلك اللاتيني ذى الشارب الضخم يشبه زوج "إنعام". فهو من قرّبني إلى "أم زمزم" ودفعني لأن أنجب منها طفلًا. وهو ذاته من صورها لعيني بعد سنوات بطة بيضاء نهمة، مثقلة بالشحم. وجعل من ابنتها الوسطى عاهرة ذات صيت في المدينة. هو يشبه زوج خالتي وليس زوج "إنعام". فالأخير ممتلئ وضخم ثم أن الله يرحمه. هو أيضًا من عرفني على "جورجيت" و"إيمان" والمقدس "صبحي" وزوجته البدينة أم ذقن عليها وحمة كحبة زبيب كبيرة. كامرأة لا تُرى إلا في كامل زينتها وعصبيتها وهي واقفة أمام البيت تلم حواشي ثوبها عن أن تلمس أحدًا.. ولا أحد. وبوجهها العابس تأمر الرجال وتشتمهم بجرأة. فيلعنونها فيما بينهم وينادونها.. يا هانم، والمقدس "صبحي".. يا خواجة. ثم تأخذ من الباعة ما تشتري بنصف الثمن.. الباعة أيضًا يخشونها. لديه أيضًا رأيت عم "طلبة" وهو يستبيح بناته النائمات. فتتهيأن له في صمت. وتغض زوجته الطرف عما يجري. ثم يضربهن جميعًا بالكرباج والخرطوم بعد أن يعود في الفجر من التأذين للصلاة. صور كثيرة. طالعت من بينها "وردة". التي تحتل بجسدها خيالات

الكثيرين إذ تطلع عندي، لأجل حديث قصير. تخلع خلاله الحجاب بغير مرآة بأصابع تعرف أماكن الدبابيس. وتقول إن أباها لا يحبني وهي تضع الطرحة والدبابيس على حافظة الكتب سائلة في سذاجة.. هو الجو كده يبقى حر ولا برد. ثم تتمدد بكامل ملابسها على كنبة الصالة. فلا تصبح مجرد مراهقة ترغب بملامسة سرير رجل أعزب. وبالمرة تعبث بخيالات رجل طلق امرأتين مردفة ـ وهي تجرب نفسين من سيجارتي وتسعل مرات.

ـ بتشربوها إزاي!.. مروة كانت عاوزة تيجي معايا تشوف شقتك المبهدلة دي.. هي نضيفة أنهارده ليه! ثم تحدق في كل شيء باندهاش فطري. تتخلله حيوية النظرات وكثرة الحركة.

بعد اقتراب حذر من جانبي تشير إلى غصن مورق مرسوم بطول ذراعيها قائلة.. ده تاتو بالحنة.. تاتو إسلامي. شكلك كده حكاية الإسلام دي ما تهمكش.. عاوز إيه مانيكير! بينقض الوضوء، الحنة لأ. وتهز خصرها هزتين وتدندن بأغنية لا أحبها. أرى إلى الجسد في طلوعه بعد أن بثّته لسعات الخرطوم وقطرات الشمعة ومخالسات الظلام والعظات المشحونة بالكراهية، تنبيهًا مبكرًا من الألم والحسن.

ـ بتعمل إيه لوحدك؟

أقول.. قهوة عشان أعرف أنام. فتقول.. أنت عكس الناس في كل حاجة. أكفها عن مهاجمتي، ولا أشاء أن أصير موضوعًا للحديث. بعد أن تنزل تكون أصابتني بعدوى الأسئلة الكثيرة وتعلم الصراحة.

صراحتها تلهبني بأكثر مما يفعل تجاوبها الملتوي. أقول لنفسي.. الخبرة هي الالتواء والإخفاء والكذب. أنا أكذب كثيرًا. حتى الصراحة تحتاج إلى التدريب يا "وردة"! بينما الكذب يكفيه النسيان. مثلما أنسى دائمًا وجه "إيمان".. لا ينطبع منه شيء في عقلي غير ردفين مكورين. بعد أن ذبلت في هذا العمر القصير لتصبح مجرد امرأة متسخة الملابس. ترتدي طبقات من ملابس قديمة وشبشب ممزق. شعرها ملزق وأظافرها متسخة. حول رقبتها فوطة كمن يتهيأ للوضوء. على هذا النحو صرت أراها كل يوم أمام مبنى المحافظة في المغربية. لها وجه عجوز لشحاذة في السبعين. تحمل شنطة مدرسية مليئة ومنبعجة. لا تعرفني وأعرفها. تقف بالساعة وأكثر. تتطلع إلى الأبنية الهائلة حولها.. تسير لخطوات ثم تتوقف. وبشكل غامض تسحب كتابًا تظهر حافته من الشنطة وتفتحه على أية صفحة تحدق فيها ثم في البناء كأنما تراجع ما تراه. ثم تستدير لتفحص بذات الطريقة عمائر أخرى. قد يتوقف أحدهم أو تمتد يد من سيارة تبطئ وتناولها مالًا فتبعده بيدها وتعود إلى الانهماك في أدائها. لماذا يتركها المقدس "صبحي" على هذا النحو!.. كلما رأيتها خشيت على عقلي أن مسست هذا الجسد يومًا ما. مفكرًا بروائي طويل أصلع، أوروبي اجترأ على هذه المساحة من الوجود برواية فاتنة.. ثم أصابه الجنون.

كاشفت "إيزابيل" أمس بهذا الخوف. قالت.. لو أن الأمر هكذا لأصابتك البنت الشاعرة التي صادقتَها زمنًا ببعض موهبتها، أو أصبتك أنا ببعض صفاتي. قلت.. زي إيه؟ فاكتفت بالابتسام. مردفة:

ـ قد تكون أنت من رماها بجنونه.. هي اليوم "إيمان" أخرى، وليس من عرفتها. كنت طالعت لدى هذا الروائي الأصلع العاهرات تثرن الشفقة لا الكراهية.. ملطخات بالأصباغ.. سمينات تتنابذن أو تتشاجرن دائمًا. جائعات تنتظرن الزبون. تذهب بعضهن إلى الكنيسة يوم الأحد.. وتذكرن كل الأفعال بأسمائها الفجة بغير خجل. ولا تسرن في مظاهرة مثلما رأيتهن قبل ربع قرن. قد أحتفظ له بكتاب واحد رأيت فيه "نور" وخالي، وعضوًا بمجلس النواب يخطط طوال الوقت لينالها. بعدما صنع شهرته وأمواله من تسهيل مختلف الخدمات لأهل الدائرة لقاء مبلغ لكل خدمة. من هذه الرواية أيضًا خرجت فتاة أعرف شبيهتها.. والحكاية الدائمة لوجبة طعام امرأة.

قلت لها ذات يوم أنني أعيش وحدي. لم أرها في حاجة إلى قصة عن غدر فتاة لتنيب نفسها رسولًا لمحو آلام خلّفتها أخرى. ثم تقلب لي يدها بادئة الكلام.. بتعرف تقرا الكف!.. ده حرْق.. إمبارح كنت بانزّل حلة على النار سرحت ومسكتها بإيدي.. ثم تريني حزمة شعر مما يعلق بالمشط مضفرًا كأنها لدمية من القماش. وتريني خطابًا مطويًا أربعًا كتبته صاحبتها موجهًا إلى السيد المسيح تخاطبه فيه كفتى أحلام. حبيبي الغالي.. أبونا المسيح، أشتاق إليك.. إلخ. جاءت.. وشاهدنا

معًا فيلم فيديو.. ظلت خلاله تصب شتائمها على جرأة الرجل في الفيلم سألتها.. إيه أكتر مشهد عجبك فيه. قالت.. وهمه حاضنين بعض بهدومهم وبيتدحرجو ف الجنينة.. أصل أنا غيرك.. رومانسية شوية.. دي شبه صاحبتى بتاع الجواب خالص. رغم إنها مسيحية بس تعجب اللي زيك.. ما انضربش فيها مفك لحد أنهارده.. أنت برجك إيه؟.. بيك أبقى جربت الأبراج كلها، لسه برج واحد.. برجي ـ بعد فترة صمت تضيف ـ صاحبتي دي نفسها حد يخلصها من أخوها.. بيحبها ومش راضي يتجوز. بيقول لما يلاقي واحدة زيها. بس فكرك ما يروحش لبعيد. هي لسه محافظة على نفسها.

بدا أنها متى رأت أربعة جدران ستنام. إذ التفّت على نفسها على الكليم في لامبالاة. ظللت أنظر إلى الجسد النائم. بعد قليل قامت متجهة إلى دورة المياه مباشرة كأنها تعرفها.

في عودتها رحت أقبلها وألعق النمش البني على خديها. ظلت واقفة تتفرج عليّ في ثبات بعدما ضيعت من خيالي وقفتي أتلقى تيار اللذة وأبلل عشبًا أشقر بعينين مغمضتين. عدتُ بها من عبثية التنقل بين غرف المستشفي، والموت الذي يحدث ببساطة لا تخطر على البال.

استلقت كما كانت. سكنت عن أي حراك مما ضاعف شهوة، أحبها مع جسد مائل هكذا! أطبقت براحتي على المثلث الدافئ، وكتلة العجين المشوكة. تصيبني العانة الحليقة بالنفور. الفتاتان الأجنبيتان

كانتا تتركان كل شيء لطبيعته. برهة.. برهتان، استعذبت فيهما تجاهلها. وما أن جربت إصبعي حتى انقبضت زاعقة..

ـ إيه يا بني آدم!

سمعتُ صوت طلوع قدمين على السلم. فنهضتْ وقعدتْ بظهرها إلى الكنبة. واضعة رأسها على كفها مثلما تنام أمي فزهدت في أمرها.. قومي نامي ع الكنبة. قامت ونامت بملابس الخروج المبللة.. نامت بعمق.. سمعت أمي تقول لـ "أم زمزم": لو الست فرّغت عينيها م الراجل، خلاص كل حاجة راحت. على كل حال كانتا تتحدثان عن الزواج.

جلست إلى مهدها المبلل أنظر في وجهها، وأقيس بعيني الجسد الذي ينمو كل ساعة. كان جسمها دافئًا غير أن ردفيها كانا باردين. أحسست بقعة ملساء وسط الشوك. استدارت وهي تغالب نومها قائلة بابتسامة:

ـ دي مش مرض. أمي شافتني وأنا ف ابتدائي مع جارنا فوق السطوح. نزلت من سكات وحطت معلقة الشاي ع النار. كنت كل ما اشوف الدخان ما أحسش ولا اشمّ أي شياط.. قالت لي.. كده تنسى المكان ده من دماغك خالص. وأخويا قال لي.. المرة الجاية بمعلقة الأكل.

كنت أستمع ولا أعرف بم أجاوبها. مالت على ذلك الوضع الذي يجعل الجسد كبيرًا. قلت.. إنتي لسه صاحية؟.. قالت بنبرة خافتة.. ما تعمل وأنت ساكت.

نهضت واقفة وتدلى شريط دانتيلا فُكّت خياطته.. سألت.. إنت صحفي.. أمال مش غني ليه؟ راحت تقلب في الأشياء على الترابيزة.. إيه دول.. ستة جنيه وربع وفكة.. مفلس، وده إيه كارنيه.. وده كمان.. شريط دوا، ودي بطاقة.. ذكر.. مسلم.. متزوج، ولا حاجة من دول صح وأطلقت ضحكة خليعة.

شعرت بحرقان في الحمام ولم أتمكن غير من نقطة.. نقطتين.. ثم نقطة، عمرك حبيت واحدة م اللي معاكم، هجيلك تاني بس هكون لابسة نقاب. جيرانك ما يطمنوش. بدا أنها ترغب في الثرثرة لبعض الوقت.

إنت مجنون!.. طبعًا.. هتصلي العيد فين.. خلاص هاكون ف آخر صف.. لا إله إلا الله. نطقت لها بقية العبارة مضطرًا وأنا أغلق باب الشقة.

هل أتخلى عن الكتابة لسبب كهذا.. ذبابة ما أن أشرع في الجلوس إلى المكتب حتى تحط على إصبعي أو تدور على حافة كوب الشاي. لاحقتها بالمبيد فهربت إلى السقف. ونسيتها، غير أنها عاودت الطيران بعد ساعات. عليَّ أن أمتلك عزم ذبابة تحتال لوضع بيضها قبل أن تفنى. حتى ولو ظل عملي الذي أتكسب منه لا غير إحصاء يوميّ

بعدد القتلى والجرحى والمشردين. مضى زمن كان كل شيء حقيقيًا. يرتجف فيه الحفاة لأقل ألم. اليوم لا يرتجف أحد للقتل. لأحفظ عربون بيع المكتبة.. من يدري الأمور غدًا!

لم يعد حتى بإمكاني أن أهدر نطافي عبثًا. أشبه ساقًا خضراء يضربها الهواء في صفيحة صدئت في مدق مليء بنبات الصبار. والصرخات الملتاعة ولابسي الأسود والتلاوات العجولة. يحرص الجميع على بقائها.. بينما هي لا تفعل شيئًا.

إنه شهر رمضان وإذا ركبت الأتوبيس لعدة محطات ثم جلست إلى إحدى موائد الرحمن فلن يعرفني أحد. لن يعرفني رجل سألته من قبل كوب ماء فقال.. قوم اشرب الميه هناك أهِه. لطالما تذكرت أبي مضطجعًا على الحصير يرص الجوزة بأصابع ناقصة. وقريبًا منه امرأة منهمكة في صنع حشية من بقايا الملابس. وثمة بنت تنحني على طبلية تمر بالقلم في حذر على كلمات مطبوعة بالنقط. وأخرى أكبر تراقب عملها من فوق رأسها.. ثم تتركها فجأة إثر صيحة أم إلى حيث يجري إعداد الطعام. وصوت أبي يدعو أحدًا لا يُسمع له صوت قدمين.. اتفضاااال.. تعالى خش.

اليوم كهيئة نساء جالسات في باحة الدار. أمامهن فتيات تفردن بساطًا من القش. وأخرى في أقصى الباحة تكشف حللًا يحرك البخار أغطيتها. وبعض الرجال يرتبون الكنب والكراسي لصق الحائط

ويوزعون بينها عدة كلوبات مطفأة. بينما الأطفال يروحون ويجيئون بشيء من الطعام في أيديهم.

أمام أحد البيوت كانت امرأة بدينة تفك عقدة قش فوق سح مياه بنية. إلى الجوار بيت ترتفع فيه ثلاثة طوابق يجري بناؤها. يتدلى فوقه صندوق بحبل على بكرة. رُبط طرفه الآخر حول جذع حمار. يمتلئ الصندوق ويستدير الحمار عابرًا الشارع فيرتفع الصندوق ممتلئًا بالرمل، يفرغه أحدهم في الأعلى.. وينزل حين يعود الحمار، ليعبئه صبي نظر ناحيتى، سألته عن اسم أبي.. فنظر في وجهي بثبات وهو يلمس شفته بطرف لسانه.

ـ قال.. شكلك حكومة.. استنى اما اشوفه.

نظرت المرأة البدينة للحظة، واندفعت تحتضنني ثم قالت خش أبوك وأمك جوه.. على جدار البيت كانت هيشة من نبات مورق تغطى ثنية ماسورة مجارى تتفرع منها خيوط وأوراق فوق نشع الجدار.

كان أبي فوق السرير يميل إلى كتف امرأة لا أعرفها وقد نحل وانشدّ جلبابه فوق بطنه. يكاد يسقط الجلباب عن أحد كتفيه. أخذ يهرف بكلمات غامضة. سكن للحظات ثم ترك المرأة ليتقيأ. فامتدت يدها بخرقة وأخرى بكوب ماء. ليس بمقدور هذه المرأة أن ترجع خديه المضغوطين إلى سابق امتلائهما ليستوفي مفردات صورة معلقة في صدر الغرفة.

تنحنح الرجل ثم انطوى في قيئة أخرى. وهرعت يد لتمسح الرغاوي عن شفتيه وتمتد إلى فمه بكوب ماء.. قال جملة مقطعة واضحة، ثم ارتخى جفناه مواصلًا الهرف السيريالي. كان يزعق مبعدًا أشخاصًا وهميين.. كفاية بأه.. عاوزين إيه مني.. ملعون أبوكم.

قال أحدهم: الشيطان دلوقت بيحاول منعه من نطق الشهادتين. بس نطقهم بفضل الله.

بعد قليل أفاق وتكلم في وضوح مرتبًا للجميع مصائرهم من دون أن يخطئ قصده. أي الجهات وأي موظفين يتم اللجوء إليهم إذا تعطّل هذا الأمر أو ذاك وقدر الرشوة. أمور سوف ألخبطها له. فالطلب الذي عليه تأشيرات وأختام يرجو فيه السلطات مد ماسورة مياه نظيفة. كنت غيرت صفته بأن أضفت.. وإنشاء مدرسة مشتركة وحديقة ملحق بها مكتبة. فظهر الكشط والإضافة. ولم ينسجم نوع التوقيعات ولا صفة المسئولين الذين يخاطبهم الطلب.

هدأت ملامحه وتدافعت أصوات كثيرة تلهج بآية واحدة. وساد الاضطراب وكثر الدخول والخروج. وكلما دخل أحد أو خرج أضيف إهمال جديد إلى الغرفة.

النعش دائمًا أثقل مما يحويه. لا أعرف الرسالة التي يريد صانعو التوابيت إبلاغها من وراء ذلك. كنا في أحد أنهر رمضان ولم أدخن في العلن فكنت أتوارى لذلك. وكلما صافحني أحدهم تشابكت

القرابات وعملت الدموع لتنهمر الرحمات على رؤوس موتى عرفت بموتهم للتو. يتم إدخالهم جميعًا الجنة عبر الكلمات.

بينما كانت النساء ممسكات في العلن، راح الرجال يتبادلون القهوة والسجائر في اعتيادية سوّغها الحزن. وصارت مناسبة لمن عاشوا ضعفَ ما عشته للتباهي بذكرياتهم مع الرجل وتعديد ما فعله لأجل أن ينشئ حياة في هذا المكان. تُردد الوقائع في كل مرة بطريقة مغايرة، لا يعكرها ذكر الفقر فيما يُروى. توالت المدائح ليجري طبعه في الذاكرة. في إحدى ليالى رمضان التي تهيج الشعور بالأخوة.

نهض أحدهم بدور المقرئ بأن أضاف إلى صوته المعتم بحة حزينة أخذ يوزعها على الآيات فيعلو بها. ثم ينقطع نفسه فيشرب من كوب أمامه. ويعود يعلو ويلهوج متخلصًا من كل صوته دفعة واحدة. مطيلًا القراءة بما يناسب الجيرة ودسامة العشاء.

كان الجالس إلى جواري يلامسني بكل ساقه وحين أبعد يعود ويلتصقني. أشعر بتكرار نظرته إلى وجهي قائلًا.. منوّر يا أستاذ. ظللت أنصت إلى تلاوة بائسة لكلمات قوية لا أشعر بها تضيء جنبات روح تشبّع من "أم كلثوم" و "فيروز" وعود الشيخ "زكريا". كان الميكروفون يسكت ويخروش ويعود إلى العمل وحده. ولا ينهض أحد لعمل شيء. آويت إلى النوم وكنت مجهدًا تعاودني صورة زعيم بيده سيجارة يتثاءب. ويترك زفير الدخان يخرج وحده.. ترى هل تتزوج أمي؟ إن الرحم يذهب بالمرأة في هذا الطريق مرة.. وفي غيره مرة تبعًا

لمن يملؤه.. "إيزابيل" لا تعبأ بالرحم ولا بمن يملؤه فقط تعنيها المتعة.

انتهت اللحظات التي أطلق فيها مشاعري من روزنامة الحائط. حزنت حيث انبغى أن أحزن. وقلت في القرابات والجيرة كل الخير. شددتّ ملامحي في المأتم، وشاركت في تحنيط الراحلين. وبعد أيام سأفرح إذا جاء العيد أو أحزن. كانت طليقتي الأولى لا تمل قولة.. المفروض.. الواجب وتستعد يوم الخميس باللحم لتطبخه يوم الجمعة. وتتزين قائلة.. أيوه يوم الخميس اتعمل لكده. عاوز ف أي وقت.. هتخترع طريقة لوحدك!

آويت إلى غرفة تجمّع بها الأولاد. بدا أنها حديثة البناء فقد سُمر مشمع في مساحة الشبابيك. جاءت "إنعام" لتخلى الصغار قلت لها خليهم. تقدم أحدهم يريني تليفونه المحمول ويوالي مشاهد سريعة لا رابط بينها. أبي وهو نائم يحادث أمي. البيت وهو من طابق واحد. وأخرى ملتقطة لي في التو معهم والجميع يعملون بوجوههم حركات مضحكة.

إحداهن وهي تهرش ظهرها بصعوبة. ثم إعصار يقوض جسرًا. أو بناية عالية يتم تفجيرها بنظام متقن. ومعبد بوذي باذخ الزخارف. وكلابًا مدربة تلعب الكرة. وفتيات تقفزن من شاهق جبل. تداخلت إحداهن لتريني صورة لي وأنا أدخن خارج الباحة. ثم صورة أمي

وهي تتوقف لتستند على الحائط وبعد خطوات ترتكز على ركبتها للحظات ثم تواصل السير. وسط ضحكات أطفال لا يظهرون.

عُدت منهكًا، إلى إنزال كتب الضلع الأخير من المكتبة.. عالم كامل سوف يحمله العمال. روايات ودواوين شعر وقصص قصيرة وعجائب الفيزياء، وعلوم الفضاء وحيل الأرقام والهندسة الوراثية. وجدت مواضع الفيديو والكاسيت كمساحات نظيفة. "فاطمة" لا توجد في أي من هذه الروايات. هي من برج العقرب. تصل الوجود بحبل سري غليظ لا اسم له. جاءت "إيزابيل". قلت مشيرًا إلى رصص الكتب والتراب.. سنفرد كوفيرته في هذا الركن. قالت إنها جاءت لتودعني قبل أن تُنقل إلى سفارة بلدها بدولة بعيدة. كنت سمعت صوت المفتاح في الباب فعرفت أنها هي. فرّجتني على بعض صورنا معًا وقالت إنها سترسلها لي على تليفوني ولم أعرف كيف. أعطتني مبلغًا قبلته كصديق. لو أمكنني أن أصورها عارية بهذا الشعر الذي لا تحلقه أبدًا!.. كيف سنقضي الوقت هكذا؟

وضعتُ الشريط الذي أحبه في الكاسيت. قربتُ وجهي محاولًا إغواءها بما تحب. فضمت ساقيها وردتني برفق. سألتها عنوة ثم اعتذر لها بعد ذلك.. هي تعرف أن الرجل هو الرجل.. على الأقل في بلد شعاره.. إن لم تستطيعي أن تقاومي فاستمتعي. ناولتني المفتاح وأخرجت من حقيبتها زجاجة ويسكي إلى نصفها. وعلبة سجائر وأخذت تدخن. أعادتني الموسيقى والأغنيات بدائيًّا مضروبًا

بالسحر. واحدًا ممن لا أعمار لهم. لا يجيدون الكلام ولا ينتظرون السماح من المرأة. يأكلون الأعشاب والأطعمة النيئة مما يجدان حولهما. وقد يحفظان بعضًا منه لطفل. عقيدتهما أنهما سيتفككان في لحظة ما ضفدعًا عالي النقيق. أو يتسربان في أوردة شجيرة. تسعى بين أوراقها دودة تتخفى عن منقار طائر.

ـ عليك أن تنتهي فالرواية تجلب المال. وهذا سوف يسعد صديقتك.

ـ للمال طريق من اثنين يا "إيزي". إما فتحات الجسد أو فتحات العقل. وأنا أريد كتابة تحررني من العبودية.

لا أتذكر هل قلت لها أم لا.. إن المال إله يحكم ويلهم السلوك. وإن البشر يصنعهم مئة رجل، بالوقت سيندمجون في ثلث هذا العدد كآلهة الأولمب. لا نراهم، نرى فقط معاونيهم يضطجعون في منتجعاتهم يرتبون لهم لالتهام العالم على دفعات. شبكة محكمة تحدد من سيكون صاحب من، ومن يتزوج من، ومتى يعتم الإنسان ومتى يضيء.

ـ أرى أنك تتخلص من المكتبة بيبي.

كانت طليقتي الأولى تقول.. يا ريت تفضي لنا الأوضة. زاحم الدنيا كتب ومجلات وسايبني أرن ونازل قراية. حقيقةً لم أعد أقرأ من زمن. لكنها نطقت بما يقتضيه سياق الكلام. وتمرنت طليقتي الأخرى

على اختيار الوقت. الذي يكون عادة بعد أن تفيق من ذروة تصرخ خلالها بوجه ممتعض.. كفاية، الله يحرقك بجاز يا خواااال. وبعد نداءات المتعة هذه أكلمها فتنكر درايتها بما قالته. فترتبك فكرتي حول الجمال كشفاعة لكل شيء. ثم تمتدحني على ما كان مني والذي عادة ما يكون شيئًا غير ذي بال.. يالهوي عليك، شكلك كنت عفريت زمان كنت مأفور خالص.. ما تشوف يمكن ربنا يكرمك بعقد ف السعودية. أنا متأكدة والله إن ربنا هيوفقك. أسألها.. متأكدة ليه؟.. فتقول.. أعوذ بالله منك بني آدم كل كلمة تقف قدامها. بعد قليل تذهب للاستحمام. أكره أن تستحم المرأة أو الرجل بعد هذا. ثم أسمعها تتحدث إلى إحدهن في التليفون "بكده تخليه زى الخاتم ف صباعك.. يا بت بطلي.. طيب بس تعالي انتي زوريني، لو شفتي الحاجات اللي عندي هتعرفي قيمتي بجد.. جوه بيكتب". قلت لإيزابيل إنه عما قريب ستنهار صناعات كثيرة ضمنها الجنس. لذا ينشّط الساسة لديكم الميول الدينية في العالم. ليحيطوا الجسد، هذا المعبود التاريخي الذي صنع شيئًا اسمه الدين ـ بغلالات المنع والتحريم ـ . خاصة الأديان التي تباعد بين الجنسين. ولا تعبأ بالشذوذ فهو يمثل رقمًا صغيرًا في المبيعات. المنع يزيد الحاجة إلى هذه المنتجات. إنه الترويج للحرية على أن يكون هناك دين.. أي دين. هذا ينعش صناعات مرتبطة كالأسلحة وأدوات التجميل والقنوات الفضائية. وسيكون هذا ضروريًّا لإعادة تسعير براميل النفط، وشكائر البن والكاكاو، والسفن العملاقة وأجهزة التوصيل الحراري، الميزة

فيما يجري هي خلق مناطق جديدة للخيال.. وكما ترين فالتمرد اليوم يتخذ شكلًا جديدًا.. خليط من التدين بالدعارة بالمال بقضايا السياسة.

قالت باندهاش وكانت اعتادت نطق العامية بلهجة حي البرابرة لا اللهجة الشامية كالكثيرين ـ ألا يشغلك شيء آخر؟.. هذا العالم معقد.. ولا خطط فيه لسعادة طويلة المدى. أنا أهتم بالفن فقط.. وببعض الحيوانات. كي لا تختفي سلالات معينة لم تتحوط ضد البشر. أنت تضيع وقتًا كثيرًا بيبى.. كثيرون في مصر رأيتهم يضيعون وقتهم مثلك.

أخطو نحو الخمسين، بقدمين مدربتين على أن تتبعاني. وبحقيقة لا احتمال فيها.. لا شيء يشبه غيره، ولا تجربة تكرار لأخرى. عبارة صنعها ضلال الطريق.. مثلما يليق بخمسين عامًا. لم تؤاسني "إيزي" في موت أبي ولم أغضب لذلك. كنت أخذت المال الذي تركَته لكنها قالت من دون مناسبة.. أعرف أنك شرقي لا يقبل مالًا من المرأة.. لكنني لم أقصد شيئًا. ثم أذنت لي في ذلك الفعل الطفولي مع ثدييها. كنت كمن يؤدى عملًا بعيون مفتوحة وآذان يقظة.. شعرت كما لو أنها غمست حلمتيها في المرار. فكرت بها كبغلة لا يمكن أن تحبل.

كان الصبح قد اقترب بعلو أصوات قليلة في الشارع. أنهكني الكلام وأنهكها الشراب. هي من برج العقرب.. مثل "فاطمة"، يسعى إليها الرجل من دون أن تشير. لكنها تغير الآن من وضعها

البرجي قليلًا. كنا نجلس بين ثلاثة أضلاع من رصص الكتب. بدا لي هذا العش الصغير بساطًا من العشب ينثني تحتينا. إتساع مترامي به مدق بين طبقات من أوراق الشجر.. وكلما نهضت لأقلب الشريط في الكاسيت أو أتبول أدوس أرضًا اسفنجية زفرة الرائحة. ووشيش غامض أسمعه للحظات يتبدد مع اندلاع صرخات حادة قصيرة لعراك مؤقت. يسود بعدها السكون منذرًا بعراك جديد. مثُل لعيني زعيم السجن يخطو خارج الزنزانة إلى الحوش بالبدلة الكاملة. وعند فتح الزنازين يمضي بالروب في طرقات العنبر. أو يصعد إلى الدور الرابع ليؤجر أحد المساجين الجنائيين. لينفض الفرش ويغسل جردل البول ويرتب الزنزانة لقاء علبة سجائر وساندوتش. يحييه الحراس فيبادلهم بإيماءة من رأسه مع كلمات قليلة فإذا كان يدخن يحبس دخان السيجار ويتثاءب تاركًا الدخان يندفع من فمه. أكره نفث الدخان هكذا.

أشعر الآن أن كل شيء داخل منظومة عنكبوتية لا أعرف مساراتها. سيكون رائعًا لو أمنحها شكلًا فنيًّا في الرواية.. لكن كيف؟

الجنة هنا.. وهنا جهنم تتناوبان العمل في عدة أمتار من الأرض حيث يسير وحيد محتل بلعنة اسمها الوحدة. وعلى مسافة يقف طابور طويل.. ينظرون نحوه في إشفاق ويقولون كلامًا متشابهًا. لا.. ليست الوحدة.. بل لعنة الموت والموتى.

كفتي راجحة في ميزان العدل الأرضي، وكفة الموت خفيفة. خمسون عامًا إلا قليلًا لم تكن غير بلل يقطر من شعر امرأة شملتني بعريها. ثم وقفت تجففه أمام المرآة، وتتأمل نفسها. قبل أن تتناول ملابسها قطعة فقطعة. وتأخذ حقيبتها وتمضي. أو تتكور على نفسها على كنبة الصالة. وبعد قليل تشرع برأسها المبلل مغمضة العينين تسأل.. عندك أكل جوه! وما أسرع ما تشعر بورطتها كامرأة فتنهض بطيئًا بقميص حريمي مبلل. تظل تروح وتجيء ثم تطلب مني النزول لشراء أشياء ما. وأسمع كركبة في المطبخ ودندنة خفيضة. إلى أن تعبق الصالة برائحة الطعام.

بحسب كلام "إيزابيل" أنا اليوم في الثلاثين من عمري. فكل شخص هنا يفقد من عمره لا أقل من ١٥ عامًا تضيع هباءً. لو أن نبيًّا بُعث اليوم لن يتيسر له الوحي قبل الستين، لماذا إذن زوروا شهادة لأمي ولـ "إنعام" ولـ "أم زمزم" تزيد من أعمارهن سنوات! حركت المكتبة.. المداميك التي شاخت في مكانها. ورسمت نفسها على الحائط بخطوط متربة ـ حاجبة لونًا أفتح، وكومة من التراب. بها أقلام وعملات معدنية غطاها السواد، بطل تداولها. وشريط دواء تعفنت أقراصه. وقصاصات كم خشيت تمزيقها لأن بها لفظ الجلالة. ثم ملو قبضة من نسيج ملزق مثل كيس بلاستيك مسته نار. لم تُحصن صاحبته وجهها ضد التذكر كالكثيرات. إنما نظرت لي من الشارع محركة أصابع يدها تباعًا قبل أن تفتح باب سيارتها. آنذاك كانت مضت أيام

على الإفراج عني. واجتذبتها الدعاية التي أحاطت باسمي وبطريقة القبض عليَّ، خلال تدربي بالجريدة.. هذه الشقراء جاءت لمرة واحدة ولا أتذكر اسمها تمامًا. فقط أتذكر وجهها الشمعي المدور النيئ كوجوه الراهبات التي تصيبني بالعجز فورًا. وجدت أيضًا صورة.. صورتي وأنا في أول العمر بغير انكسارات أو فشل. من يصدق أنني هذا الذي يكتسي وجهه هدوءًا وثقةً بالنفس.. أو أنه ذلك الرجل المارق عن الصراط.. كل صراط.

ثمة كتاب التصق الحائط كنت وضعته بينه وبين ساعة رملية، تركها أبواي قبل رحيلهما فجعلت لها مكانًا كتحفة بين الكتب. ضاربو السياط.. الحمد لله أنني لم أوجد في أوروبا في ذلك الوقت. حيث هاجمها الطاعون وقتل ثلث سكانها. وكان القساوسة ينتقون من بين الناس من يظنونهم لا أخلاقيين ليجلدوهم. ويهاجم الناس القساوسة على اعتبار أنهم لم يتقوا الله ويصلوا بما يكفي لدرء الموت الأسود.

صنعت الموسوعة الفنية بأجزائها رصة كاملة. كم ذهبت بتوتري حين كنت أتأمل رسومها العتيقة والتماثيل الرخامية الهائلة. ميزها البائع الذكي مع مجلدات تشيكوف والرواية الروسية. ليتني أعرف من تكون صاحبة الصورة مثل كارت بوستال. وتشبه المرأة ذات التايير والدبوس الصغير. التي كان أهلي يحيطونها بالتوقير كلما زارتنا. يرسم الظل لخديها خطين يرسل بهما الوجه النحيف رسائل الشهوة. ما الذي

ترمي به هذه السن شخصية المرأة. تشعرني الصورة باهتة الخضار كمن يستمني على ماضيه، بل كشهيد تدرب على الشهادة بطريقة خاطئة.

كمن يتعرف على نفسه من جديد جلست على رصة كتب أدخن سيجارة، وأحتسي بقية ما تركته "إيزابيل" في الزجاجة. أشم بقايا عطر تفوح من الكتب، من عطر الفتاة الكلبوظة. "عطر أسود".. يا له من عنوان جذاب لرواية. لو أن "سهام" عادت الآن لصنعت مصطبة عريضة بضم هذه الرصص ولتمددت عليها قائلة.. أيوه كده.. بحب الحاجات الغريبة.. ترى ما نصيبي من موهبة تنفد مثلما تنفد النقود! من أفكر بتناولهم روائيًّا واضحو الوجهة مستقيمو الملامح.. لهم صبغة واحدة كقدر.

نأكل في العام أطنانًا من الخبز والخضروات والحيوانات كي نكبر قدر إصبع. وأنا لم أقرأ منذ عشرين عامًا ما يجدد أنسجة عقلي. كيف سأكتب جملة تضيء عقل أحد؟ على رصة كتب جلست كمن يتأمل شخصًا غيره ينحسر عنه العمر.. لا ليس العمر إنما حاجة الآخرين له. ما فهمته على مدى السنوات هو ما تفعله بالمرأة الرغبة فيها.. لا تنساها أبدًا.. ألهذا أكره العمر.. العمر حفل تنكري يبادل فيه الجميع ذواتهم باعتيادية وبغير كلل.

كم اعتقدت أن حضنًا عاريًا يكفي لترميم روحي بين هذه الجدران التي نمت بينها من قبل أرواح كثيرة. مثلما أنه لا يكفي البكاء لكي يذهب الحزن. لا تكفي الهزائم كي أكتب رواية. اتسخ زجاج

الساعة الرملية وتيبس الرمل في قاعها. كنت أظنها مفتوحة تملأ بالرمل كل حين. سألون كوبيها وأجعل منها تحفة تذكرني بأبي. كنت أظن الرمل بها يمكن تغييره فإذا هي مغلقة. كم رأيت خالي يجري تجاربه فيعد الأسلاك والموتور والفيش ليجعلها تعمل بالكهرباء وأبواي يثنيان على دأبه وإخلاصه.

أقوم بالإهدار المنظم لقواي. كمؤمن لا يعرف موضوعًا لإيمانه. أتراني لا أصلح لواحدة ممن يطلق عليهن امرأة فاضلة. لا أعرف معنى هذه الكلمة. طالما هناك رسولة أو نبية. رسولة أرفق بالحياة من رجل. كنت سأصدق بشارتها فورًا. ما من امرأة بشرت بالموت والكراهية وخاصمت الحياة إلّا أن تكون ثلاثة أرباع رجل في هيئة أنثى.

الفاضلة لا تنضو ثيابها قبل أكاذيب كثيرة وأموال. قانعة بما يلقى إليها من اشتهاءات رجل، أشعر بنفسي على طبيعتها مع فتيات البار. مثلهن لا تردن تفسيرًا لشيء. أعرفهن جميعًا وتعرفنني. لا تصدني عنهن الأصباغ والحلي الذهبية وعوجة الكلام، ولا أسماؤهن الموجزة.. "نانا" و"فيفي" و"دودو" و"لولا".. فكلها اسم يخفي آخر. الطرف الذي يعرف الاسمين معًا هو الشرطة وربما "كيرياكوس" أيضًا. تجيد "نونا" جنس العذراوات مع حركة أو حركتين تملكهما وحدها. فاجأتني بالقول:

ـ مش هتشوفني بعد كده. هتجوز واقعد م الشغل. فادية هتعمل كده الشهر الجاي، وتحج مع جوزها.. هه.. مش هتبقي تشوفني

وتطمن عليّ.. ممكن آجي لك مرة واحدة.. مرة بس عشان حالفة ع المصحف.

أخرجت من الحافظة صورة كنت نسيتها لأمي. ففي ذلك اليوم البعيد نهضت نصف عارية وأخرجتها من زاوية البرواز قائلة..

ـ هكبرها عند مصوراتي قريبي وأرجعها لك. مش قريبى بالظبط ربنا يسامحني. إنما بيحبني وكان عاوز يخطبني بس طلع مش ممكن نتجوز. إنما يتمنى يعمل لي أي خدمة. طلع راضع عليّ. أمي وأمه مش موجودين قامو رضعونا من معزة واحدة. مش كده نبقى راضعين على بعض؟ ولا الحاجات دي مش تبعك. سألتها..

ـ علبة الشرف دي إيه يا "نونا"؟

مين عندكو بيتجوز. دي ياسيدي زي علبة الشبكة تمام. بيفضل فيها المنديل بالدم اللي عليه. يمكن الزوج يُغدر ولا يجرّح بكلام. "فاروق" جبها مع الحاجة. مش ناوي تتجوز إيه رأيك ف "منى".. اللي زي دي تفضل تحت رجليك العمر كله وحلوة. ولا دي كمان مش عاجباك! ـ أضافت ضاحكة ـ طيب دي، أرتني صورة دائمة الاعتزاز بها وهي بعدُ فتاة نحيلة نضرة. كلما فتحت الحافظة تريني إياها ـ ذهبت وعادت بكوب بيرة لي وأردفت ـ مش قابلت الضابط اللي كان نام معايا هو واصحابه. حلف لي كذا يمين إنهم سابوني وانا بنت بنوت. طلع متجوز واحدة قريبتي قمر ـ قلت له هو انا من الكرابيج

والكهربا كنت دارية بحاجة. ضحك وحلف لي ع المصحف تاني بإن انا لسه بنت. قلت له دي حاجة فات عليها سنين، بيشتغل محامي دلوقت. قلت لها إن لي طفلًا غير شرعيّ. أردفت مقاطعة.. عارفاهم، العيال دول بيبقو حلوين أوي. يمكن عشان جم فلتان.. شفت سوسن كذه.

كان السكان الأصليون لا يزالون يترددون على البار. وإن اختفى البعض، بعد ما استوعب عالم الكومبيوتر الكثير من الطاقات المراقة هنا. والبعض يجيىء ويطلب شيئًا يسهو عنه وينام. وفي المساء يحط شباب ضيقو الملابس يقومون على خدمة صنف من العرب من النوع الذي يصخب بعد الشرب ويرافقونهم في العودة. يعملون لقاء أن يدفعوا لـ "كيرياكوس". لا شيء يعيد إليّ طاعة قدمي. جدير بي الآن أن أفكر بامرأة.. امرأة حقيقية. أجهل معنى حقيقية.. تدفع عني هذه الملابس الثقيلة، حتى أحك جلدي كله بكل مساحة جلدها كجروين يلعبان. لا تهمل التقبيل بل تطالب به كحق من حقوقها وحين تسألني.. خلصت الرواية؟ أقول.. إلى الآن لا أعرف موضعًا لمشهد فتاة الكومبيوتر التي تجفف الماء الحي بالمكواة. ولا كيف أربطه فنيًا بحقيقة أن هناك ١٢٢ مليونًا مهددون بالجوع في عالمنا العربي، و١٤٠ مليونًا يجهلون القراءة والكتابة.. ثم أكلمها عن دورة حياة معادة عائلها الوسيط فتارين وسط البلد ولا أغفل الحديث عن جمالها. إلى أن يرشد التناغم كلًا منا إلى ما يفكر به الآخر في تساوق صامت.

في الضوء القليل أقول كل شيء. وأنه متى أظلمت الغرفة فإن أمي كانت تستعد للبق الذي يهيجه الظلام. فيزحف فوق الأثاث وعند شقوق الحائط لتكبسه بقطعة عجين. وأسمع صوتها يقول.. جاز للشعر ولّا طماطم للفيران وشيح للتعابين ولّا بودرة للبراغيث.. يا همّي. تغمض عينيها بما يشبه الغيبوبة وتبتسم. ويتصل وابل من الومضات فأذكر أنني أحب "سعاد حسني" وأفكر بموضع في الرواية لقولة "بوش" إن الله يزوره في النوم ويطلب منه مقاومة الأشرار، وأن الملائكة انبغى أن يكونوا من كل الأجناس وليس بيضًا فحسب. أريد للحب وللكتابة أن يخلصاني من العبد الذي يساكنني الجسد. وسأطلب من "جاسر" أن يلون لي ساعة رملية لتصبح تحفة رائعة. وأقول لها أن للمال إرادة تعلو على كل النوايا الطيبة. قد يغضبها قليلًا ذكر "إيزابيل" أو أن لي ابنًا وابنة غير شرعيين. فأقول أن بملامحها كبرياء يليق بالأنثى.. أضخ به في شراييني وقودًا جديدة يجيىء بالذاكرة والسوائل من جديد.

أسلمها وريدي لتتسرب فيه قطرة فقطرة إلى أن يمتلئ بخام الأنوثة الذي أعده الله بيديه.. الله.. مضطر أنا لعقد هذه الصفقة، لأكف زملاء العمل عن ملاحقتي بعلامات التدين أمامي. فهم يختلقون لذلك المناسبة، ويستنطقونني ما يخشون قوله بألسنتهم كأنما يقولون.. يا رب هو اللي بيقول مش احنا. وحين يبدأون تلاوة كلامهم المكرر. أطلب منهم تركي كشخص يعاني عذابات القلق

وافتقاد اليقين. وبدلًا من أن يهنأوا براحة البال التي يصنعها اليقين. يعدونه امتيازًا يوجب عليَّ أن أقوم عنهم ببعض شغلهم. فأعد تقريرًا لهذا وأأذن لذلك بمفتاح شقتي ليجيء بخطيبته، وأقضي نوبتشية عن آخر أو أدع له سفرية، حتى صرت مستباحًا. وحدهن الزميلات لم تكنْ تقاضينني ثمن "إيمانهن". أو تلاحقنني بالكليشيهات التقليدية للهداية.

وفي الحي حيث عهدت "طلبة" وأصحابه يهرولون خلف كل نعش. أمر فيطيلون النظر بحثًا عن ذلك الشيء الذي انبغي أن يبدو على رجل قلق. وقد تثور فيهم شهية تقديم القرابين على حسابي، فينيبون "طلبة" ليذكرني بالنعم التي يجلبها الإيمان ملمحًا إلى تلازم فقر العقيدة وفقر المال. كف "طلبة" عني بعد أن انفجرت فيه ذات يوم.

ـ إيه.. هو الإيمان وظيفة؟

لدى المقابر ظل يروح ويجيء يفتعل الحديث إلى أحد الواقفين بجانبي. رأيت الذباب المعدني الأخضر يحط على وجهه وذراعه المشمرة ولا يشعر به. هذا الذباب يلسع كنحلة. فتركتُ المكان لأتجول في الممرات الضيقة المليئة بأصص الزرع وواجهات الجبس الطرية. عسى أن تمدني أصص الزرع وواجهات الجبس بمعنى.. أي معنى. هؤلاء السادرون في اليقين والمال سيظلون يقولون نفس العبارات إلى أن يجاء بهم محمولين إلى هنا. تاركين نطافهم تسعى في البلاد وتكرر

الدورة. في الممرات ما يدل على أنها أنبتت ذات يوم عود قمح أو برتقالة. هي اليوم سواد تتراص فيه العظام وعلب الصبار. أعرف إنني حين أضاف إلى هذه التربة سوف أسري قليلًا من الأنفاس في صدر فتى أو حُمرة خدين في وجه أصابته كلمة إعجاب.

شعرت بالجوع.. يندر أن أشعر هكذا. جاءتني "نادية" ببعض الساندوتشات وزجاجة ماء. قالت وهي تضع الطعام.. تحب أجيب "منى" معايا ونيجي نطبخ لك؟ كانت تلك هي صاحبة الصوت الجميل الذي غنى. عجبت أنه حتى هنا أيضًا يمكن الغناء للحب.. لما رمتنا العين.. ما تلك الحياة بالضبط.. لا أفهم شيئًا.

تشبهين يا "نونا" لوح زجاج طيب ينفذ الضوء من وجهيه. تكفيه ستارة خفيفة أو فورة من بخار شتوي للجالسين هنا لتبطل عمله. راقت لي المرايا المدورة التي تحيط بدائر الصالة.. تصلح تلخيصًا لمن عرفت.

مرآة الباب العريضة التي تشع نورًا قليلًا.. هي "أم زمزم" قبل أن يشيخ زجاجها ويعتم هكذا مهما كانت كثرة النور.. أبي وأمي مرآتان.. بل مرآة واحدة مقسمة بشروخ مائلة. أشبُّ قليلًا لأرى وجهي فيها، أو لا أشب فتنبعج أجزائي. عم "جودة" و"مراد".. بل حي البرابرة كله، عدسة تكبر المشهد من كل الاتجاهات. بؤرة تزدحم بالضوء ولا تصنع ضوءًا.. تصنع النار لو شاءت.

أما "جاسر" فمرآة يد صغيرة موشاة الإطار.. تكمن في حقيبة كل امرأة منذ كانت بالدنيا نساء.

"إيمان" مرآة سيئة الصنع. توزعت فضتها على سطحها عشوائيًّا. تكبِّر أجزاء من المشهد أو تضائِلُها أو تخفيها بطريقة عبثية. يضيء جزء منها ويعتم آخر مهما كانت غزارة الضوء. لا.. هي أبسط من هذا.. مرآة ترى العين عبرها من ناحية واحدة. أما "إيزابيل" فمرآة كبيرة مقعرة، تُضائِل من الواقع.. من كل شيء حتى تنفيه في بؤرتها العميقة.

"فاطمة" وحدها مرآة فوتوجراي.. تمتص روحك، وتزداد لمعانًا بما امتصت من أرواح ثم تَدْعُهم إلى تقليب الألوان كيفما تكون درجة الضوء.. وحدها تضيء لمن يطالعها كيفما يريد.

عم "طلبة" وأصحابه بأجسادهم الضخمة المعدة جيدًا.. مرايا أيضًا.. لا.. بل ألواح متشابهة تشبه زجاج سيارة تفتت وظلَّ في مكانه يتصرف في الحياة على أنه زجاج.

ما عرفت من نساء.. كتل من زجاج مصهور. تحتاج إلى عمل كثير لتصبح أيًا من تشكيلات الزجاج التي بلا نهاية.

وهذه الكثرة من النساء التي أطالعها في الشارع والباصات مرايا أيضًا.. ألواح من الزجاج المصنفر. لا ترى العين من خلاله.. وإن ظلت تعمل كمرايا.. وحدها الدوائر العتيقة، مشطوفة الحواف. الموزعة بالتساوي على أركان الصالة حولي. بمقدورها أن تريني كل

شيء، وكل شخص بغير خداع مهما كانت كمية النور. أرى فيها وجهي. وببعض التدقيق أرى اللوحات فيما بينها برسوم السلويت وتحتها عبارة ثابتة.. ever say no

Badael Publishing House

دار بدائل للطبع والنشر والتوزيع
٩٨ ش محيي الدين ابو العز-المهندسين
الجيزة-مصر

00202-33361467
002-01157565677
www.darbadael.com
info@darbadael.com

لوحة الغلاف: هداء الفنان/ علي البهات

ساعة رملية.. تعمل بالكهرباء

هي حكاية كاتب يحاول أن يكتب رواية على مدى عقدين بغير جدوى. أغرق في عزلته ليكتشف كأنما سن الأربعين بروفة لما هو بعدها. وأن للمال الزائد إرادة تعلو على النوايا الطيبة. وأن المجتمع ليس في حاجة إليه.!

حتى في السجن يتبين له أن الكبار كبارٌ والصغار صغارٌ. وأن إدارة السجن تعامل الكبار كأنهم حكام محتملون باحترام وتقدير. يقبل على الشراب والنساء اللائي اعتدن بدورهن إرضاء الله والعشيق والزوج والمجتمع بغير أي شعور بالتناقض.!

هذا هو ظاهر الحكاية لكاتب من أصول شعبية.!

أما باطنها فيكشف أزمة وجودية لمثقف تشغله التابوهات الشائعة؛ الدين، الجنس، السياسة. يحاول اختراق تلك الحواجز الاجتماعية ويراها تمثل العبودية الحقيقية. وأن لا تحرير له إلا بتحطيمها؛ لا بأن يغير طبقته، ويصبح سيدًا يطوي عبدًا بداخله.!

ترصد الرواية جانبًا من تدهور وانحدار الطبقة الوسطى، وسيادة الحثالة والهاربين من كل الطبقات.

هي رواية في وصف مصر على مدى السنوات الأخيرة بلغة الفن الروائي. لكاتب وحيد، طلق مرتين، لكنه لا يزال مفعمًا بالذاكرة.!